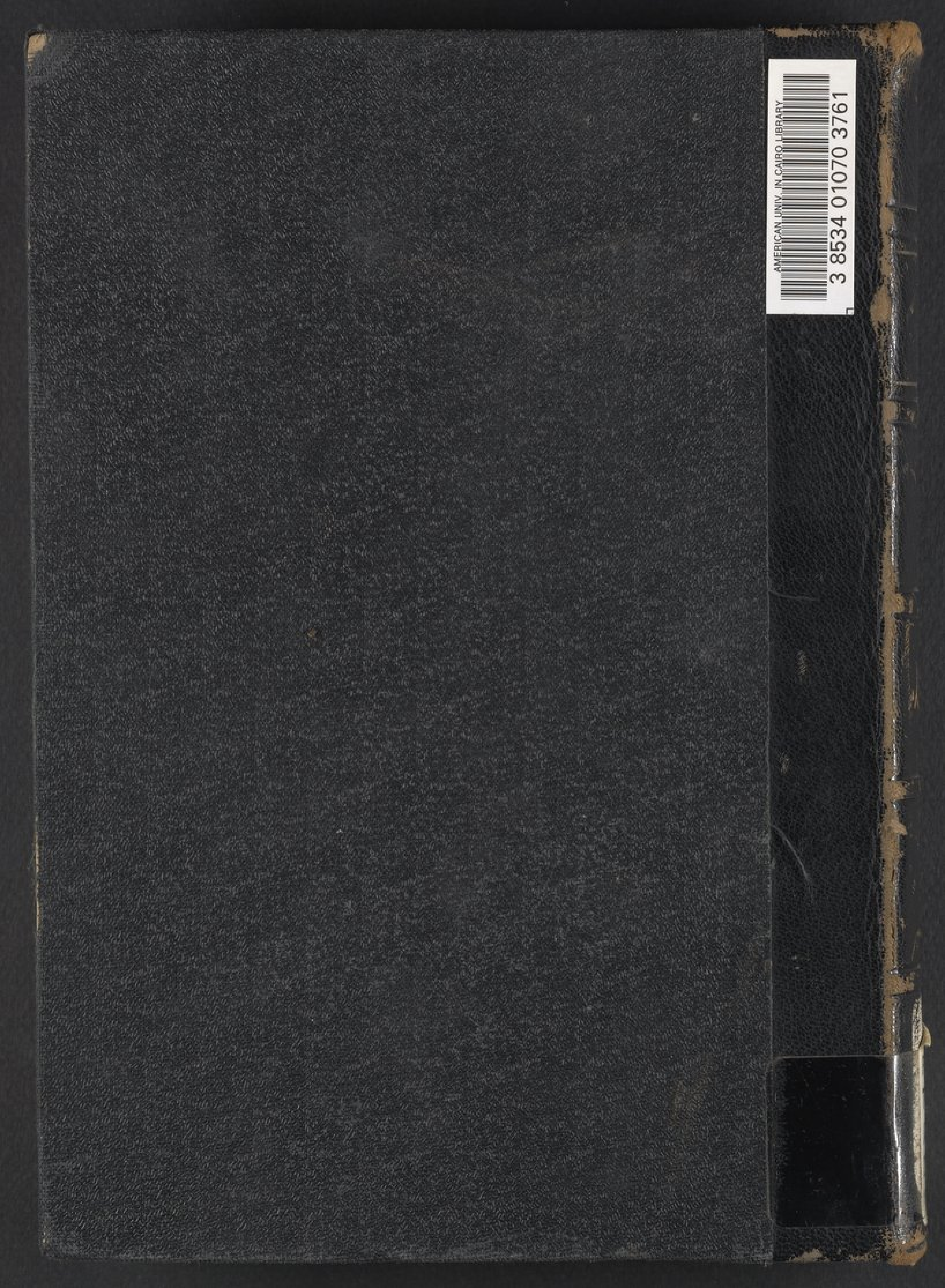
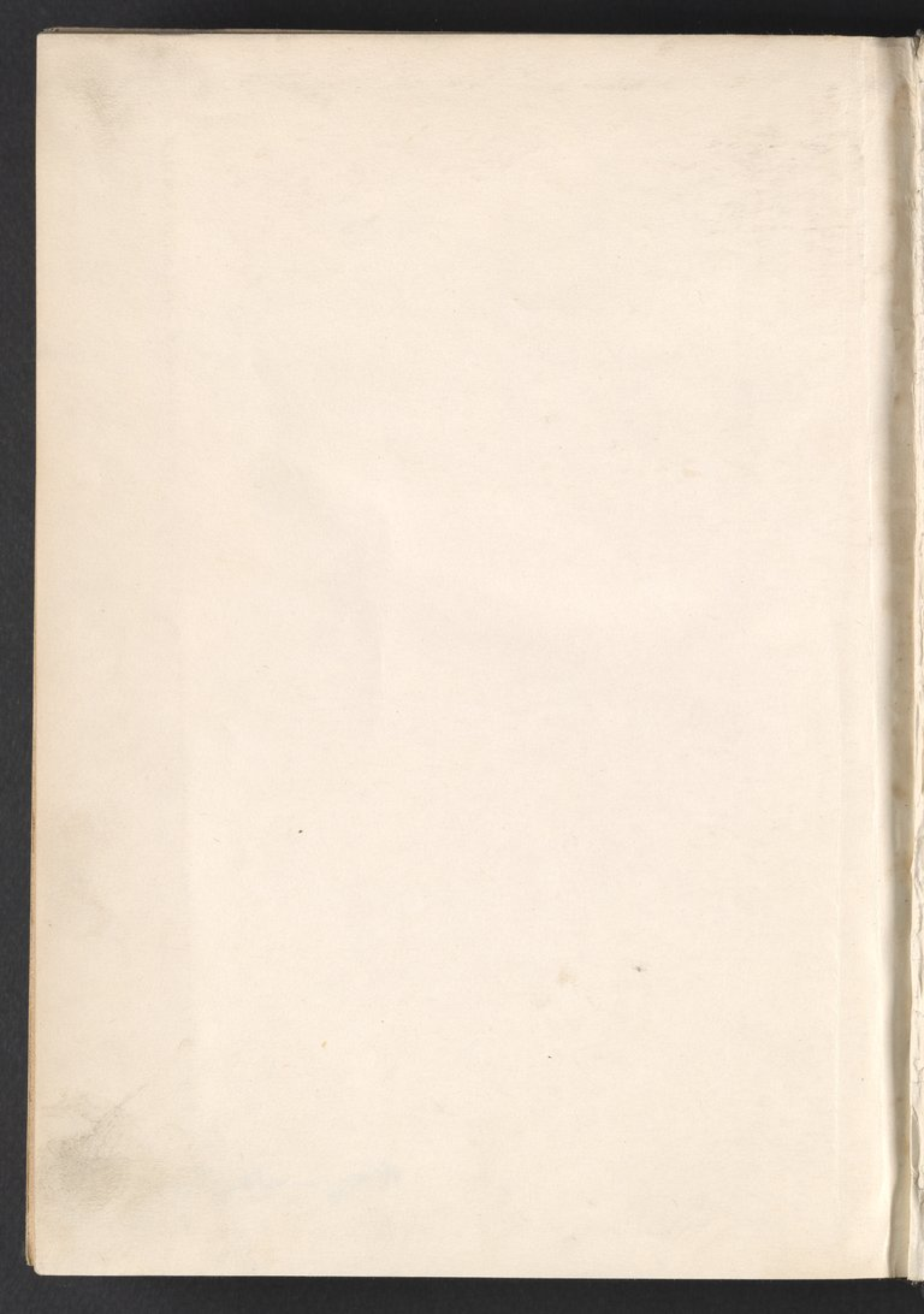
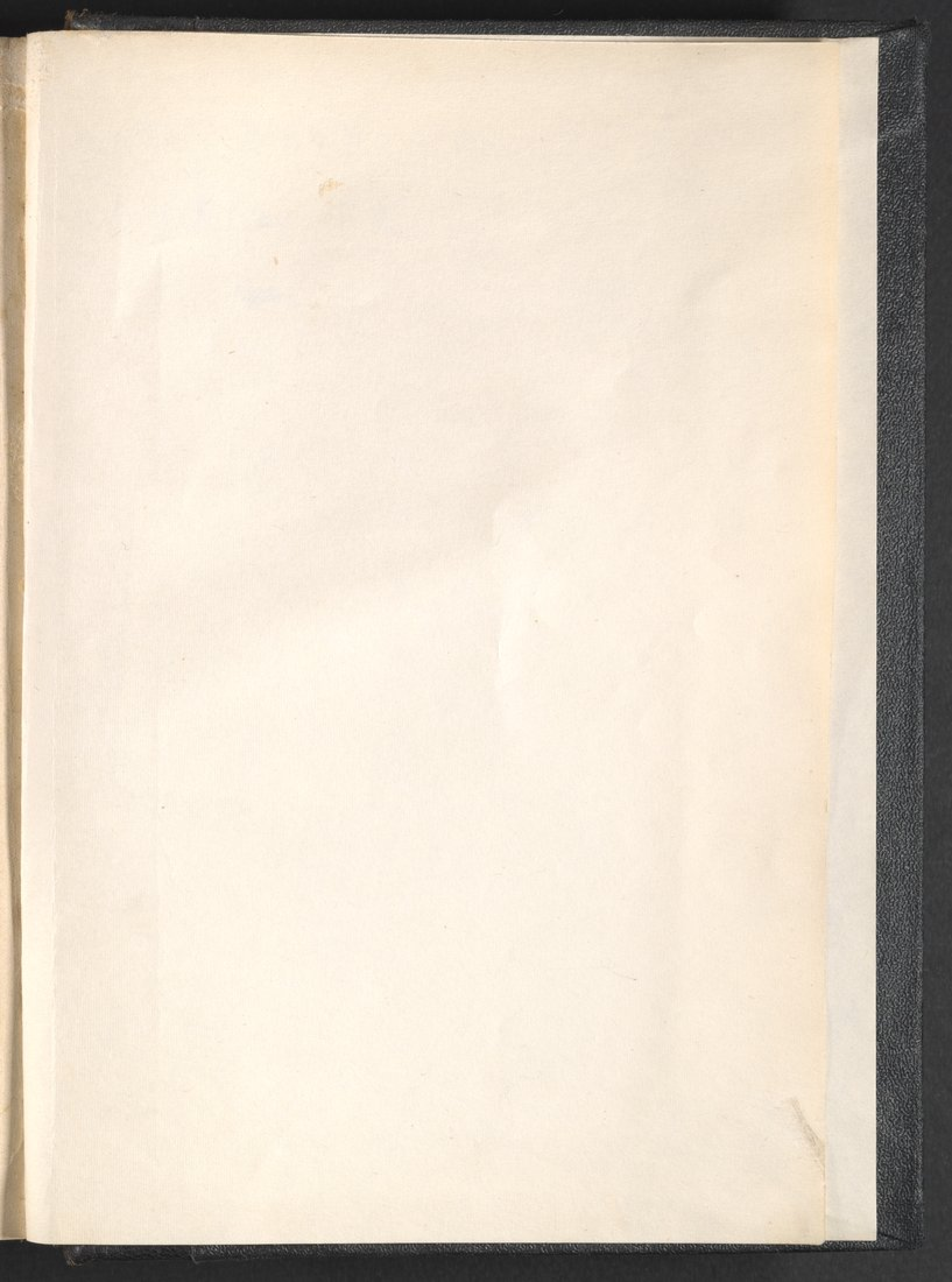
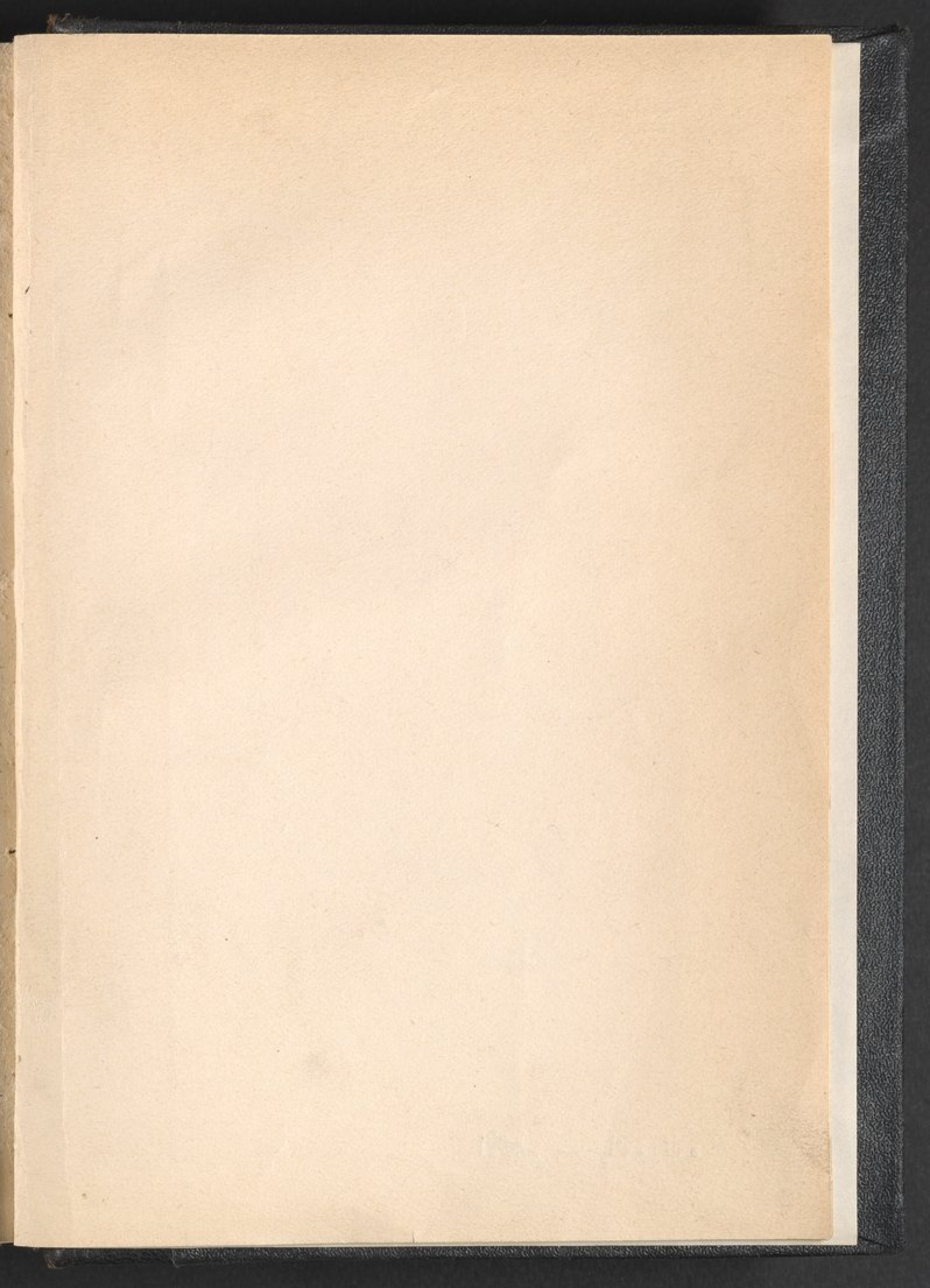

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01070 3761





الأصمعي — حياته وآثاره



الدكتور عبد الجبار الجومرد



حياته وآثاره

١٢٣ هـ - ٢١٧ هـ

« لا حُسْنَ لدنيا لا يكون فيها مثلك ، يا أصمعي »

هارون الرشيد

« الأصمعي أحد الأئمة الثلاثة الذين أخذ الناس عنهم كل ما في ايديهم من اللغة والأدب والشعر »

ابو الطيب اللغوي

« ما رأيت بذلك المعسكر اصدق من الاصمعي »

الامام الشافعي

« الأصمعي ثقة »

الامام احمد بن حنبل

« الأصمعي اعذب من تحدث وحكى »

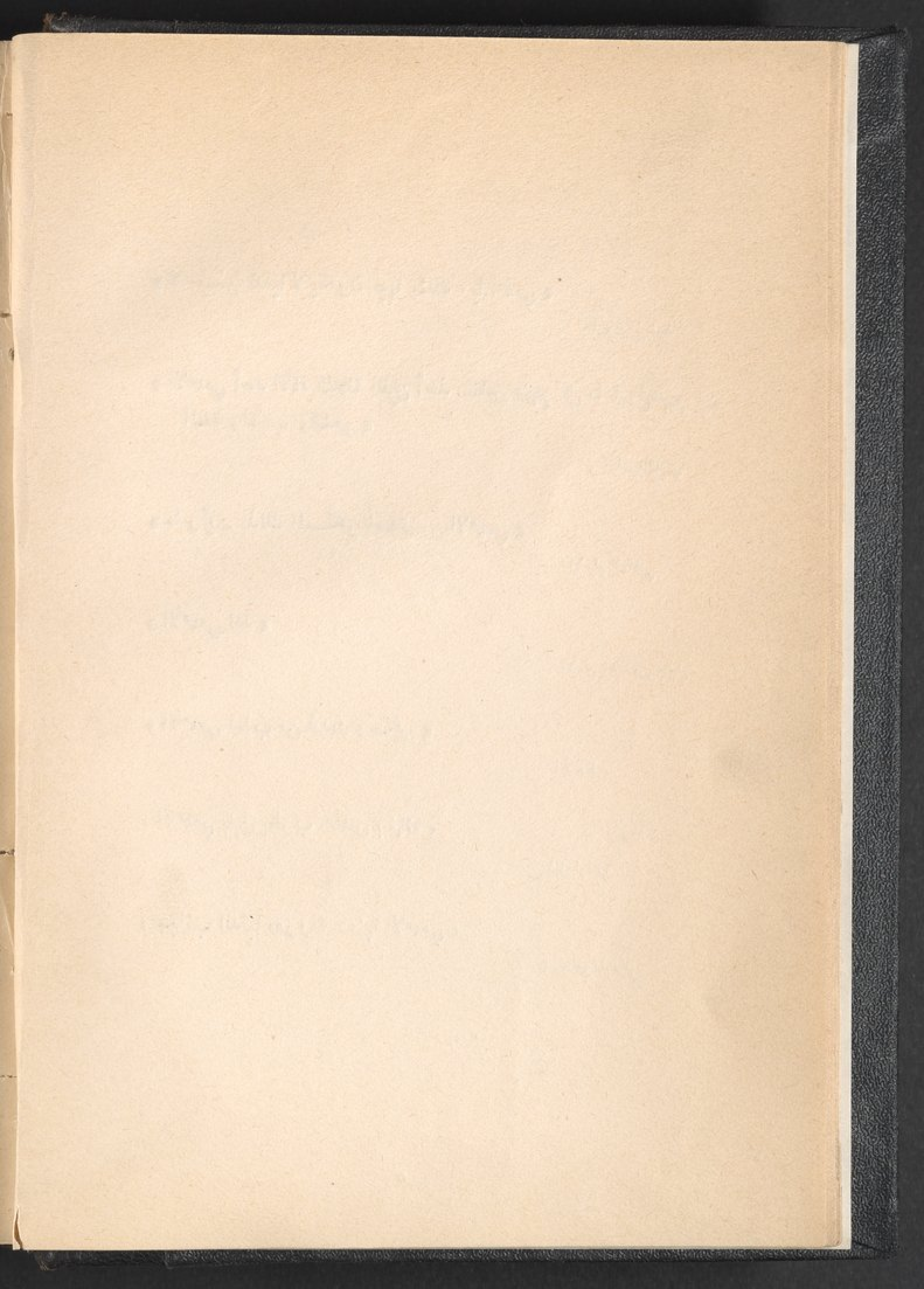
الجاحظ

« الاصمعي بلبل يطوب الناس بنغماته »

ابو نواس

« عجائب الدنيا معروفة ، منها الاصمعي »

اسحاق الموصلي



كلمة

لم يكن الأصمعي نكرة ولا مجهولا لدى قراء العربية ، ولكـــن القليـــل من الناس من يعرف الحقيقة في سيرة هذا النابغ الذي لمعت شخصيته العلمية في المرحلة الأولى للحضارة الاسلامية ، وشغــل اللغويين وأرباب الأدب بآثاره الغزيرة القيمة ، وما زال يشغلهم حتى اليوم . ذلك لأن ما نشر عنه في ثنايا كتب التاريخ وسير الأعلام لم يتجاوز صفحات معدودة تناقلها المؤلفون بعضهم عن بعض مع قليل من التغيير والتحوير ؛ كما تبعثر القسم الأعظم من اخباره في الطرف والنوادر التي رواهــا عنه معارفه ومعاصروه ؛ وضاع الباقي من تاريخ حياته مع ما ضاع من تراثنا القديم .

وما كان الاصمعي ـ في حياته ـ محايداً ولا منطوياً على نفسه وعلمه وأدبه ، ولكنه كان عضواً فعّــالا في مجتمعه ، غزير الحيوية ، متدفق النشاط ، واسع مجـال الحركة والعمل . ناوأ الشعوبيين ، وقاد معسكر القومية العربية ضدهم في صراع عنصري فكري عنيف . ودخل بلاط هارون الرشيد فتألق نجمه فيــه ، وقاوم مع من قــاوم الجبهة الفارسية التي تزعمها البرامكة ، وكان له أثر في مصرعهم . وناضـل عن عقيدته ومذهبه تجاه النزعات والاهواء المذهبية الناشبــة ـ يومئذ ـ في مدينــة البصرة . فكثر خصومه وحاسدوه وشانئوه ، وقالوا عنه ما ليس فيه ، وحملوا عليه ما لم يكن له ، ونسبوا اليه ـ بعد موته ـ ما هو براء منه ؛ فشوهوا الحقيقة في شخصه ، وبثوا التناقض والفوضى في جوانب سيرته .

وقد اردنا ، في مؤلفنا هذا ، ان نقدمه الى القراء في اصل صورته ، من غير دخيل ولا تشويه للواقع ، فوجدنا الطريق وعراً شاقاً يحتاج الى البحث الطويل والتمحيص الدقيق .. وزاد في المشقة عدم وجود من عالج هذا البحث قبلنا معالجة علميـة شافية ، اللهم الا بعض محاولات عابرة .

ومهما يكن الأمر ، فنحن لا ندعي الكمال في عملنا هذا ، ولا نستبعد ان يكون فيه نقص ، آملين ان يأتي بعدنا من يتمه ، خدمة لهذا الرجل الذي كان ولا يزال فضله كبيراً على العربية وادبها .

الدكتور عبد الجبار الجومرد

المقدّمة

نظرة في تاريخ البصره

١٤ هـ - ٢١٧ هـ

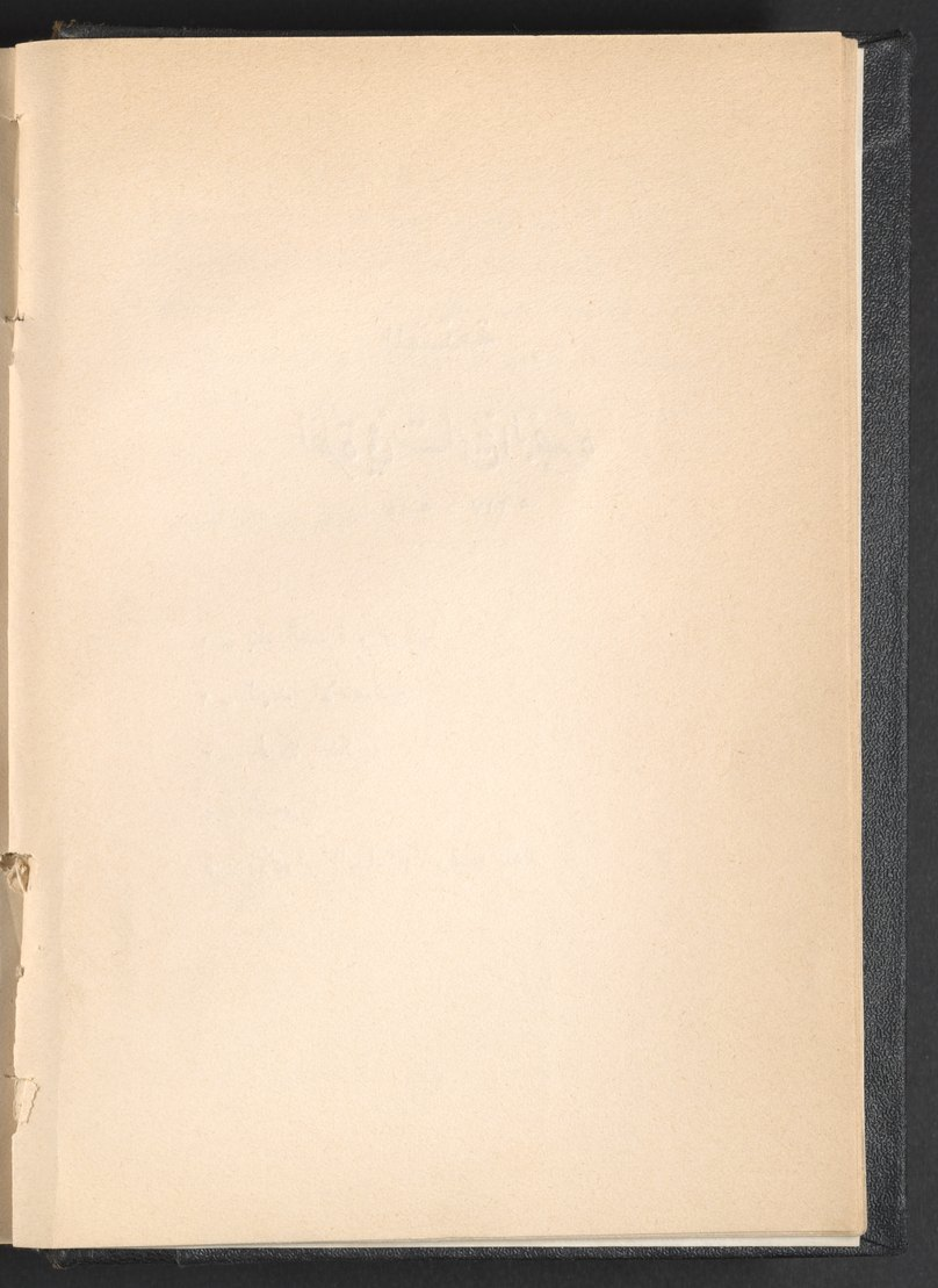
١ ـ بناء البصرة وعمرانها

٢ ـ النهضة الاقتصادية

٣ ـ الحركة الفكرية

٤ ـ الشعوبية

٥ ـ الأدوار السياسية ، وقبيلة باهلة



بناء البصرة وعمرانها

على أثر الانتصارات التي احرزتها جيوش المسلمين ضد قوى الفرس في العراق ، اوعز الخليفة عمر بن الخطاب ، عام (١٤ هـ = ٦٣٦ م) ، الى احد قواده هناك « عتبة بن غزوان » ان ينحدر الى اقصى جنوب وادي الرافدين ، ويختار بقعة ارض تتاخم بلاد فارس ، فيبني عليها معسكراً ثابتاً يكون نقطة انطلاق للجهاد والفتوح وامداد الجيوش العربية الاسلامية الزاحفة نحو الشرق ؛ مشترطاً عليه ان تكون الارض المختارة هذه صالحة للأقامة والعمران ، وان لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة نهر او بحر .

فانحدر عتبة بقطعة صغيرة من الجيش ونفر من الأعراب لا يزيد عددهم على بضع مئات الى غاية جنوب العراق ، فاحتل ارضاً تكثر فيها المياه والمراعي وتجاورها آجام واسعة ينبت فيها البردي والقصب المساعد للاحتطاب والبناء ، وعليها ابنية قليلة يسكنها حرس للحدود من جنود فارس ، فجلاهم عنها ، وخططها الى سبعة دساكر ، وانشأ في وسطها معسكراً ، وشيد بجانبه مسجداً وداراً للأمارة . ثم اوعز الى من معه من الناس ان يبنوا بيوتهم على خطة رسمها لهم ، فبنوها بالطين والقصباء على شكل قرية واسعة ؛ وقسم اراضيها الى مقاطعات وزعها على السكان ، وشجعهم على زرعها واستثمارها . وسموها « البصرة » لوجود حجارة صلبة بيضاء في تربتها [١] وقيل انها سميت كذلك لأسباب اخرى اختلف فيها المؤرخون [٢] .

وعلى أثر تأسيسها ، أمها عدد كبير من القبائل العربية المجاورة ، فنزلوا

---

(١) معجم البلدان : كلمة البصرة .

(٢) وقيل : سميت البصرة لأن ارضها سبخة لينة ..

حولها في منازل متفرقة سمي كل منها باسم قبيلته ؛ ونزح اليها جماعات من سكان القرى والأرياف القريبة ؛ ثم هاجر اليهـا أُسر وافراد من عناصر مختلفة وردت من فارس والهند والحبشة ، وكل ما يمكن ان يحمله البحر الى المرافىء من سكان السواحل القاصية والدانية .. وانصهر هـذا الخليط من النازحين في الأكثرية العربية ، فتكلم لغتها واعتنق دينها الاسلام .

وهكذا لم تمض حقبة طويلة من الزمن عليها حتى اتسع العمران فيهـا وامتدت رقعتها الى عدة فراسخ مربعة ، وتضخم عدد قاطنيها خلال عصر واحد الى ما يقرب من مائتي الف نسمة ، وتبلور في حوضهـا طبقات اجتماعية تميزت عن بعضها بنفوذها وثرائها ومنعتها . وفي مقدمتها « الطبقة الخاصة » المتكونة من الأسر العريقـة المنحدرة من الأمراء والقواد والولاة الذين حكموا المدينة ولعبوا ادواراً مهمة في تاريخ الدولة الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وايام بني امية ؛ وجلهم من العرب من مختلف القبائل (١) .. وكانت هذه الطبقة ذات ثراء واسع بفضل ما استولت عليـه من مقاطعات زراعية كبيرة خلال انشاء مدينة البصرة او بعد ذلك بقليـل ؛ وذات قوة وشكيمة لانتماء معظم اسرها الى تلك القبائل التي استوطنت اطراف المدينة واحتفظت ببأسها وشدتها وعنعناتها القبلية .

وتليها « الطبقات الوسطى » على اختلاف درجاتها واصنافها : وفيهـا التجار والزراع والصناع وارباب المهن الحرة والعمـال والكاسبون بكدهم

---

(١) ذكر المؤرخون عدداً كبيراً من هذه الأسر التي عاشت الى عهد الاصمعي وعرفت بمكانتهـا الاجتماعية وسعة ثرائها كأسرة « المهلب » و « بنو نافع » و « ابناء معقل » و « آل قتيبة » و « ابناء عامر » و « البلاليون » واسرة « ابي بكرة » ، نسبة الى كل من : المهلب بن ابي صفرة ، ونافـع بن الحارث ، ومعقل بن يسار ، وقتيبة بن مسلم الباهلي ، وعبد الله بن عامر بن كريز ، وبلال بن ابي بردة ، ونفيع بن الحارث بن كلدة المعروف بأبي بكرة وهو اخو زياد بن ابيه من امه .. ولكل من هؤلاء وغيرهم تاريخ معروف .

اليومي ، وتتكون من خليط من تلك العناصر المختلطة : عربية ونبطية ونوبية وخراسانية وهندية وغيرها .. على ان طبقة اخرى كانت تساكنها وتمتاز من غيرها بفقرها وبؤسها ، وجلها من المتسولين الأعراب الذين امحلت مواسمهم فجاؤوا ينتجعون العيش عن طريق الاستجداء والسؤال ، ومن فقراء القرى والأرياف المجاورة الذين يسمعون بخيرات البصرة ونعيمها فيقصدونها طلباً للعمل في سبيل الحياة .

والظاهر ان البون في الثراء بين مختلف هذه الطبقات والأفراد كان شاسعاً ، كما كان الفرق بينها من ناحية المعيشة والسكنى والمظهر بيناً واضحاً ؛ لذلك تبدت المدينة للرائي متناقضة في كل شيء حتى في جمال احيائها وطراز انشاء بيوتها ومواد عمرانها . فمن قصور فخمة جميلة بنيت على طراز فارسي انيق تلفها حدائق مزهرة مثمرة غناء ، الى بيوت وجيهة المظهر والزخرف اقيمت بالآجر والجص ، الى اكواخ سورت بالطين والقصباء واغصان الشجر ، وخيام نسجت من الشعر واحيطت بالحطب والشوك وسعف النخيل .

وكان المسجد الجامع ودار الأمارة قد بنيا ـ في اول الامر ـ بالقصباء والطين ؛ ثم جدد بناءهما بالآجر « ابو موسى الاشعري » في عهد عمر ابن الخطاب . فلما تولى « زياد بن ابيه » شؤون البصرة ايام « معاوية ابن ابي سفيان » هدمهما واقامهما ثانية بالجص ؛ وعني بالمسجد كل العناية ، فسقفه بخشب الساج المطرز ، وركزه على اعمدة دقيقة الصنع جميلة الزخرف ، ونقل منبره من وسط المصلى الى صدره ، وفرش ارضه بالحصى الناعم بعد ان كانت تربة تتعفر بها ثياب المصلين ؛ وفتح بينه و بين دار الأمارة باباً يدخله الوالي فيصعد الى المنبر دون ان يتخطى رقاب الناس .

وبقي المسجد الجامع موضع عناية الخلفاء والولاة المتعاقبين ؛ وصار يأخذ بالتوسع شيئاً فشيئاً بادخال بعض البيوت المجاورة ، حتى كان عهد هارون الرشيد عام (١٧٠ هـ) فأمر بضم دار الامارة كلها اليه ، وتجديد ما تقادم من بنيانه ، وتزيينه بآيات قرآنية كتبت على سقوفه وجدرانه بخط جميل والوان لطيفة زاهية .

وعلى اثر اتساع العمران في مدينة البصرة ، وتضخم عدد سكانها ، وازدهار حركتها الاقتصادية ، تناثر حولها كثير من الضواحي الجميلة بين الحقول الخضراء وبساتين النخيل والفواكه ، على ضفاف شط العرب الكبير ، وحول الجداول والقنوات المتشعبة منه ؛ وبنيت فيها القصور والبيوت ، واقيمت لها اسواق تجارية فرعية ، يقصدها البصريون للنزهة او المتاجرة والصيد والقنص . . وتفرع من جوانب المدينة الى هذه الضواحي المتناثرة طرق او سكك يسمى كل منها باسم الضاحية التي تتصل به ، كسكة « المربد » و « سفوان » و « الأبلّة » وغيرها .

النهضة الاقتصادية :

ورغم سوء مناخ البصرة في بعض المواسم ، وارضها السبخة ، فقد ازدهرت فيها الزراعة ازدهاراً عظيماً ، وانتعشت ـ بفضل موقعها على جانب الشط الذي ترتفع مياهه وتنخفض بمساعدة المد والجزر اللذين يحصلان يومياً في مياه الخليج الفارسي . فاتسعت بساتينها واورفت ، وتشققت فيها الترع والأنهار الصغيرة ، وزرعت فيها انواع الفواكه والثمار التي نقلت اليها من بلاد شبيهة لها بالمناخ والتربة ؛ فكثرت حاصلاتها من كل لون ؛ واشتهرت بجودة التمر وكثرة أصنافه التي عني بها البصريون عناية فائقة .

وللمؤرخين آراء مختلفة في اول من غرس النخل بالبصرة . فادعى البعض : بأنه كان موجوداً فيها قبل مجيء العرب اليها وتأسيسها على ايديهم ، مستدلين على ذلك بأن جيش عتبة بن غزوان الذي بناها كان يأكل التمر ويتم به غذاءه عند نزوله ارضها . وقال الآخرون : بأن النخل كان موجوداً في بقاع متفرقة من اراضي العراق الجنوبية قبل الفتح الاسلامي لها ؛ فلما بنيت البصرة ، وتوزعت المقاطعات فيها بين بُناتها ، نقلوا فسائل النخيل اليها من البقاع المجاورة وعنوا بغرسها .. وقيل إن اول من بدأ بغرسها هو ابو بكرة « نفيع بن الحارث بن كلدة » اخو زياد بن ابيه من امه . وهو الذي علم الناس اصول زرعها ، وكيفية العناية بها ، وكري الانهار حولها ؛ فكثر ريعها وحسنت انواعها ، وبلغت جودة تمرها حداً قال فيه هارون الرشيد : « نظرنا ، فاذا كل ذهب وفضة على وجه الارض لا يبلغ ثمن نخل البصرة (١) » .

وعرفت البصرة بثروتها الحيوانية ايضاً ، وفي مقدمتها الأسماك على انواعها ، من نهري يعيش في شط العرب الواسع الجنبات ، وبحري يأوي الى الخليج الفارسي من عرض المحيطات . وقد عنيت طبقة كبيرة من البصريين بصيده ، فجعلوا له مناطق خاصة يقصدها الصيادون في المواسم ؛ وفرضت الحكومة على صيده ضريبة معينة تتقاضاها على الحاصل ، وعينت له المراقبين والجباة (٢) .

وكانت الحيوانات البرية كثيرة فيها وفي اطرافها ؛ ومنها الأهلي الأليف الذي عني العرب بتربيته كالخيول والجمال والبغال والحمير البيض النادرة والأغنام ، ومنها الوحشي النافر كالظباء والأرانب والثعالب ؛ وحتى الذئاب

(١) معجم البلدان : كلمة البصرة .
(٢) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٥ .

والأسود المنتشرة في أودية معروفة غير بعيدة عن البصرة . وقل كذلك عن النعام والطيور على انواعها ، الداجنة منها والنافرة .. وقد وصف خالد بن صفوان خيرات هذه المدينة للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، فقال : « .. يغدو صيادونا ، فيجيء هذا بالشبوط والشيم ، ويجيء ذاك بالظبي والظليم ، ونحن اكثر الناس عاجاً وساجاً وخزاً وديباجاً ، وبرذوناً هملاجاً ، وخريدة مغناجاً .. بيوتنا الذهب ، ونهرنا العجب ، اوله الرطب ، واوسطه العنب ، وآخره القصب[1] » .

ولما كانت البصرة قد اصبحت مرفأً مهماً من مرافىء الدولة الاسلامية ، تمر بها قوافل التجارة من البر الى البحر وبالعكس ، كان طبيعياً ان تنشط فيها حركة التجارة ، فيعمر سوقها ، وتبتذل فيها الحاجات وترخص الأسعار . وزاد في نشاطها هذا انتقال عاصمة الخلافة من الشام في العهد الأموي الى العراق في ايام دولة بني العباس ، فكان للبصرة نصيب في جل ما يرد الى عاصمة الدولة الجديدة وغيرها من مدن ارض السواد ، من بضائع الهند وتحفها وعاجها وساجها ، ومن منسوجات الصين واقمشتها وحريرها ، ومن حاصلات جزر الهند الشرقية وتوابلها وعطورها ومواد زينتها وخيزرانها ؛ كما كان لها نصيب فيما يصدره العراق من حاصلاته الى البلاد الأخرى عن طريق البحر .

وقد عرف البصريون في ذلك الزمن بنشاطهم في الملاحة وركوب البحر ، فصنعوا السفن الشراعية الثقيلة ، وامتلكوا الكثير منها ، ومخروا في اعماق المحيطات ، ووصلوا سواحل البلاد النائية في سبيل التجارة ، ونقلوا بضائعها الى مدينتهم حيث كانت توزع منها الى داخل البلاد والأقطار

(١) معجم البلدان : البصرة .

الاسلامية المجاورة . لذلك امتلأت موانىء البصرة بالسفن التي قال فيها الشاعر « ابن ابي عيينة المهلبي » :

يا جنة فاقت الجنان فما يعدلها قيمة ولا ثمن
الفتها فاتخذتها وطناً ان فؤادي لمثلها وطن
من سفن كالنعام مقبلة ومن نعام كأنها سفن (١)

بجانب هذا التقدم الزراعي والاقتصادي لم تعدم البصرة من حركة صناعية موفقة لكثرة من نزح اليها فسكنها من الفرس والهنود والصينيين وغيرهم من القادمين من بلاد عريقة بالصناعة المتحضرة . فصنعوا انواع السلاح من المعادن المستوردة من خراسان وغيرها ؛ وتفننوا في صقل السيوف وترصيعها وتزيين الدروع وتغليفها ؛ وثقفوا الرماح والسهام التي صنعوها من الخيزران الهندي ؛ وصاغوا الذهب الوارد من الشرق وعملوا منه شتى الحلي وطرزوها بالجواهر والأحجار الكريمة التي كان يأتي بها التجار من سواحل المحيط ؛ ونظموا اللآلي الفاخرة المستخرجة من قعر الخليج الفارسي ؛ وطبعوا الرسوم والنقوش على كؤوس الزجاج بالوان شعرية زاهية كما وصفها الأديب البصري، ابو نواس بقوله :

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهىً تدّريها بالقسي الفوارس

وغزلوا الصوف ونسجوا القطن والحرير ، ومهروا بعصر الفواكه وطرق حفظها ، وتقطير الخمور من الأعناب والتمر ؛ واستعملوا الطواحين المائية والهوائية ؛ وعملوا القفف والحصران وغيرها من القصب والبردي وسعف

---

(١) معجم البلدان : البصرة .

النخل الموجود عندهم بغزارة .. ولم تختلف الصناعة في البصرة عنها في الشام و بغداد نشاطاً وجودة واتقاناً .

بيد ان هذه الخيرات الطبيعية والأرباح التجارية والصناعية الوافرة لم تكن موزعة بانتظام على سائر طبقات السكان ؛ ولكنها كانت تفيض على البعض اليسير منها ، وتتضاءل في سواد الشعب حيث يكون الوسط ثم الفقر والتسول . ومع ذلك ، فقد كانت البصرة خيراً من غيرها من المدن الاخرى اسهولة العيش ورخص الحاجات فيها . وقد وصفها احد الزائرين لها في تلك الايام فقال : « هي خير بلاد الله للجائع والغريب والمفلس : اما الجائع فيأكل خبز الارزة والصحناءة فلا ينفق في الشهر اكثر من درهمين ؛ واما الغريب فيمكن ان يتزوج بجزء من الدرهم ؛ واما المحتاج فلا عليه غائلة ما بقيت له معدة تأكل[1] .. »

فكان من نتيجة سوء توزيع الثروة هذا ان وجد في المجتمع البصري طبقات اسرفت في التأنق والترف ، فبنت في قصورها اجنحة متعددة خصص بعضها حرماً للأسرة ، وجعل البعض الآخر للضيوف والمجالس ؛ واعتنوا بتأثيث هذه الدور وتنسيق حدائقها ، وركبوا في المواكب الضخمة من الجياد والبراذين البيض والسلاح المحلى بالذهب والفضة وانواع الزينة والألبسة الفاخرة .

وكان الشعار السائد في لباس الرجال ـ يومئذ ـ العمامة العربية المكوّرة ، او القلنسوة الفارسية الضخمة ، والجبب الملونة ، والثياب المصنوعة في مصر او اليمن المنسوجة من الكتان والقطن الفاخر او الصوف الناعم والمطرزة احياناً بخيوط دقيقة من الفضة او الذهب ، والنعال العربية او « السيرية »

---

(١) معجم البلدان : البصرة .

الفارسية ، والجوارب القطنية او الحريرية او الصوفية المغلفة من اطرافها بالجلد الرقيق .. واما النساء من هذه الأسر الموسرة فكن يقلدن الدمشقيات ثم البغداديات بزينتهن ، من غلائل حريرية رقيقة ، وثياب من الدمقس ، وعصابات في الرأس مزركشة باللؤلؤ والجوهر ، واحذية خفيفة تنسج احياناً بخيوط معدنية لامعة .

وكان في البصرة ، كما في غيرها من امهات المدن ، اسواق عامرة لبيع الرقيق الأبيض والأسود والأصفر ؛ وفيهن الجواري الحسان اللاتي يؤتى بهن من البلاد المفتوحة حرباً ، او من المولدات في بعض الأقطار الاسلامية للتجارة والربح . وتكاد لا تخلو اسرة غنية في البصرة من جارية او عدة جوارٍ على اختلاف اجناسهن من تركية او رومية بيضاء او صينية صفراء او حبشية سوداء ، يشترين لأجل الخدمة او التسري كعادة ذلك العصر . واسواق اخرى لبيع العبيد من الرجال المجلوبين من بلاد السودان والنوبة والحبشة لأجل العمل والخدمة في الحقول والمزارع . وقد كثر عدد هؤلاء في البصرة في العصرين الأول والثاني العباسيين الى حد كبير فكان لهم فيما بعد شأن تاريخي خطير (١) .

الحركة الفكرية

بجانب ذلك التقدم العمراني والاجتماعي والانتعاش الاقتصادي ، نشطت في البصرة حركة فكرية ، اتسعت على مدى الأيام وتضخمت فكانت احدى القواعد الرئيسية لصرح الحضارة العلمية والأدبية الاسلامية التي نعيش اليوم على تراثها الخالد .. ولم تنافس البصرة في هذا المجال ـ يومئذ ـ

(١) انظر ثورة الزنج في تاريخ الطبري وغيره في القرن الثالث الهجري .

غير مدينة الكوفة التي شيدت بعدها بستة اشهر على وجه التقريب .

يقول المؤرخون : عندما اتسعت رقعة الدولة الاسلاميـة ، وانضوى تحت لوائها ممالك شاسعة مأهولة بشعوب غير عربية اعتنقت الاسلام ، بدأ الناس يلحنون في قراءتهم القرآن ، فخيف عليهم من الانحراف عن اصول الدين بسبب ذلك اللحن الذي قد يغير في معاني كتاب الله ؛ فظهر جماعة من المفكرين ، وضعوا قواعد رئيسية ملزمة في القراءة، سميت « علم النحو ». ثم ظل هذا العلم يتسع ويتركز وينتظم حتى اكتمل في نهاية القرن الثاني للهجرة .

ثم احتاج المسلمون بعد ذلك الى فهم بعض المعاني القرآنية الصعبـة اللغة والادراك على غير العرب ، وحتى على العرب الذين ولدوا وعاشوا بين الشعوب الغريبة ، فنشأ « علم التفسير » . ولما كان التفسير يحتاج الى معرفة اللغة الصحيحة ، رجعوا الى اقوال العرب الأقدمين ، وقارنوا معانيها بمعانيه ، والفاظها بالفاظه ، وكلماتها بكلماته ، فظهر من ذلك « علم فقه اللغة » الذي اصبح فيما بعد اساساً لتأليف المعاجم اللغوية .

ولما كانت اقوال العرب الأقدمين من خطب واشعار وامثال وحـكم وغيرها ، غير مدونة في ذلك العهد ، ولا مجموعة عند احد من الناس ، ظهرت جماعات من العلماء اشتغلوا بجمعها وتسجيلها وتصحيحها بعد ان كانت مبعثرة في صدور الرواة والحفاظ من الأعراب الفصحاء المتنقلين مع قبائلهم في بوادي قلب الجزيرة العربية واطرافها . فاختص بعضهم برواية اللغـة ، واختص الآخرون برواية الأدب، وان كان من الصعب التفريق بين الاختصاصين لارتباطها المتين ببعضهما .

وكان هنالك نوع آخر من الرواية في قراءة القرآن حسب لهجات

القبائل التي تختلف في تلفظ بعض الكلمات اختلافاً بسيطاً سطحياً لا يتعلق بجوهر معاني الآيات ؛ فعني عدد من العلماء بتدوين هذه اللهجات في قراءة الكتاب المنزل ، فنشأ من ذلك علم « القراآت السبع » نسبة الى اولئك العلماء السبعة الذين جمعوا هذا العلم عن الصحابة والتابعين (١) .

واستعانوا ايضاً ـ لأجل تفسير معاني القرآن وأحكامه ـ بالرجوع الى أحاديث النبي عليه السلام . وكانت الأحاديث بعد وفاة الرسول قد تبعثرت في صدور الحفاظ من صحابته ، فعملوا على جمعها وتدوينها ودراستها ، فكان « علم الحديث » الذي تشعب فيما بعد الى فروع تتعلق بشرحه وتأويله وغريبه وصحيحه ومنحوله ودراسة احوال رواته ، الى آخر ذلك .

ثم فكروا في إيجاد تشريع يستعينون به للحكم في قضايا الناس وما يتعلق بأحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية ، وكان اعتمادهم في ذلك قبل كل شيء على القرآن والحديث ، فاستنبطوا منهما الشريعة وأحكامها وتوسعوا في ذلك حتى نشأ علم « الفقه الاسلامي » بفروعه المعروفة كعلم النظر والمناظرة ، والجدل ، والفرائض ، والشروط ، والقضاء والفتاوى ، ونحوها .

وكان من اثر انتشار العلوم القرآنية هذه وتوسع المسلمين في مواضيعها ، أن كثر النقاش والجدل حول المعتقدات الدينية واهدافها وفلسفتها ، فظهر

---

(١) القراء السبعة الاوائل هم :

عبدالله بن عامر اليحصبي	— المتوفى عام	١١٨ هـ .
عبدالله بن كثير	— »	١٢٠ هـ .
عاصم بن ابي النجود	— »	١٢٨ هـ .
يزيد بن القعقاع	— »	١٣٢ هـ .
ابو عمرو بن العلاء	— »	١٥٤ هـ .
حمزة بن حبيب	— »	١٥٦ هـ .
نافع بن عبد الرحمن	— »	١٦٩ هـ .

علم الكلام وسمي اصحابه « المتكلمون » ، ومنهم « المعتزلة » . ثم تفرع الاعتزال الى طوائف مختلفة في القرن الثاني للهجرة .

ولما كان تفسير القرآن والحديث واستخراج الأحكام منهما يستلزم معرفة الأسباب التي نزلت من اجلها الآيات وقيلت الأحاديث النبوية ، عمدوا الى جمع السيرة المحمدية وتدوينها بالتفصيل . ثم اضطروا لأجل التحقيق في مسائل الحديث الى البحث في اسانيدها والتفريق بين ضعيفها ومسندها ، فجرهم ذلك الى النظر في تراجم رواة الأحاديث ومعرفة احوالهم وسيرهم وتقسيمهم الى طبقات . فكان هذا من أهم البواعث في انشاء « علم الأنساب » ، وعلم السير والطبقات . ثم جمعوا اخبار العرب في الجاهلية والاسلام ودونوا حوادثهم وأيامهم وغزواتهم وفتوحاتهم فظهر « علم التاريخ » .

وألجأتهم الحاجة بعد ذلك الى دراسة احوال البلاد وأراضيها وطبيعتها ، ومعرفة كيفية انتقالها الى أيدي المسلمين ـ حرباً كان أم صلحاً ـ لكي يطبقوا على اهلها احكام الجباية والخراج وغيرهما ، فساقهم ذلك الى التنقل في انحاء المملكة الاسلامية ومعرفة مواقعها وحدودها وسهولها وجبالها ومياهها ، فتكوّن عندهم « علم الجغرافيا » ، ولكنه بدأ في اول الأمر بشكل بدائي بسيط ثم تطور بعد القرن الرابع والخامس الى علم أتم وأدق ، وظهر عدد من الرحالة الذين جابوا هذه البلاد ودرسوا احوالها وكتبوا عنها ، ورسموا خرائطها بقدر ما استطاعوا .. ثم نشأ غير ما ذكرنا علوم اخرى كثيرة يضيق هذا البحث المقتضب عن حصرها وعدها .

كانت مدينة البصرة ـ كما قلنا ـ في مقدمة البلاد الاسلامية التي نشأت فيها هذه النهضة العلمية . وقد اختلف الباحثون في اسباب ذلك وتضاربت آراؤهم . والأصح منها هو ان جماعة من الصحابة الحافظين

للقرآن والأحاديث نزلوا فيها وسكنوها في اوائل تأسيسها ، وتبعهم عدد آخر من علماء التابعين من العرب والموالي ، كما سكنها معهم جمهور كبير من المفكرين وطلاب العلم من شعوب غير عربية ذوي حضارة عريقة بالعلم والأدب والفن ، فانبعث من ذلك جو ديني علمي ، تبرعمت فيه تلك النهضة ثم تفتقت على مر الأيام ، وازدهرت بفضل وجود المسجد الجامع الذي اصبح مركزاً للدرس والتعليم ؛ وبفضل مجاورة « سوق المربد » الذي استحال بعد قريب الى مركز ادبي سياسي واجتماعي ؛ وقرب الجزيرة العربية موطن اللغة الفصحى ومستودع الانتاج الفكري العربي القديم والجديد :

بدأ الدرس والتعليم في المسجد المذكور على شكل بدائي بسيط ، ثم اخذ بالتطور والتوسع حين أخذ شيوخه وأساتذته في التوغل والبحث والتدقيق شيئاً فشيئاً حتى اصبح شبيهاً بكلية علمية راقية ، تعقد فيه الحلقات من الطلاب على شكل دوائر ، يحيط كل منها باستاذ يتربع امامهم على منصة تتكئ باحدى اسطوانات المسجد ، ويلقي عليهم محاضراته مما جمع في ألواحه او حفظ في ذاكرته من العلوم النقلية او العقلية على اختلافها .. وقد لا يكون الدرس في فرع علمي واحد ، وربما تشعب في نفس الوقت الى فروع مختلفة من تفسير للقرآن ، ورواية لحديث ، وقاعدة نحوية ، وفقه لغوي ، مع شيء من الأدب والأخبار والأنساب وغير ذلك .

كانت ابواب المسجد الجامع مفتوحة ليلاً نهاراً لكل راغب في الفائدة العلمية ما دامت هنالك حلقة معقودة لأستاذ من الأساتذة .. وللطالب حريته الكاملة بدون قيد او شرط في اختيار الحلقة التي يريد ملازمتها والأستاذ الذي يرغب الجلوس اليه والافادة منه ؛ كما له حق التنقل بين الحلقات متى

شاء . وليس عليه امتحان مفروض يؤديه ؛ وليست هنالك شهادات تعطى او درجات تقدر .

وقد يلازم الطالب حلقة استاذ من هؤلاء الأساتذة الكثر أعواماً طويلة وبدون انقطاع ، فتنشأ بين العالم والمتعلم صلة ودية وصداقة وحرمة تعود على الطالب بالفائدة من تعليم وتوجيه وإرشاد .. وقد يتنقل طالب العلم بين الحلقات في اوقات مختلفة ويتعرف الى اساتذة عديدين فيأخذ عن كل منهم العلم الذي يمتاز به ويختص فيه .. وحتى الأساتذة انفسهم ، يحضر بعضهم حلقات زملائهم ليسمعوا منهم مسألة من المسائل او يأخذوا قراءة من القراءات او فرعاً من فروع العلم التي لم يختصوا بها . ولا يجدون بأساً في ان يجلسوا مع طلابهم امام زميل لهم ، ما دام ذلك في سبيل الحصول على الفائدة . وربما جرت المناقشات والمناظرات حول مسألة من المسائل الدقيقة بين هؤلاء الأساتذة ، فيأتي كل منهم بحججه وبيناته ومستنداته وأمثلته حتى تنجلي حقيقة تلك المسألة ويتضح الصواب وتعم الفائدة على الجميع .

ولم يكن المسجد هذا مقصوراً على الأساتذة والطلاب ، بل كان يحضر حلقاته خليط من سائر طبقات المجتمع البصري من عشاق العلم والأدب والشعر ، وفيهم التاجر والصانع والأمير والفقير ، وحتى الأعراب الفصحاء أو الأدباء ممن يفدون الى البصرة في شؤونهم الخاصة ، فيدخلون المسجد ويجلسون في حلقاته ، ويناقشون شيوخها عارضين ما عندهم من أدب يحفظونه او شعر يروونه او نادرة سمعوا بها ، او شيء من انتاجهم الشخصي في الشعر او الرجز او الكلام الفصيح المأثور .. وهكذا يصبح المسجد اشبه بسوق ادبي رائج ، بضاعته السؤال والجواب والانشاء والأخذ والرد والمناقشة

والنقد والتحليل .

وهنالك جمهرة من الظرفاء يعرفون بـ « المسجديين » ، يتخذون المسجد ندوة لهم ، فيطيلون مكوثهم فيه ، وغشيانهم له . ولم يكونوا ـ في الواقع ـ من صنف واحد ، ولكنهم خليط من الناس ، فيهم الراوية والأديب والشاعر والعالم ومصطنع الحكمة . فتراهم يستطرفون من هذه الثقافات التي يزخر بها جو المسجد ، ويحضرون حلقات الأساتذة المعروفين بالأدب والظرف وخفة الروح ، ليستمتعوا بما يتع في مجالسهم من نادرة طريفة او شعر رقيق او رواية فكهة ، او ملحة عذبة او غلطة تنتثر حولها نكات لاذعة . وبعض هؤلاء المسجديين لا يغرق في علم من العلوم ، ولكنهم يصيبون من هذا وذاك ، ثم يجلس بعضهم الى بعض ، يتحدثون في شتى الأحاديث ويتجاذبون اطراف المسائل والنوادر . . على ان فيهم من كان يلازم الحلقات بجد لأجل التحصيل والاغراق في الفائدة والعلم ، فلا يكاد ينتهي من حلقة حتى يبدأ بالأخرى ، ثم يعود في ساعات فراغه للاجتماع بصحبه من هؤلاء المسجديين الظرفاء .

ولم يكن لأساتذة المسجد من شيوخ الحلقات هؤلاء رواتب يتقاضونها من جانب حكومي او شبه حكومي لقاء اضاعة اوقاتهم في اعطاء الدروس [1] ؛ وانما كانوا يتبرعون بذلك في سبيل الخير والنفع العام ، ويرون في عملهم هذا شيئاً من التقوى والتقرب الى الله . فكان بعضهم يشتغل بالمهن الحرة كالتجارة والصناعة لسد حاجته ، وكسب ما يعيش به ، ان لم يكن غنياً واسع الحال ؛ واما الفقير الضعيف منهم فيقبل فرضاً من امير موسر او ثري

---

(١) كان بعض هؤلاء العلماء يشتغل بالتجارة ، وبعضهم يقبل الفرض ، وآخرون يعيشون في كفاف .

يعطف على العلم والعلماء ..

ولم يدفع طلاب العلم ثمناً لتحصيلهم ودراستهم ، الا ما كان على سبيل الهدية والاكرام يقدمه الأغنياء منهم لأساتذتهم في المناسبات ؛ على ان القسم الأكبر من اولئك الاساتذة كانوا يزهدون حتى بهذا النوع من العطاء ، احتفاظاً بثوابهم الديني وبما يصيبونه من احترام واجلال في مجتمعهم . والقليل من اولئك الشيوخ من يتقبل الهدية والمنحة من طلابه(١) .

كانت هذه المجموعة الضخمة من العلماء والمتعلمين والمستمعين – في صحن المسجد – في حركة مستمرة وجهد متواصل في سبيل البحث والحصول على المزيد من الفوائد الفكرية التي يعثرون عليها عند بعضهم ، او التي يفتشون عنها في خارج المسجد قاصدين منازل الأعراب المجاورة لمدينة البصرة ، او في سوق المربد ، او عند القبائل القاطنة في فيافي الجزيرة العربية ، كما يبحث جناة « الكمأة » عنها في مواطنها المخصبة .

وكان اقرب المصادر الى هؤلاء الباحثين عن اللغة والأدب ، هي منازل الأعراب الذين استوطنوا في اطراف مدينة البصرة ، وعددهم كثير ، وفيهم الفصيح والعالم والراوية ؛ وكانوا لا يبخلون على علماء المسجد وطلابه باعطائهم ما لديهم من تلك الفوائد التي يحتفظون بها ويتوارثونها من اسلافهم ، لأجل تدوينها وحفظها والانتفاع بها .

وأما « سوق المربد » فتقع على بعد ثلاثة اميال من البصرة ، نحو الصحراء . وكان هذا السوق ، في أول امره ، ارضاً خلاءً ينزلها الأعراب القادمون من الصحراء ليتصلوا بمن يتعاملون معهم من تجار البصرة ، فيبيعونهم انتاج مواشيهم ، ويشترون منهم ما يحتاجون اليه في بواديهم النائية

---

(١) انظر كتاب البخلاء للجاحظ .

من لباس وطعام وأشياء اخرى .. وكانوا يسمونه « سوق الأبل » ثم اطلق عليه اسم « المربد » ، وبنيت فيه البيوت كما تبنى في الضواحي .

عرف هذا السوق من يوم تأسيس البصرة . فلم يطل عليه الزمن حتى عرف واشتهر ، وصار مركزاً اجتماعياً وسياسياً وأدبياً على طراز اسواق العرب في الجاهلية ؛ تلقى فيه الخطب ، وتنشد فيه القصائد والاراجيز ، وتتكتل فيه الجماهير المعنية بالسياسة عند المناسبات .. وقد لعب في العهد الأموي ادواراً خطيرة في سياسة الدولة ؛ إذ كان يرد اليه الشعراء الكبار امثال الفرزدق وجرير وراعي الابل والطرماح وغيرهم ، ويؤمه الخطباء المفوهون امثال سحبان وائل وخالد بن صفوان وغيرهما . فينتحي كل منهم زاوية خاصة به ، ويلتف حولهم الناس ليسمعوا قصائدهم الغراء ، او خطبهم الفياضة في تأييد سياسة الدولة او معارضتها ، وفي هجاء بعضهم قبائل البعض الآخر ، او في تأييد مذهب دون غيره ، الى آخر ما هنالك من النزعات المتضاربة في ذلك العهد : فمن شاعر اموي الهوى ، الى آخر علوي المذهب ، او خارجي النزعة ، او عباسي الدعوة ، او زبيري الفكرة ، او غير ذلك .. وكان هذا الانتاج الفكري يحفظه الرواة وينقلونه الى مجالس المدن والحواضر ومنتدياتها ، فيتحدث بها الرأي العام .

فلما انطوى عهد بني امية ، وانتشرت راية بني العباس ، وتركزت دولتهم في العراق ، خمدت جذوة السياسة في سوق المربد ، وضعف شأن الخطابة فيه ، وتقلص ظل الشعر السياسي عنه ، وتبدل جو ذلك الصراع الفكري بجو آخر يعنى بالبحوث الأدبية واللغوية ، فامتلأت جوانب السوق بالباحثين عن اللغة الفصيحة ، والشعر الغريب والقديم ، والأخبار والأنساب والنادرة والحكمة . وغمرت المربد موجات من طلاب العلم في مسجد البصرة

يبحثون عن الأعراب الفصحاء ورواة الأدب والأخبار منهم ، ليتعرفوا اليهم ويأخذوا ما عندهم ، او يدعونهم الى ضيافتهم في البصرة ، ويعقدون لهم المجالس ، ويثيرون معهم المناقشات والجدل لأجل الحصول على الفائدة . وهذا ما كان يشجع بعض فصحاء الأعراب ورواتهم على المجيء الى المربد لاعطاء ما عندهم لهؤلاء الراغبين في جمع اللغة والأدب والأخبار ، لقاء بعض الفوائد المادية التي هم في اشد الحاجة - احياناً - اليها . وهكذا بقي المربد زمناً طويلاً كمصدر غني لتغذية حركة المسجد في البصرة التي تحدثنا عنها .

ثم شعر بعض رجال العلم وقادة النهضة في مسجد البصرة بأن هنالك الكثير من فصحاء الأعراب ورواة الأدب القديم يسكنون البوادي البعيدة عن المربد ، ولم تدفعهم الحاجة الى قصده والمجيء اليه ، فشدوا رواحلهم اليهم ، وتوغلوا في فجاج الجزيرة العربية يقطعون بواديها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً للبحث عنهم والالتقاء بهم واخذ ما عندهم من ذلك التراث الثمين قبل ان يتبعثر ويتقلص فيضيع .

وقد ظهر في العصر الأول العباسي عدد من هؤلاء الرواد الذين بذلوا شطراً من حياتهم في الاسفار واجتياز الصحارى اليابسة لأجل الاتصال بالقبائل في منازلها النائية ، لهذه الغاية ، امثال خلف الاحمر وابي عمرو بن العلاء والأصمعي وغيرهم . والى هؤلاء وامثالهم يعود الفضل الأكبر في جمع اللغة العربية الصحيحة والشعر والأدب ، وتغذية تلك النهضة التي آتت ثمراتها فيما بعد .

واذا كان لكل حركة باعث ومشجع ، فان الذي كان يشجع اولئك العلماء والأدباء على بذل تلك الجهود الجبارة المضنية في جمع ذلك الانتاج

العربي الفكري من علم وأدب ، وتوسيع نطاقه ، وتنظيمه وإذكاء شعلته ، هو - في الحقيقة - ذلك التقدير الاجتماعي ، واقبال الناس على العلم والأدب ، وتشجيع رجال الدولة لكل حركة فكرية في ذلك العهد الا ما كان منحرفاً عن سنن الدين .

كان الخلفاء الأول في صدر الاسلام يفضلون قراء القرآن ومن يحفظه على من لا يحفظه ، في العطاء وتوزيع الأسهم على المجاهدين من غنائم الحروب والفتوحات . ولم يقصر خلفاء بني امية في ذلك ، بل فتحوا ابوابهم للفقهاء والعلماء ، وقربوا اليهم الكتاب ، وبذلوا مما في خزائنهم للشعراء ورواة الأدب . وزاد هذا في عهد بني العباس الأول ؛ فقد كان ابو جعفر المنصور نفسه احد فقهاء عصره وعلمائهم ؛ وكان ابنه المهدي اقل علماً منه ولكنه أندى يداً في اكرام العلماء واعطاء الشعراء ؛ وفاقه في ذلك كل من ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد ومن جاء بعدهم من الخلفاء . . وقد جاء في الأخبار ان بعض خلفاء المسلمين - خلال هذه الفترة - كان يرسل الى عامله ، في اي قطر بعيد ، ليوفد اليه احد رواة الأدب كي يروي له تتمة قصيدة سمع اولها او احد ابياتها . ومنهم من كان يسمع شيئاً من الشعر فيطرب له ، فيسأل عن قائله ، ويبعث له بعطاء من عنده وهو في بيته . ومنهم من كان يرسل المسائل الفقهية الصعبة الى مجتهد عالم في بلد قصي ليجيبه عليها ، ويكرمه من اجل ذلك .

كان هذا الاهتمام والتشجيع من اكثر الخلفاء يجعل ولاة الدولة وعمالها على الأقاليم ينحون هذا المنحى تقليداً لملوكهم ، فيجالسون العلماء ويقربون الأدباء الموجودين في مناطقهم ، ويحرصون على مصادقتهم والاسترشاد في بعض الأمور بآرائهم ، ويحثون الناس على احترامهم ، ويمعنون في اكرامهم ، ويصحبونهم

في المواكب معهم ، ويتباهون بمن كان نابغاً مشهوراً منهم ، وينزلونهم عندهم حسب طبقاتهم : فالفقهاء والمحدثون ، ثم علماء اللغة والنحو ، ثم رواة الأدب والأخبار . وكثيراً ما كانوا يعقدون لهم المجالس للمناظرة والجدل والمساجلات الادبية ، ثم يقدمون لهم الهبات والمنح بعد ذلك . وربما اختاروا بعضهم من النوابغ المشهورين ليشغل منصباً في الدولة ، او ليقرب الى الخليفة فيكون في حاشيته او من ندمائه وجلاسه ، او من مؤدبي اولاده .

ولم تكن هذه النهضة الفكرية في البصرة مقصورة على دراسة العلوم الشرعية واللسانية ، وجمع الانتاج الفكري القديم ، وتدوين اخبار الغابرين من عرب الجاهلية وصدر الاسلام فحسب ، بل كانت مشحونة ايضاً بالانتاج الأدبي الحديث لكثرة من نبغ في هذا العهد من الشعراء والأدباء والكتاب والمنشئين .. ولا نغالي إذا قلنا بأن الفترة التي عاش فيها صاحبنا الأصمعي بين عامي « ١٢٣ - ٢١٧ هجري » كانت فترة انتاج ادبي غزير بلغت به مدينة البصرة قمة مجدها كما بلغتها في العلوم المختلفة التي تحدثنا عنها . وكان هذا الانتاج الجديد يختلف في اخيلته وأسلوبه وديباجته عن ذلك الانتاج العربي القديم ، ولا سيما في الشعر .

والسبب في ذلك اختلاف وسائل العيش وسبل الحياة بين العهدين . فقد كان كل من الأدب الجاهلي والأموي عربياً صافياً يغلب عليه طابع البداوة وخشونة الصحراء . فلما تحضر العرب وسكنوا المدن ، واختلطوا بالعناصر الأخرى من الفرس والروم وغيرهم ، وتغلغل الترف ونعومة الحضارة في صفوفهم ومواطن إقامتهم ، واقتنوا الثروات الطائلة ، وتسروا الجواري الحسان والتفت قصورهم بالحدائق المورقة والجنان المزهرة ، وانغمسوا باللذة والنعيم

بعد التقشف والبداوة ، وكثر من تعلم العربية من علماء الموالي وأدبائهم ، واحتكوا بالعرب فكرياً واجتماعياً ، تغيرت الأخيلة والديباجة في الأدب العربي كل التغيير ، فجاءت وعليها مسحة من هذه الحضارة ورونق من ذلك الترف .

وأكثر ما يمتاز به الشعر في العصر العباسي الأول عنه في العهد الجاهلي والأموي المعاني الجديدة ، والدقة في الوصف والرقة في اللفظ والاسراف في وصف النساء وذكر الخمرة والرياض والأزهار ، مع كثير من المجون والخلاعة في وصف الغلمان والتغزل بالمذكر ، وغير ذلك مما لم يكن موجوداً في العهود الاولى .

اما الخطابة فقد ضعفت ديباجتها في العصر العباسي ، وتضاءلت روعة الاسلوب البدوي المتين فيها ، ولكنها تغذت باسلوب وافكار وآراء سياسية جديدة .. ولم تكن « الكتابة والانشاء » عند العرب الا بقدر ما كان عندهم من الرسائل القصيرة وما يكتب بين الخلفاء والعمال . ولكنها نشطت في اواخر العهد الاموي واواسط العصر العباسي الاول حيث بدأ التأليف في الشؤون الاجتماعية والادبية ، ونبغ كتاب مشهورون لكل منهم أسلوبه الخاص به ، أمثال « عبد الحميد الكاتب » و « عبد الله بن المقفع » و « عمرو بن بحر الجاحظ » وغيرهم من ادباء البصرة .

وكان التأليف وتصنيف الكتب يزداد باطراد كلما زهت النهضة العلمية واتسعت جوانبها ؛ فتكونت طبقة من الناس ، اطلق عليهم اسم « الوراقين » يشتغلون بنسخ هذه التآليف الجديدة وبيعها على الناس بأثمان مناسبة . وكان لهم في البصرة دكاكين في الاسواق تعرف بهذا الاسم . ولم يكن عملهم مقتصراً على نسخ المؤلفات العربية فحسب ، بل كانوا أيضاً ينسخون

الكتب المترجمة من اللغات الاجنبية الى العربية ، حيث كانت الترجمة قد نشطت في اوائل العصر العباسي و بدأ العرب يقرأون الكثير ممـــا انتجه فلاسفة اليونان والرومان وحـكماء الفرس والهنود والسريان وغيرهم . وقد نبـغ في هذه الفترة من الزمن عدد كبير من المترجمين نقلوا الى العربية كمية لا بأس بها من انتاج هذه الشعوب العريقة بالعلم والحضارة .

ومما يجدر بالذكر ان نهضة البصرة العلمية كانت - كما رأينا - تستند في الأكثر على العلوم الشرعية ، وتستمد معظم مواردها من القرآن والحديث واللغة ، وكان الطابع الديني ظاهراً فيها . فلما توغل البـاحثون في دروس المسائل الدينية واستقصـــاء المعاني البعيدة من نصوص القرآن ، واختلف المجتهدون في آرائهم الفقهية ، وتوسع البعض فى ابحاثهم الفلسفيـة وتفرع النقاش والجدل في المسائل الدقيقة القابلة للتأويل والقياس ، وتوفرت الكتب الاجنبية المترجمة امام المطالعين ، تكونت زمرة من المفكرين من ضعاف الايمان بالدين ، وجاهرت بآرائها المخالفة لتعاليم الاسلام وتظاهرت بالالحاد فعرفت بطبقة « الزنادقة » ؛ ولكنها كانت عرضة للمطاردة والتنـــكيل من الخلفاء وعمالهم على البلاد .

هذا ما كان من امر النهضة العلمية والادبية ، واما من ناحيـة فني الموسيقى والغناء فلم تصل البصرة فيهما الى ما وصلت اليه كل من المدينة المنورة في العهد الاموي ، وبغداد في أيام هارون الرشيد . ولكننا لا نقول بأنها حرمت كلياً من هذين الفنين الجميلين ، فقد ورد في اخبار البصرة اسماء بعض المغنين والموسيقيين غيرانهم لم يكونوا في مقدمة زمـلائهم الآخرين نبوغـاً فيهما .

وكان من نتائج تلك الحركة الفكرية الواسعة والنهضة التي ازدهرت في العصر الأول العباسي ان كشفت « الشعوبية » عن وجهها القناع ، وظهرت بوجه سافر بعد ان بقيت في اواخر العهد الأموي كامنة مستترة ، ولعبت دورها الخطير في البصرة بوجه خاص ، وفي المدن العربيـة الاخرى بوجه أعم .

ويتلخص الأمر في ذلك ، بأن العرب في صدر الاسلام ، ولا سيما في العهد الأموي ، كانوا يسمون غير العربي ممن ينتمي اليهم بالولاء « مولى » . وكان بعض المتعصبين للقومية العربية منهم لا يرون هؤلاء اكفاء لهم وإن كانوا مسلمين مثلهم . فلا يكنونهم بالـكنى ولا ينادونهم إلا بأسمائهم او بألقابهم لما في الـكنيـة من تودد واحـترام . ولا يسمحون لهم بالسير في الصف معهم إلا وراءهم في المواكب ؛ ولا تستخدمهم الدولة في المنـاصب الـكبيرة التي كانت مقصورة على العرب وحدهم . واذا اقيمت مائدة عربية حضرها عدد من العرب ، قام الموالي في خدمتهم ؛ وإن أطعموا احداً معهم من الموالي لعلمه وفضله اجلسوه في طريق الخباز لـكي يعلم من يراه انـه ليس من العرب في الصميم . ولا يجوز لأحد من الموالي ان يصـلي إماماً على جنازة احد من العرب إذا كان هنالك بين المصلين عربي واحد ولو كان غريراً . واذا اراد احد من الناس الزواج ببنت احد الموالي خطبها قبل كل احـد من (مُواليها) ، اي الى العربي الذي ينتمي ابو البنت اليه ، فإن وافق كان للخاطب بعد ذلك ان يخطبها من ابيها ، وإلا فلا يجوز له بعـد الرفض ان يتقرب الى خطبتها ؛ وإذا وافق الأب او الأخ ولم يوافق (المُوالي) العربي فسخ عقد النكاح إذا كان قد عقد .

وغالى بعض هؤلاء العرب في ارستقراطيتهم ، فصاروا يطلقون على ابنائهم من امهات غير عربيات اسم « المولدين » . واصطلحوا على العربي من ام غير عربية كلمة « هجين » ، والهجنة في الشيء هو النقص او العيب .. وجرى العرف عند امراء بني امية ان لا يبايعوا امويا بالخلافة إذا كان من ام غير عربية مهما كانت ميزاته وكفاءته ؛ وهذا ما اخر بعض امرائهم عن الوصول الى هذا المنصب وهم أحق من غيرهم به . فقد كان القائد المشهور « مسلمة بن عبد الملك » - مثلاً - من خيرة رجالهم وأقدر فرسانهم وله تاريخ مجيد في الغزوات والفتوح ولكنهم لم يبايعوه حين شغر كرسي الخلافة بعد ابيه لأن امه كانت رومية .. وفي رواية ان الخليفة « عبد الملك بن مروان » خطب يوماً من احد اشراف العرب ابنته ليزوجها احد ابنائه ، فأجابه قائلاً : « لك ما تريد يا امير المؤمنين ولكن جنبني هجناء ولدك » .

وكانت هذه النزعة الأرستقراطية محصورة في رؤساء العرب من البدو ، وفي الطبقة العليا من رجال الدولة وغيرهم من ذوي المكانة . وربما كان الباعث لها هو الشعور قبل كل شيء بفضل عنصرهم العربي على غيره من العناصر الأخرى ، لأنهم هم الذين فتحوا البلاد بسيوفهم ، وأخضعوا هذه العناصر بالقوة ، وهم الذين نشروا الاسلام ، وهدوا الشعوب الى طريق الحق بعد ان كانوا من الكافرين .

والظاهر ان الخلفاء الأمويين كانوا يغذون هذه النزعة في نفوس العرب لا كرهاً بالموالي او ترفعاً عليهم فحسب ، ولكنهم كانوا ايضاً يرون عددهم قد تكاثر وتضخم في البلاد العربية ، وصاروا يشعرون بالخوف من تغلبهم على الأمور .. قيل ان معاوية بن ابي سفيان دعا « احنف بن

قيس[١] » وقال له : « اني رأيت هذه الحمراء - اي الموالي - قد كثرت ، واراها قد قطعت على السلف ، وكأني انظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت ان اقتل شطراً وادع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق ، فما ترى ؟ » فلم يوافق احنف على هذا الرأي وأقنعه بالعدول عنه[٢] .. وربما فكر معاوية بذلك بعد ان تذكر مقتل الخليفة عمر بن الخطاب على يد رجل فارسي ، ورأى ما كان للموالي من اليد الطولى في إثارة الفتنة على عثمان بن عفان وقتله .

ومهما تكن العلل والأسباب ، فقد بعثت هذه الأرستقراطية العربية رد فعل في نفوس المفكرين من غير العرب ، فترسب في صدور بعضهم الحقد والبغضاء ضد العنصر العربي الذي يحكمهم ولا يرى المساواة والأخوة معهم ، كما امر بذلك الدين الاسلامي . وكان اول من أحس بهذا وفكر به هم ابناء الطبقة المتعلمة من الموالي الفرس الذين كانوا يذكرون حضارتهم واستقلالهم وسيادتهم في العهد القريب قبل الفتح الاسلامي .. ولكن هؤلاء لم يستطيعوا في العهد الأموي التظاهر بهذا الشعور خشية البطش وإنزال العقاب ؛ فقد قيل : ان الشاعر « اسماعيل بن يسار » الفارسي الأصل ، دخل على الخليفة « هشام بن عبد الملك » وأنشده قصيدة في مدحه ، استهلها بالتفاخر بأمجاد الفرس ، فغضب هشام من ذلك ، وأمر بضربه واخراجه من البلاط ، ثم نفاه خارج بلاد الشام[٣] .

فلما زال حكم بني امية وتأسست الدولة العباسية بمعاونة الفرس ،

---

(١) احنف بن قيس احد زعيم بني تميم وأحد الرجال المعروفين في العراق في ذلك العهد .
(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ٢٧٠ .
(٣) الأغاني : ج ٤ ص ١٢٠ .

استوزر بنو العباس رجالاً من العجم الموالي ، فخفت حدة ذلك التعصب العربي ، وزال الضغط عن الآخرين . حتى إذا اتسعت الحرية في ابداء الرأي والقول على اثر ازدهار الحضارة الفكرية في كل من البصرة والكوفة و بغداد ، وقوي احتكاك العناصر المتعلمة ببعضها ، تظاهر الحاقدون من الموالي ببغضهم للعنصر العربي ، وقالوا وكتبوا في ذلك ما شاؤوا ، فسميت حركتهم هذه بـ « الشعوبية » ، وأطلقوا كلمة « شعوبي » على كل من يكره العنصر العربي ولا يفضله على غيره .

وكان اول من ظهر من الشعوبيين ، في اواخر العهد الأموي ، اناس يقولون بأن الله خلق الانسان من طين ، وأنزلهم من صلب رجل واحد ، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ؛ وأن الدين الاسلامي ساوى بين المسلمين وجعلهم في ميزان واحد ، وآخى بين المؤمنين ، ولم يفضل عربياً على عجمي إلا بالتقوى . ولكن المتعصبين من العرب كانوا لا يرون في هذا الرأي والمساواة انصافاً لعنصرهم للأسباب التي ذكرناها .

ثم تطور الأمر الى اسوأ من ذلك في العهد العباسي ، فظهر من الشعراء الشعوبيين من هجا العرب وأقذع في هجائهم :

في بلدة لم تصل « عكن » بها طنباً ولا خباءً ولا « عك وهمدان »
ولا « لجرم » ولا « نهد » بها وطن لكنها لبني الأحرار أوطان
ارض تبنى بها كسرى مساكنه فما بها من بني اللخناء إنسان

ونبغ من بين هؤلاء الشعوبيين ايضاً علماء ورواة ادب ، فألفوا كتباً في « مثالب العرب » وجمعوا اشعار الهجاء التي قالها شعراء القبائل ببعضهم ، فلم تبق قبيلة إلا اصابها نصيب من ذلك الهجاء ، حتى قريش . وحرفوا الأخبار والتاريخ والأشعار ونسبوها الى غير قائليها ، وزادوا فيها من

عندهم لغـــاية في نفوسهم ؛ ولم يكفهم ذلك ، بل وضعوا الاحاديث اختلاقاً على لسان النبي عليــه السلام ، فأساؤوا للأدب والتاريخ والدين اساءة كبيرة .

وكان الذي يحميهم احياناً من طائلة العقاب ، ويشجعهم على ذلك ، نفوذ الموالي الفرس من الوزراء ، امثال « يعقوب بن داود » و « بني برمك » الذين ساهموا في حكم الدولة ، واستولوا على أزمة الأمور في عهد الرشيد ، ومدحهم الشعراء الموالي بما لم يمدح بمثله الخلفاء ..

ولم يقف علماء العرب وشـعراؤهم موقف المتفرج امام هذه الموجـة الاعتدائية على عنصرهم ، بل تصدوا لها وقارعوا الحجة بالحجة ودافعوا بما يستطيعون ، فانبعث من جراء ذلك حرب كلاميـة طال مداها وأشـغلت الناس زمناً طويلاً .. وكانت مدينة البصرة اكبر ميـــدان لهذا الصراع العنصري ، وذلك لضخامة الطبقة المتعلمة فيها من العرب والموالي معاً . ولم تكن الـكوفة مثلها في هذا الأمر ، لبعدها عن تخوم فارس وقـلة الأسر الـكبيرة من غير العرب فيها . ولم يكن هذا الصراع على حدته في بغداد - اول الأمر - لتأخرها في إنشاء نهضتها الفكرية ؛ غير ان الشعوبيـــة نمت فيها بعــد ذلك وترعرعت ، وأخذت لها صبغـة سياسية وتوغلت في صفوف الحاكمين ورجال البلاط بفضل وجود البرامكة واعوانهم من الفرس ، فتمخضت عن نتائج وخيمة بشعة .

الادوار السياسية ، وقبيلة باهلة

والبصرة وان لم تكن في يوم من الأيام عاصمة خـــلافة كما كانت المدينة والشام والكوفة مثلا ، ولكنها من أمهات المدن التي لعبت ادواراً

سياسية خطيرة في تاريخ العرب والمسلمين ، سواء أكان ذلك في أيام الخلفاء الراشدين ، أم في العهد الأموي ، والعباسي الأول .

فمنها خرج « حكيم بن جبلة » العبدي مع جماعة من قومه ، والتحقوا بالثائرين الذين زحفوا من بعض الاقطار الأخرى الى الحجاز ، وحاصروا دار الخليفة عثمان بن عفان في المدينة فقتلوه ؛ وبايعوا علياً بن ابي طالب وصاروا في جيشه .

وفيها حدثت معركة الجمل – على بعد ثلاثة أميال منها ، في المربد – بين جيش علي بن ابى طالب وجيش طلحة والزبير ومعهما « عائشة بنت ابي بكر الصديق زوجة النبي » . وانقسم البصريون بينهما ، فقتل في تلك الموقعة آلاف كثيرة من المسلمين ، حتى انتصر علي ، ودخل البصرة وخطب بالناس في مسجدها مؤنباً من اشترك من اهلها ضده في القتال .

وفيها وفي أطرافها جرت المعارك الطاحنة بين الخوارج وجيوش بني أمية بقيادة القائد المشهور « المهلب بن ابي صفرة » البصري الذي حارب هؤلاء الثوار أعواماً طويلة في الاهواز وفارس وخراسان وغيرها .. وفي عهد الحجاج بن يوسف الثقفي ، عامل بني أمية على العراق ، أصاب البصرة نصيب كبير من تلك الحروب والفتن التي اثارها عليه خصومه في المناسبات .. وغير هذه الحوادث حوادث أخرى تاريخية لم يسلم من غوائلها الشعب البصري. (١)

فكان خلفاء بني أمية يعنون كثيراً بمدينة البصرة ، ويهتمون بأمرها و يعبأون بأحوالها لكثرة القبائل المحيطة بها ذات الشكيمة والقوة وشدة المراس . فبقيت البصرة موالية لهم حتى اواخر عهدهم . فلما نشطت الدعوة

---

(١) تاريخ البصرة حافل بالحوادث السياسية والعسكرية خلال هذه الفترة ، ليس في النزاع الداخلي بين المسلمين فحسب بل في اشتراك قبائلها وابنائها في الغزوات والفتوح ايضاً .

العباسية ، واندلعت ثورتها في خراسان ، وزحفت جيوشها لفتح العراق ، بقيت البصرة منيعة ولم تستسلم إلا بعد حرب دموية دارت في ازقتها وأحيائها وفي أطرافها . . ولما ثار العلويون في الحجاز بقيادة محمد بن عبدالله العلوي « النفس الزكية » سار أخوه ابراهيم الى البصرة وما حولها وتغلب عليها وجمع منها جموعاً كثيرة ، وزحف لقتال جيش ابي جعفر المنصور العباسي ، ولكنه لم يتوفق ، فقتل في الميدان بعد فرار أصحابه .

يتبين من هذا جلياً بأن الرأي العام في البصرة كان واعياً حساساً ، وكانت له قيمته ووزنه في المجال السياسي والتيارات التي انتابت دولة المسلمين منذ قامت هذه المدينة حتى أواخر العصر العباسي الأول ، وما بعده ايضاً . واذا تتبعنا الحوادث التاريخية في البصرة رأينا بأن الرأي العام السياسي فيها كان في اول امره عثمانياً ، ثم صار اموياً ، ثم اصبح عباسياً ، ثم تجزأ بعد ذلك الى شعب وطرائق قدداً .

وللأيضاح اكثر من هذا نقول : بأن الحديث عن نشاط البصرة في الميدانين العسكري والسياسي لا يعني ذلك الشعب الخليط من عرب وغيرهم في حوض المدينة وبين جدرانها ، بل يعني تلك المجموعة الكبيرة من القبائل المنيخة في اطرافها وضواحيها ، والتي بقيت محتفظة ببداوتها وتقاليدها ونزعتها الى الفروسية والقتال ، ولا يربطها بالبصرة غير عدد يسير من ابنائها ومجموعة من زعمائها الذين هجروا حياة البداوة الى ترف القصور ولكنهم لم يقطعوا صلاتهم بعشائرهم ما دامت هي قوتهم في الأزمات وسندهم في السياسة والحروب إذا اقتضى الأمر ..

ولما كان الحديث عن كل قبيلة من هذه القبائل وتاريخها في البصرة يطول شرحه ، نكتفي بالبحث عن قبيلة « باهلة » التي ينتسب اليها « الأصمعي » .

قبيلة باهلة

وهي قبيلة عربية ينتهي نسبها الى « معد بن عدنان » . وفي سبب تسميتها « باهلة » روايتان ؛ تقول احداهما : ان احد اجدادها « باهلة بن اعصر بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان » . وهي رواية ضعيفة لعدم وجود اسم باهلة في أنساب الباهليين كلهم . والأصح هو ان « باهلة » اسم امرأة « مالك بن اعصر » ؛ غير ان التاريخ لم يحدثنا عن سبب نسبة هذه القبيلة الى امرأة دون غيرها من الرجال ؛ وربما كان لهذا الأمر قصة لم تصلنا اخبارها . ولكننا عثرنا على رواية تقول : ان باهلة هذه كانت زوجة لمالك بن اعصر ، وقد توفي عنها زوجها مالك وهي شابة ، فتزوجها « معن بن مالك » وهو ابن زوجها ـ من امرأة اخرى ـ فولدت منه « قتيبة بن معن » و « وائل بن معن » (١) . وقد بحثنا عن أنساب مشاهير الباهليين فوجدناهم جميعاً يتصلون بمعن عن طريق احد ولديه « قتيبة او وائل » ، مما يدل على ان الباهليين هم اولاد « معن بن مالك » من زوجته باهلة التي تزوجها بعد وفاة ابيه عنها .

ويبدو لنا ان العرب استهجنوا ـ يومئذ ـ زواج هذه المرأة بابن زوجها وهي في مقام امه فنسبوا اليها اولادها الذين انجبتهم من معن ، فكان هذا احد الأسباب الرئيسية في انحطاط منزلة هذه القبيلة في نظر

---

(١) ينتهي نسب الأصمعي مثلا الى معن عن طريق ابنه قتيبة . وينتهي نسب مسلم بن عمرو ابن الحصين الباهلي بمعن عن طريق ابنه وائل . وهكذا .

الآخرين [١] . وزاد الطين بلة هو ان هذه القبيلة ـ كما جاء في احدى الروايات ـ خضعت زمناً طويلاً لجارتيها القويتين « فزارة » و« ذبيان » فاستخدمتاها وأذلتاها ، فأصبح الانتماء الى باهلة لا يدعو الى الاعتزاز والفخر ، وصار بعض الباهليين اذا سئل عن نسبه قال : انا من قيس بن عيلان ، او من سعد بن قيس ويتجنب كلمة باهلة [٢] .

وقد وجدنا في بطون كتب الأدب شيئاً كثيراً من الشعر والنوادر في هجاء هذه القبيلة والتنويه بضعة نسبها عند العرب . كقولهم :

أباهل ينبحني كلبكم ... وأسدكم ككلاب العرب
ولو قيل للكلب يا باهلي ... عوى الكلب من لؤم ذاك النسب

وقولهم : سئل اعرابي ؛ أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلي ؟؟ قال : نعم ، بشرط أن لا يعرف أهل الجنة ذلك .

غير أن الذي يدرس مجموعة ما قيل في باهلة من هذا اللون الأدبي يجد على معظمها طابع الحداثة والصنعة والتعمد في الاهانة ، وقلما يعثر على قول قديم في ذلك رغم كثرة ما قيل عند العرب من الشعر في هجاء بعضهم البعض ؛ مما يدل على أن خصوم باهلة قد اكثروا من هجائها وذمها في اواخر العهد الأموي والعصر الأول العباسي ، لأسباب : اهمها ذلك الصراع الدامي بين اسرتي القائدين المعروفين « المهلب بن ابي صفرة الأزدي » و « قتيبة بن مسلم الباهلي » والتنافس بينهما على زعامة البصرة ؛ وأخبارهما في ذلك معروفة [٣] .. وثانيهما ذلك الخلاف الشديد بين

---

(١) كان العرب في الجاهلية يتزوجون نساء آبائهم ، وقد حدث ذلك كثيراً ، ولكنهم كانوا لا يستسيغون هذه السنة عندهم .

(٢) امالي القالي : ج١ ص١١٧ ـ كان الاصمعي نفسه اذا سئل عن نسبه في البادية قال : انا من بني سعد بن قيس ،او احد بني اعصر بن سعد ، ولم يقل باهلياً . ولكنه لم يتنصل من باهلة عند معارفه .

(٣) الكامل : ج٦ ص١١٤ .

الشعوبية والعربية ، والحملة القاسية التي شنها الشعوبيون من علماء الفرس على المناصرين للعنصر العربي من شعراء باهلة وادبائها وعلمائها الذين كثر عددهم في البصرة في العهد الأول العباسي ، وعلى رأسهم صاحبنا الأصمعي ، كما سنرى في الفصول القادمة .

نعم ، لا ينكر بأن قبيلة باهلة ليست في مقدمة القبائل العربية الأخرى ان لم تكن في مؤخرتهم اذا نشر تاريخ البطولات والامجاد والكرم واقراء الضيف وغيرها ، ولكننا لا نعتقد بأنها كانت بين العرب ، قديماً ، على هذه الصورة المزرية التي أراد خصومها ، في اواخر العهد الأموي وأوائل العهد العباسي ، ان يظهروها بها . وقد ذكر لنا التاريخ شخصيات كبيرة ظهرت في المجتمع الجاهلي ، وأخرى لعبت ادواراً في تاريخ الاسلام ، منهم أبو أمامة « صُدَيّ بن عجلان » الصحابي المجاهد وأحد الذين بايعوا النبي (ص) تحت الشجرة ، ومنهم « سلمان ابن ربيعة الباهلي » احد ولاة ابي بكر الصديق ، ومن ابطال حرب القادسية ضد الفرس ، وأحد رؤساء المجاهدين في فتوح ارمينية واذربيجان وغيرها في عهدي الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان . ومنهم « ابو هوذة بن شماس » احد جلساء معاوية والذي هدده حين اساء بكلامه لباهلة (١) . و « سحبان وائل » خطيب العرب المجلي ، والذي كان يضرب المثل ببلاغته وحسن خطابه . ومنهم القائد العظيم

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ : ج ٣ ص ٤٢٨ — قيل ان معاوية اراد يوماً ان يداعب أبا هوذة بن شماس ، فقال له : هممت ان احمل جمعاً من باهلة في سفينة ثم اغرقهم ، فقال ابو هوذة : اذاً لا ترضى باهلة بعدتها من بني امية . قال معاوية : اسكت ايها الغراب الأبقع ؛ قال ابو هوذة : ان الغراب الأبقع ربما درج الى الرخمة حتى ينقر دماغها ويقلع عينيها . فغضب معاوية وأرسله الى الجهاد ، فجاهد حتى قتل .

« قتيبة بن مسلم الباهلي » الذي سنتحدث عنه .. وغير هؤلاء ممن جاءت اخبارهم في كتب التاريخ .

كانت قبيلة باهلة تسكن اواسط (اليمامة) في شرقي شبه الجزيرة العربية ، فلما بدئ بإنشاء مدينة البصرة نزحت اليها مع من نزح من القبائل الأخرى ، ونزلت على بعد اربعة اميال منها ، في طريق الحج ، على بئر يدعى « الحفير » ، واستوطنت هناك مع مواشيها ، وبقيت محتفظة ببداوتها رغم نزوح عدد كبير من افرادها الى داخل المدينة الجديدة واستقرارهم فيها ، فنبغ من بينهم رجال كان لهم شأن يذكر في تاريخ البصرة ، نخص بالذكر منهم اسرة « مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي » التي كان لها صلة ود وصداقة باسرة صاحبنا « الأصمعي » .

كان « مسلم بن عمرو بن الحصين » هذا ، رجلاً جليل القدر ، وفارساً معروفاً من فرسان الميادين ؛ وهو صاحب « الحرون » احد الجياد العتاق التي تتصل بها انساب عتاق خيول العرب . وكان مقرباً عند الخليفة معاوية بن ابي سفيان وابنه يزيد . فلما ثار « مصعب بن الزبير » في العراق ، وغلب أمره على البصرة والكوفة التحق به مسلم وقاتل معه ضد الخليفة عبد الملك بن مروان ، ولكنه جرح وأُسر ، فجيء به الى عبد الملك فاعتذر له عما حدث منه ثم مات من جرحه . وشب ابنه « قتيبة بن مسلم » على سيرة ابيه مولعاً بالفروسية والطراد ، فنبغ في فنون القتال ، وتقرب من الخليفة الوليد بن عبد الملك ومن عامله على العراق الحجاج بن يوسف ، فولاه على الري وخراسان مكان المهلب بن ابي صفرة ، وعمره ــ يومئذ ــ خمسة وثلاثون سنة ، فبقي في ولايته عشرة اعوام قضاها كلها بالجهاد والفتوح دون انقطاع ، وبلغ من الشهرة والمجد

والتوفيق حداً لم يبلغه قائد عربي من قبل .. فتح بلاد خوارزم وسمرقند والسند كلها في عام واحد . واكتسح بخارى وفرغانة وتركستان ، فانصاعت له ملوكها . ثم احتل « كاشغر » ووقف على حدود بلاد الصين ، فخافه ملكها ، وأرسل اليه أموالاً طائلة ، وصينية من الذهب عليها تراب من ارض الصين ليطأه قتيبة بقدميه ، ومفتاحاً من ذهب كرمز للولاء .

ولكن الأيام لم تسعده في النهاية ، اذ مات الحجاج ، ومات الخليفة الذي أحبه ، وتولى الأمر « سليمان بن عبد الملك » وكان بينه وبين قتيبة جفوة ونفور ، فأرسل بعزله عن الولاية على بلاد الشرق ، وأمره بالمجيء اليه . فخاف قتيبة من بطش الخليفة هذا ، وزاد في مخاوفه منه انه عين مكانه « يزيد بن المهلب بن ابي صفرة الأزدي » وكان هذا ايضاً من خصومه ؛ فأعلن عصيانه واستقل في البلاد التي فتحها . غير ان جماعة من جنده ، وجلهم من قبيلة « الأزد » ثاروا عليه بتحريض من الخليفة ومن يزيد بن المهلب الازدي ، فهاجموه في مقره وهو على فراش المرض فقتلوه عام (٩٧ هـ) ومن معه من اهله وعدداً من الباهليين ، وعمره ثماني واربعون سنة .[(١)] .. ومن هنا بدأ الخصام الدامي بين الأزد والباهليين في مدينة البصرة نفسها .

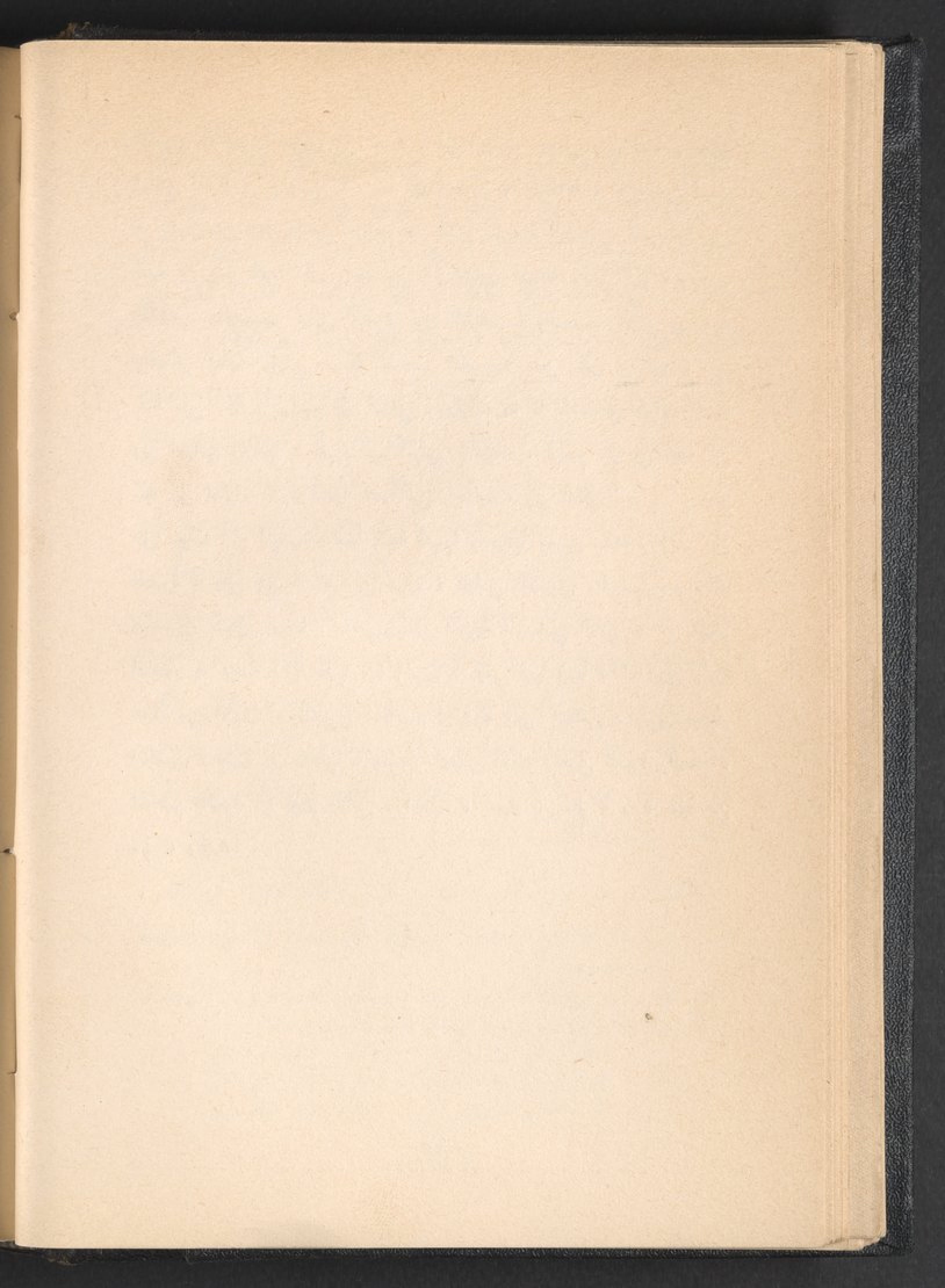
وكان ممن بقي من أولاده « سلم بن قتيبة » فنشأ وجيهاً كبير القدر ، فعينه والي العراق « عمر بن هبيرة » عاملاً على البصرة في عهد الخليفة

---

(١) الطبري : ج٣ ص٢١٧ ـ كان لمقتل قتيبة صدى استياء عظيم عند المسلمين ؛ ويقال ان الخليفة نفسه ندم وحزن على قتله . وبذلك يقول الشاعر جرير الخطفي :

ندمتم على قتل الاغر بن حاتم   وانتم اذا لاقيتم الله اندم
لقد كنتم من غزوه في غنيمة   وانتم لمن لاقيتم اليوم مغنم
على انه افضى الى حور جنة   وتطبق بالبلوى عليكم جهنم

الأموي الأخير « مروان بن محمد » . فلما احتلت جيوش بني العباس معظم اراضي العراق ، وبويع « عبد الله السفاح » بالخلافة ، وجه من قبله « سفيان بن معاوية بن المهلب » لفتح مدينة البصرة ، فأبى سلم بن قتيبة ان يسلم المدينة الى واحد من آل المهلب اعدائه وقاتلي ابيه ؛ وتأهب لمقاتلته . فانقسمت قبائل البصرة بين الطرفين ، والتحقت الأزد وربيعة والقبائل اليمانية بالمهلبي ، كما انضمت المضرية ومن كان في البصرة من بقايا بني أمية وأعوانهم الى الباهلي . ودارت معركة طاحنة في اطراف المدينة وفي احيائها وازقتها ، انهزم فيها المهلبي وأعوانه . فهجم سلم بن قتيبة بمن معه على منازل الأزد فقتلوا عدداً من رجالهم ، وفر الباقون ؛ ثم اغار على بيوت آل المهلب منتقماً لأبيه فنهبها وأحرقها وسبى نساءها .. وبقي على البصرة ، حتى قتل « عمر بن هبيرة » العامل الأموي ، فسلمها بعد ذلك للعباسيين بدون حرب . ولكن الخليفة العباسي الثاني « ابا جعفر المنصور » عينه والياً عليها مرة اخرى ؛ فبقي فيها زمناً ؛ ثم توفي وترك عدداً من الأولاد ، اشتهروا بمكانتهم في دولة بني العباس ، وتولى بعضهم المناصب الخطيرة في بلاطها ، واشتهر البعض الآخر بحسن السيرة والعطاء ، فمدحهم الشعراء واكبرهم الناس ، امثال « سعيد بن سلم » و « عقبة بن سلم » وغيرهما .



القسم الأول

الأَصمَعيُّ

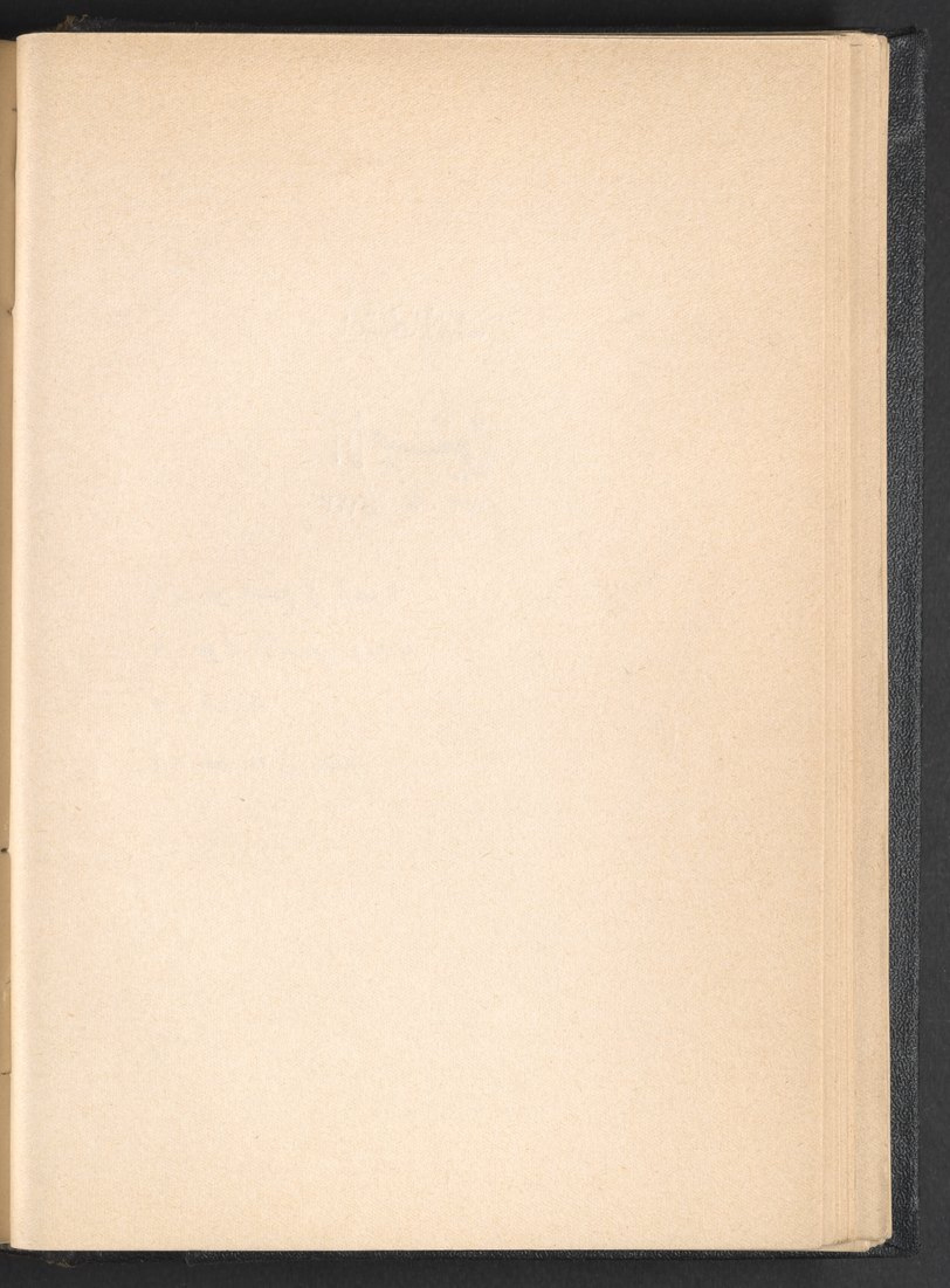
١٢٣هـ - ١٧٣هـ

١ ـ بنو اصمع في البصرة

٢ ـ مولد الأصمعي ونشأته

٣ ـ اساتذته

٤ ـ خصومه في مجتمعه



بنو أصمع في البصرة

كان من اوائل الباهليين الذين تركوا قبيلتهم ومنازلهــا على « بئر الحفير » ودخلوا مدينة البصرة أيام تأسيسها وانشائها ، رجل رقيق الحـال قليل المال ، ولكنه بعيد الهمة متين العزيمة متوقد الذكاء ، يدعى « اصمع بن مُظَهِّر » . بنى بيته بالقصباء والطين ، في بقعة تقرب من السكة المؤدية الى « سوق المربد » ، وألقى نفسه في المجتمع البصري الجديد ، ينتجع لأهله وذويه اسباب العيش . والأكثر أنه كان كغيره من ضعاف الأعراب يمارس ـ في نطاق ضيق ـ بيع المواشي ونقلها من قبيلته الى اسواق المدينة .
غير أننا لا ندري هل كانت كلمة « أصمع » هذه اسماً له صريحاً أم لقباً غلب عليه ، فقد جاء لها في قاموس اللغة معاني عديدة : منهـا « السيف القاطع » و « الريش الجميل » و « القلب الذكي » و « النبت الذي لم يتفتق زهره أو ثمره بعد » ؛ ومنهـا « الرجل اذا كان صغير الأذنين ملتصقتين بالرأس » . ويغلب على الظن أنه كان كذلك ، فلقّب بهذه اللفظة ، وغلب اللقب عليه ، فضاع اسمه الحقيقي كما يحدث عند الكثير من أبناء القبائل العربية .

وكان له أولاد ، طويت اخبارهم مع الزمن ، وضـاعت اسماؤهم ، فلم نعرف منهم غير « علي بن أصمع » الذي تعلم القراءة والكتابة في صغره ، واتصل بدواوين الدولة ، وشغل بعض الأعمال الصغيرة تحت أيـدي ولاة البصرة ، كقراءة كتب الخليفة على المنبر ، وجباية الضرائب في شؤون معينة ، الى آخر ذلك .

ففي التاريخ (١) ، ان الخليفة عثمان بن عفــان عزل أبا موسى

---

(١) الطبري : انظر سنة ٣٥.

الأشعري عن البصرة عام (٢٩ هـ) وولاها ابن خاله « عبد الله بن عامر » وهو ابن خمس وعشرين سنة . فبقي فيها بضعة اعوام ، حتى قتل عثمان عام (٣٥ هـ) ، كان خلالها في حركة ونشاط ، فالتف حوله بعض أهل البصرة وفي مقدمتهم جمهرة من باهلة ، فغزا بهم بلاد الفرس وفتح خراسان ومدناً اخرى .. وكانت العادة المألوفة - يومئذ - عند الولاة ، اذا قدم على أحدهم كتاب من الخليفة يتعلق بحقوق العامة وواجباتهم ، أمروا من يقرأ ذلك الكتاب على المنبر بعد الصلاة ليحيط الناس علماً بما جاء فيه . وكان في البصرة رجل خراساني الأصل يقرأ هذه الكتب الواردة في عهد الولاة السابقين ، ولكن عبد الله بن عامر ، جعل « علياً ابن أصمع » في مكان هذا الخراساني ، وعين له اجراً يتقاضاه على ذلك . وفي هذا يقول الشاعر :

وأمست رسوم الدار قفراً كأنها ... كتاب تلاه الباهلي بن أصمع (١)

فلما قتل عثمان بن عفان ، واضطرب الأمر في خلافة علي بن ابي طالب ، وحدثت معركة الجمل في المربد ، التحق بعض الباهليين بجيش « عائشة زوجة النبي » وقاتلوا في صفوفها ؛ فانتصر علي بن ابي طالب ودخل البصرة ، ومكث فيها زمناً ، فجاء اليه جماعة من الناس يتهمون « علياً ابن اصمع » بسرقة حاجة من رحال احد التجار في موضع يدعى « سفوان » . فقال لهم الخليفة : هل عندكم من يشهد بأنه سرقها من رحاله ؟ قالوا : نعم ، وجاؤوا بمن شهد على ذلك ، فأمر بقطع اشاجعه ،

---

(١) السيرافي : ٦٩ - يقول « التوزي » : سألت ابا عبيدة اللغوي عن معنى هذا البيت ، فقال : كان علي بن أصمع يقرأ الكتب على المنبر كما يقرأها الخراساني . ثم سألت الأصمعي عن ذلك فتغير لونه وقال : ورد كتاب من الخليفة عثمان بن عفان الى والي البصرة عبد الله بن عامر ، فلم يجد من يقرأه ، فقرأه جدي علي بن أصمع .

فقيل له : يا امير المؤمنين ، ألا قطعته من زنده ؟! قال : سبحان الله ، كيف يتوكأ ؟ كيف يصلي ؟ كيف يأكل ؟؟ (١)

ومكث علي بن اصمع ناقماً على ما حل به من قطع اشاجعه ، زاعماً بأن التهمة كانت ملفقة عليه ، وانه لم يسرق شيئاً . فلما قدم والي العراق « الحجاج بن يوسف » الى البصرة في عهد الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان ، اتاه ابن اصمع ، وقال له : « ايها الأمير ، إن ابويّ عقاني فسمياني علياً ، فسمني انت » فقال له الحجاج : « ما احسن ما توسلت به ! فقد وليتك سمك (البارجاه) وأجريت لك في كل يوم دانقين فلوساً ، ووالله لئن تعديتها لأقطعن ما ابقاه علي من يدك » (٢) . فبقي في عمله المتواضع هذا حتى توفي بعد عمر طويل شاهد في اواخره احفاده من بنيه .

وقد عرفنا من اولاده « عبد الملك بن علي » الذي التحق بصحبة « مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي » الذي تحدثنا عنه ، وقاتل معه في ثورة مصعب بن الزبير ، ثم التحق بعد ذلك بعسكر ابنه قتيبة بن مسلم اثناء فتوحاته المشهورة في بلاد الترك وكاشغر . ولا نعلم شيئاً من اخباره ولا كيف انتهت حياته . ولكنه ترك عدة اولاد نشأوا في البصرة (٣) ؛ منهم « عاصم بن عبد الملك » المعروف بلقبه « قريب » ، ومنهم ايضاً « ابو سُرّان » وقيل هو « سُرّان » نفسه وكنيته ابو العباس وكان من رواة اللغة والأدب (٤) .

---

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٧ .
(٢) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٧ .
(٣) امالي القالي : ج ١ ص ١٦٩ .
(٤) امالي القالي : ج ٣ ص ١٢٦ .

واختلفت الأخبار في سيرة « قريب » . وتناقضت الآراء في شخصه تناقضاً غريباً : فمن قائل بأنه كان واسع الحال يملك الابل والخيل والجياد ، ويسير في موكب الأمير « سلم بن قتيبة » زعيم الباهليين بالبصرة ، ويؤازره في وقائعه ومعاركه ويصاحبه في اسفاره ؛ وله موال ينتمون اليه بالولاء (١) ؛ وانه كان نابه الذهن كثير الصلة برواة الأخبار ، يحب العلم ويجالس اهل الفكر ، ويحضر حلقة « الحسن بن يسار البصري » إمام فقهاء العراق (٢) .. ومن قائل ، عكس ذلك ، بأنه كان تافهاً من الرجال ، أمياً جاهلا ما تحدث بمسألة علمية قط ولا روى خبراً في الأدب او الشعر ، فقيراً معدماً لا يملك غير ثوبه الذي كان ينام فيه على قارعة الطريق تحت اشعة الشمس حين يقسو عليه برد الشتاء (٣) .

ولهذا التناقض اسباب سنعرفها فيما بعد (٤) . ولكن سير الحوادث والروايات المتعددة تدل على انه كان وسطاً في الناس أو دون الوسط ؛ فقيراً بالنسبة الى سراة اهل البصرة واغنيائها ، ولكن لا الى درجة العدم ، يمارس تجارة المواشي في نطاق ضيق سيراً على خطة اسلافه ورجال اسرته ، ويحضر مجالس الأمير « سلم بن قتيبة الباهلي » بحكم الصلة القبلية والصحبة القديمة ، فيقتبس مما يدور في ذلك المجلس العامر بين العلماء والأدباء من اخبار علمية ونوادر أدبية ، ويستوعب معاني بعضها قدر استطاعته ؛ وربما رواها لأولاده أو تحدث بها مع اصحابه في اماكن اخرى .. ولا يستبعد

---

(١) امالي القالي : ج ١ ص ١٦٩ .

(٢) كتاب المعارف : ص ١٨٤ .

(٣) ابن خلكان : ج٢ ص٣٤٦ .

(٤) سبب هذا التناقض في سيرة قريب هو ان ابنه الأصمعي كان يروي بعض الاخبار والتنف الأدبية عنه ليظهره بما يزينه في المجتمع ؛ بينما كان خصوم الأصمعي يغالون في ذم ابيه ليظهروه بما يشينه .

ان يكون - كما يقول صاحب كتاب المعارف - محباً للعلم ، يجالس العلماء في المسجد الجامع احياناً ، ويحضر حلقة الحسن البصري كما يحضرها كل من يريد من المسلمين ان يتعرف الى امور دينه ليمارس شعائره على الوجه الصحيح . وفي بعض الأخبار أن جماعة من غير العرب كانوا ينتمون اليه بالولاء ، عرفنا منهم رجلا فارسياً يدعى « ابن الأجيد » (١) .

ومهما تكن شخصية قريب هذا ، فقد علمنا بأن له عدة اولاد من البنين والبنات ، منهم « عبد الملك » الذي اشتهر فيما بعد باسم الأصمعي ، ومنهم « عبد الله » الذي عرفناه بفضل ابنه « عبد الرحمن » احد طلاب عمه ورواة اخباره وصاحب كتاب « معاني الشعر » ومن بناته « أم أحمد » وابنها « أحمد بن حاتم الباهلي » المشهور بكنيته « ابي نصر » وهو احد طلاب خاله ورواة علمه وادبه ايضاً (٢) . . وكان قريب يكنى بأبي بكر ، ولا نعلم ان كان له ولد بهذا الاسم ، وربما كان له أولاد آخرون ، غير الذين ذكرناهم ، ولم تصلنا اساؤهم لخمول شخصياتهم وعدم ورود ذكرهم في الأخبار .

وليس في سير افراد هذه الأسرة ما يدلنا على نسب أم الأصمعي ، زوجة قريب ، ولا على اسمها . والظاهر انها باهلية ايضاً ، اذ كانت العادة الغالبة عند العرب التزاوج بين افراد القبيلة نفسها ؛ وقلما تحدث المصاهرات بين القبائل المختلفة لما يشترط في ذلك من شروط تكون في الغالب باهظة لا يستطيع الزوج تنفيذها إلا إذا كان ذا وفر من المال ؛ وقريب - كما نعلم - فقير من باهلة ، والعرب لا يرغبون في مصاهرة الباهليين

---

(١)
(٢) معجم الأدباء : ج٢ ص ٢٨٤ .

للأسباب التي ذكرناها آنفاً .. ثم ان اخبار صاحبنا « الأصمعي » ـ كما سنرى ـ تنبئنا بأنه كان لا يترك امراً من اسباب فخره ورفع مكانته عند الناس إلا حدثنا به ؛ فلو كانت امه من غير باهلة لشاد اذاً بذكر اخواله وتحدث عنهم وباهى خصومه بهم ؛ ولكنه لم يشر الى شيء من ذلك .

من هذا ، يصح القول بأن اسرة قريب كانت باهلية لحماً ودماً ، وأنها كانت ذات انفار عديدين ، وفي حالة أقرب الى الفقر منها الى الغنى .. وتدل الأخبار على ان بني اصمع تضخم عددهم خلال هذه الفترة التي نافت على المائة عام فتشعبوا الى اسر عديدة ، وبيوت كثيرة ، جمعت كلها في حي واحد سمي فيما بعد : « حي بني اصمع »(١) . ولكن السواد الأعظم منهم كان كادحاً مغموراً بين عامة الناس ، ولم ينبغ احد منهم في شأن من شؤون الحياة ، حتى ظهر « عبد الملك بن قريب الأصمعي » فنهض بهذا النسب ورفع اسمه الى مصاف الخالدين في سجل الحضارة الاسلامية .

مولد الأصمعي ونشأته

الأصمعي : هو « عبد الملك ، بن عاصم ـ الملقب بقريب ـ ، بن عبد الملك ، بن علي ، بن أصمع ، بن مُظَهِّر ، بن رياح ، بن عمرو ، بن عبد شمس ، بن اعيا ، بن سعد ، بن عبد ، بن علم ، بن قتيبة ، بن معن ابن مالك ، بن اعصر ، بن سعد ، بن قيس ، بن عيلان ، بن مضر ابن نزار ، بن معد ، بن عدنان »(٢) .

---

(١) كتاب « اخبار ابي نواس » لابن منظور : ج ١ ص ١٥ .

(٢) وجدنا في بعض المصادر اختلافاً في اسماء هذا النسب : « مظهر او مطهر » و « عبد شمس او عبد الله » و « علم او غنم » و « رياح او رباح » .. ولكن اكثر المصادر تؤيد ما ذكرناه .

ولد عام (١٢٣ ﻫ) الموافق لعام (٧٤١ م) في بيت متواضع وسط حي بني اصمع في البصرة ، فجاء كامل الجسم ، حسن الصحة ، واضح القسمات وإن لم يكن جميلاً ؛ فاحتضنته امه وأرضعته ثديها ، وربته كما يتربى امثاله من اطفال العامة ، في خرق رخيصة وثياب بسيطة وفراش معتاد ، وطعام مما يألفه سواد الناس مع شيء من الاقتصاد والتدبير .

ثم دب على الأرض في صحن بيته حافي القدمين إلا في ايام الشتاء الباردة ، يتخبط بين افراد الأسرة ويتنقل على اكتاف نساء البيت ، فلا يعتنى به إلا بمقدار . حتى إذا تماسك عوده خرج الى باب المنزل ، ثم ارتمى في زقاق الحي مع اترابه من صغار الجيران وأطفال بني اصمع الآخرين ، وصار يعبث معهم بالتراب ، ثم صار يغالبهم بالحصى ونوى التمر ، ويسابقهم عدواً ووثباً . ولما تفتقت أكمامه ، جعل يؤلف معهم العصابات الصبيانية ، ويقذف بالحجارة ، ويعاكس المارة ، ويهاتر اصحابه بالألفاظ البذيئة المبتذلة التى يلتقطها من سوقة الناس ؛ ويتمتم بالأغانى الشعبية مما يتغنى به صبايا الحي وخدام البيوت.. الى آخر ما هنالك مما حدثنا به اخيراً هو عن نفسه (١) .

والذي نستشفه من اخباره واوصافه فيما بعد ، انه كان في مراحل طفولته نشيط الحركة متدفق الحيوية خفيف الروح فصيح اللهجة طلق اللسان ، عذب الصوت سريع التقليد لمحدثيه ؛ يتذوق القصة ويصغي لها ويلتقطها بسهولة . وهو مع ذلك لبق في استرضاء ذويه وكسب مودتهم ، طموح لا يرضى بأن يكون في مؤخرة غيره من صغار الأسرة ، طماع لا يقنع بالقليل إذا وجد مجالاً للزيادة ، حريص على ما يملك فلا يخرج العطاء

---

(١) في بعض الأخبار التي رواها الأصمعي عن حياته نجد هذه الاوصاف والأعمال .

من يده إلا قليلاً [1] .

قضى ايام طفولته في حي بني اصمع ، ولم يخرج منه إلا بمقدار ما كان ابواه يصحبانه معهما في زياراتهما القصيرة لذويهما في جوانب المدينة ، او على بئر الحفير حيث منازل الأعراب من باهلة . فلما اكتملت صبوته وأقبل نحو عتبة الشباب ، رأيناه يبرز الى المجتمع البصري خطوة فخطوة مصحوباً بأقرانه من الفتيان . ثم وجدناه بجانب ابيه قريب يساعده ويعينه في بعض شؤونه المتعلقة بكسب العيش ، فيركب الحمير والأبل والخيل معه ، ويقطع المسافات القصيرة والبعيدة نحو سوق المربد وما جاوره ، وحتى الفيافي القريبة من البصرة .

والأصمعي واسطة اخوته ان لم يكن اصغرهم ، واخوه عبد الله اكبر منه سناً . ولما كان مولد ابيه قريب عام (٨٣ هـ) يكون الأصمعي قد ولد حين بلغ أبوه سن الأربعين . فلما تجاوز ادوار مراهقته وجده في العقد السادس من العمر ، وقد بدأ ضعف الشيخوخة يدب في مفاصله ، ولكنه وجد ان اخاه عبد الله قد سبقه الى معاونة ابيه هذا في اعماله ، فانضم هو اليهما دون ان ينصرف بكله الى السوق لما كان عنده من رغبة ملحة في طلب العلم وتحصيله .. ونحن لا نعلم تاريخ وفاة « قريب » ولكن الأخبار تدل انه عاش حتى رأى ابنه الأصمعي ناشئاً يتحدث في العلم والأدب والشعر ، فروى له بعض ما كان قد سمع من الأخبار وما رأى من الحوادث خلال حياته الطويلة [2] .

نستنتج من هذا بأنه نشأ وفي جانبه أب وأخ ـ او اخوة ـ يكفونه

---

(١) اخذنا هذه الأوصاف قياساً على اخلاقه وطباعه بعد ان شب وظهر في مجتمعه .

(٢) كثيراً ما يروي الأصمعي بعض الاخبار عن ابيه فيقول : « حدثني ابي » او « قال لي ابي » .

مُؤنة العيش ؛ فشب طليق الجناح صافي الفكر ، في وجهه مخايل الذكاء والفطنة ، وفيه حب الاستطلاع والميل الى معرفة كل ما يجهل ويسترعي اهتمامه . فلم يترك مجتمعاً عاماً الا ولجه وتفهم احواله ، ولا مؤتمراً بين الناس الا حضره او ساهم فيه ، ولا مهرجاناً في الأعياد والمواسم الا تفرج عليه او اشترك فيه جهد استطاعته ، ولا سمع ضجة الا قصدها ليعرف غاياتها ودوافعها . . فهو ابن المجتمع بحق ، وتلميذ نشيط من تلامذة الزمن (١) .

وكانت المجالات الاجتماعية امامه واسعة لكثرة الأسر الباهلية الساكنة في مدينة البصرة وفي المربد وعلى بئر الحفير ، وفيهم الأمير والثري والعالم والشاعر والراوية ؛ وجل هذه الاسر من معارف اسرته ، او أقربائها عدا الصلة القبلية ؛ لذلك لم يعدم في كل جانب من جوانب المدينة وضواحيها من صديق حميم او مدافع يلتجيء اليه اذا احس يوماً ما بخطر او ضرر يلاحقه.

وكان من اعز هذه البيوت واقربها الى نفسه بيت الأمير « سلم بن قتيبة الباهلي » الذي كان يرتاده بصحبة أبيه منذ الصغر . فلما ترعرع في صبوته المرحة ، وتجلت فيه معالم الفطنة وسرعة البديهة ، احبه الأمير « سلم » لدماثة خلقه ، ونهجه سبيل التقوى والأدب والعلم ، ففتح له ابواب قصره ، وفسح له المجال في معاشرة ابنائه والاختلاط بهم . ووجد الأصمعي في هذا البيت كل ما يستهويه ، من ترف ينسيه شظف العيش في منزله الفقير ، ومن حركة دائمة في المواكب والسلاح والجياد والصيد والغزو ، ومن مجلس يغص بالأدباء والعلماء والشعراء ورواة الأخبار والنوادر ، فأكثر من ارتياده ، وصادق أبناءه صداقة مليئة بالحب والوفاء والاحترام وكرامة النفس . وكان من أكثر من أحبه منهم « سعيد بن سلم » الذي

---

(٢) الكامل : ٨٧

دامت صلته به حتى النهاية .

هذه ناحية من نواحي حياة الأصمعي في صبوته واوائل شبابه ، وهي صورة يكتنفها الكثير من الغموض ، لأنه انصرف في النواحي الأخرى الى الدرس والتحصيل الذي استنفد جل اوقاته في صغره وشبابه وكهولته وحتى في شيخوخته .

دراسته وتحصيله

دخل « الكتاب » في السادسة من عمره على وجه التقريب كما هي العادة المتبعة عند سواد الناس في تعليم أولادهم .. والكتاتيب – يومئذ – كثيرة في جوامع البصرة التي يكاد لا يخلو حي من الأحياء منها . وهي مدارس قرآنية بدائية للأطفال ، يدير كلاً منها « شيخ واحد » يشترط فيه ان يكون تقياً من ذوي الأخلاق ، يجيد القراءة والكتابة وحسن الخط ، ويلم بفرائض الدين وسننه وإن لم يشترط فيه ان يكون ضليعاً بسائر العلوم .

وكان معظم ما يفيد الصغير من هذا الكتاب تعلم قراءة القرآن والكتابة وحسن الخط وأمور الدين الرئيسية ، وشيئاً من مبادىء اللغة والنحو ، وقليلاً من الشعر والأدب . ولم تكن هنالك كتب يقرؤها هؤلاء الأطفال غير نسخ من اجزاء القرآن مكتوبة بخط واضح ، وألواح تشبه الورق في يومنا هذا يستخدمونها للكتابة بواسطة اقلام من القصب وحبر يصنع من الفحم او ما يشبه الفحم . واما باقي الدروس فيتلقونها شفاهاً من الشيخ ويحفظونها منه على ظهر قلب .

ولم يكن الطفل عبد الملك بن قريب ، الذي عرف فيما بعد بالأصمعي ،

من صباح الوجوه بين اترابه إن لم يكن من اكثرهم دمامة وأبسطهم ثياباً ومظهراً . ولكنه كان في مقدمتهم ذكاءً وحفظاً للدروس واتقاناً لها ، فقد كانت الطبيعة وهبته حافظة لاقطة لا تنسى ، ورغبة شديدة في الدراسة والتحصيل . فبزّ اقرانه في القراءة والكتابة ، وختم القرآن قبلهم في سن مبكرة وحفظ جزءاً منه ، ثم مال الى قراءة الأدب البسيط وحفظ الأشعار السهلة والقصص التاريخية والدينية التي كانت تعطى لصغار الأطفال (١) .

حتى اذا استنفد ما يمكن تحصيله في الكتاب على يد شيخه ، وتفتق ذهنه ، ونشطت ذاكرته بعد اجتيازه الرابعة عشرة من عمره ، حمل اوراقه وأقلامه ودخل المسجد الجامع حيث يتفجر معين العلم الذي لا ينضب . ولكنه وقف امام هذا الخضم الفكري الواسع العميق حائراً ، وقفة من لا يحسن السباحة امام البحر ؛ فراح يتخبط في ساحله زمناً حتى بدأ يشعر بالقدرة على العوم . وهناك صار يتنقل بين حلقات العلماء فيه ويتردد الى هذا وذاك من كبار اساتذة اللغة والأدب ، مدوناً في ألواحه ما يتفهمه من كلمات في اللغة ، ومن قاعدة نحوية بسيطة ، او قطعة من الشعر الجزل الرقيق ، او تفسير لبعض آيات القرآن او الحديث ، الى آخر ذلك ، ثم يعود بما جمع في نهاره الى بيته فيردده ويستظهره .

وكانت رغبته الشديدة في الدرس والتحصيل تدفعه الى المواظبة والاستمرار على ارتياد المسجد دون انقطاع ، فيقضي معظم ساعات نهاره فيه ، كلما انتهت حلقة وصلها بالأخرى .. وما زال على هذا المنوال –

(١) يقول الأصمعي : حفظت اثني عشر الف ارجوزة قبل ان ابلغ الحلم . ويقول ايضاً : ما قرأت كتاباً واحتجت ان اعود فيه ، ولا دخل قلبي شيء وخرج منه .

يسمع ويجمع ويردد ويحفظ ، حتى نمت ملكته العلمية ، واتسعت ثروته اللغوية والأدبية ، وتوغل في النحو ، وحفظ الشعر الكثير ، فراح يناقش زملاءه في المسائل التي تعلمها واتقنها ، وصار يلقي على اساتذته الأسئلة تلو الأسئلة ، ثم يدون الأجوبة ويطلب المزيد من الشرح ، ويعرض على هذا الشيخ ما سمع من ذلك في حلقته باسلوب طريف ، ولباقة نادرة ، ولهجة عذبة تعجب سامعها ولا تستثيره في شيء [1] . فعرفه الصغير والكبير من رواد المسجد ، واعجبوا بذكائه وفطنته وحسن التفاتاته ؛ واحبه اساتذته فشجعوه ، وأوسعوا صدورهم لأسئلته وملاحظاته ، ولم يترفعوا عن مناقشته رغم صغر سنه ، ، مما زاده ذلك رغبة واسترسالاً في الدرس وطلب الفائدة ، حتى اصبح « مسجدياً » بكل معاني الكلمة ، فلم تفته نهاية بحث كان قد سمع اوله ، ولم يهمل مناقشة في قضية حتى ينتهي منها ، ولا رويت نادرة او نكتة في جو المسجد الا وصله خبرها فرواها أو علق عليها .

وكان من فوائد ملازمته المسجد على هذه الصورة ، ان عرف اي اساتذة الحلقات أعلى جناباً وأغزر علماً وأفضل رأياً من غيره ، وعرف اختصاص كل واحد منهم ومذاهبه في العلم والأدب والعقيدة فاختار من بينهم عدداً ، ولازم مجالسهم اعواماً طويلة بغير انقطاع ، امثال « ابي عمرو ابن العلاء » و « الخليل بن احمد الفراهيدي » و « يونس بن حبيب النحوي » وغيرهم ، وأخذ عن كل منهم ما اختص به من لغة او نحو او أدب ، ونمت بينه وبينهم على مدى الأيام صحبة وصداقة كانت العامل

---

(١) ابن خلكان : ج٢ ص ١٦ – يقول الخليل بن احمد : لا يعرف الانسان خطأ معلمه حتى يجالس غيره .

الأكبر في تثقيفه وتوجيهه .

ولما طالت صحبته للمسجد الجامع واتسعت ثروته العلمية والأدبية ، احس برغبة في ورود مناهل اللغة والأدب عند الأعراب انفسهم ، فجمع ألواحه مرة أخرى ومشى في اوقات فراغه يتنقل في منازل القبائل المجاورة للبصرة ، ويكتب ما عندهم من الفاظ غريبة ونوادر مجهولة وشعر لم يعرف بعد ولم تبتذل روايته ، ويدون أخبارهم وأقاصيص بطولات اسلافهم في الجاهلية والاسلام ، ويبحث عن انسابهم وافخاذهم ، ويحفظ لهجاتهم .. فعرفهم وعرفوه .

ثم صار يختلف الى سوق « المربد » بدفاتره وألواحه ، فيقف عند حلقة هذا الشاعر الفصيح من الأعراب الوافدين الى السوق فيدون قصائده واراجيزه ، ويمر بمجلس ذلك الراوية ويكتب ما يرويه من أخبار ونوادر وأمثال وحكم ، ويتعمد الوقوف في زوايا الخطباء والمتكلمين ليلتقط منهم الكلمات اللغوية الصعبة . . وكان ماهراً في تصيد علماء الأعراب وفصحائهم ؛ فيستوقفهم و يحادثهم ويأخذ ما عندهم ، وربما صادقهم وصاحبهم وجاء بهم الى البصرة لينزلهم ضيوفاً عند بعض الموسرين من معارفه ، ثم يجمعهم بزملائه من طلبة العلم ، فيعقدون المجالس و يثيرون معهم المناقشات ليستدروا ما عندهم من لغة وشعر وطرائف ونوادر وملح تصلح للمجالسة والمنادمة .

والحق ، ان الأصمعي كان من اكثر طلاب العلم تردداً على المربد وأشدهم شغفاً واتصالاً بالأعراب الوافدين اليه . ومن يتتبع رواياته التي حصل عليها في هذا السوق الأدبي ، يجدها كثيرة تدل على طول غشيانه له ؛ و بذلك عرفه المربديون واحداً واحداً ، واستخفوا ظله ، فاذا غاب سألوا عنه ، واذا حضر جاذبوه اطراف الحديث وقدموه الى الوافدين الجدد

من فصحاء الأعراب وخطبائهم وشعرائهم .

حتى إذا سبر غور هذا المجتمع العلمي والأدبي ، واقتطف معظم ثمراته الفكرية ، وقلّ غريبه عنده ، شد رحاله وتوغل في البوادي الشاسعة يبحث فيها عن شيء جديد . فلم يترك ارضاً في قلب الجزيرة العربية إلا وطئها براحلته ، ولا قبيلة يمكن الوصول اليها إلا نزلها ومكث فيها ، فجمع وأوعى ما عندها . ولم تخل اسفاره هذه من سهر ومتاعب وأمراض واغتراب ، حدثنا هو عن بعضها فقال : « نزلت في واد من اودية بني العنبر ، واذا فتية يريدون البصرة ، فأحببت صحبتهم ، وأقمت ليلتي تلك عليهم واني لوصب محموم ، فلما قاموا ليرحلوا أيقظوني فوجدوني عليلاً لا استطيع ان استمسك على راحلتي ، فحملوني ، وركب احدهم ورائي يمسكني . حتى إذا امعنوا في السير تنادوا : الا فتى يحدو بنا او ينشدنا ؟؟ فانبرى من بينهم حاد ينشد في جوف الليل بصوت ندٍ حزين ويقول :

لعمرك اني يوم بانوا فلم امت خفاتاً على آثارهم لصبور

(وهي قصيدة طويلة) . فلما اتمها سكنت عني الحمى ، ولم احس بها ، فقلت لرديفي : انزل الى راحلتك فإني مفيق متماسك ، جزاك الله وحسن الصحبة خيراً (١) » . ،

وقال ايضاً : « كنت نازلاً عند رجل من بني الصيداء ، وكان واسع الرحل كريم المحمل ، فأصبحت وقد عزمت على الرجوع الى العراق ، فأتيت ابا مثواي ، فقلت له : اني قد هلعت من الغربة ، واشتقت اهلي ، ولم افد من قدمتي هذه اليكم كبير علم ؛ وانما كنت احتمل وحشة

---

(١) الأمالي : ج ٢ ص ٢٦٧

الغربة وجفاء البادية للفائدة .. فأظهر الرجل توجعاً ، وركب ناقته وأردفني ، فما سرنا كبير مسير حتى لقينا شيخ على حمار ، له جمة قد ثغمها كالورس ، فكأنها قنبيطة ، وهو يترنم ، فسلم عليه صاحبي ، وسأله عن نسبه ، فاعترف اسدياً من بني ثعلبة ، فقال له : أتنشد ام تقول ؟؟ قال : كلاً . فنزلنا على ماء قريب ، وقال صاحبي له : تصدق على هذا الغريب بأبيات يعيهن عنك ويذكرك بهن . فقال : اي ، ها الله اذاً . ثم راح ينشدني مما عنده حتى اكتفيت ؛ فقمت والله وقد نسيت اهلي وهان عليّ طول الاغتراب وشظف العيش (١) » .

وللأصمعي روايات كثيرة من هذا اللون ، حدثنا بها عن اسفاره وتجواله في الصحارى النائية بحثاً عن اللغة والأدب ، وهي بكثرتها تدل على انه تعشق حياة البادية وألف عيشها ، وعرف مسالكها لطول ما ارتاد سهولها وحزونها ووهادها قاصداً القبائل في منازلها ومرابعها ومصايفها ، حتى اتقن لهجاتها وتعرف الى عاداتها ومشاكلها ، وصار صديقاً للكثير من ابياتها . فكان اذا قصد بعضهم رحبوا به وأضافوه ، وعرفوا الغاية من مجيئه اليهم ، فيبادرونه بتقديم ما عندهم من ادب ولغة وشعر قبل ان يتمدموا له الطعام والشراب .. وكان يقول : « العيش في البادية يفتق الأذهان ، ويقوم اللسان ويصقل ديباجة البيان » .

كل هذه الأسفار في جوانب الجزيرة العربية ، والتردد المستمر الى سوق المربد والزيارات المتعاقبة لمنازل الاعراب في ضواحي البصرة ، لم تقطع صلته كثيراً بالمسجد الجامع ، لأنه كان يوزع اوقاته بين هذا وتلك توزيعاً منظماً . فيحضر حلقات الدرس في اوقاتها عند اساتذته المختارين ، ثم

---

(١) الأمالي : ج ١ ص ١٧١ .

ينطلق في ايام العطل وساعات الفراغ الى حيث يريد من هـذه الموارد الغنية بالفائدة . فاذا عاد منها وفي ألواحه شيء مما جمع ، دخـل المسجد وعرض ما في يديه على شيوخه الكبار ليناقشهم فيه . . يقول : جئت الى « ابي عمرو بن العلاء » فقال لي : من اين اقبلت ؟؟ قلت : من المربد ، قال : هات ما معك ؛ فقرأت عليه ما كتبت في ألواحي ، فمرت به ستة احرف ـ اي قصائد ـ لم يعرفها ، فخرج يعدو في الدرجـــة ويقول : « لقد شمرت في الغريب » اي غلبتني (١) .

لا شك ان علماء اللغة ورواة الأدب والأخبار قبل الأصمعي قد سبقوه في سلوك هذه المناهج في سبيل الفائدة ، ووردوا المناهج التي وردهـا ، وغرفوا من نفس المعين الذي غرف هو منه ، ولكنه امتاز عنهم في أمور كثيرة لم يسبقه اليها أحد منهم ، وطرق ابواباً جديدة لم يطرقها غيره قبله . فهو مثلاً لم يكتف بالبحث عن المنتديات المعروفة التي يجتمع فيهـا العظماء والشعراء ، ولكنه يستوقف الرائح والغادي من الأعراب بلبـــاقة ساحرة وأسلوب شيق ؛ فإذا وجد عنده ما يفيده عصره بأسئلته المتتالية حتى ينزح ما في صدره كله كما تعتصر الثمرة الطيبـة . . يقول : رآني اعرابي وأنا اكتب كل ما يقول ، فقال : « كل شيء ؟؟ ما انت إلا الحفظة تكتب لفظ اللفظة » . . ويقول ايضاً : سألت اعرابياً واكثرت من إلقاء الأسئلة عليه فقال : « ما تدع شيئاً إلا نمصته » اي نتفته . . وفي رواية عنـه قال : مررت بجماعة من الأعراب وصرت اسألهم فقال احـدهم : « أنت حتف الكلمة الشرود (٢) . . » وقال ايضاً : رأيت في البادية صبية يتراجزون ،

---

(١) ابن خلـكان : ج٢ ص ٣٤٦ ـ الأمالي : ج ٣ ص ١٨٢ .

(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٦١ ـ السيرافي : ٦٦

فوقفت اسمعهم ، فمنعوني ، فتنحيت جانباً وصرت ادون اقوالهم ، فمر بي شيخ من ذلك الحي ، ورأى ما أصنع ، فقال : « اتكتب قول هؤلاء الاقزام الأدناع ؟؟ » ففرحت بكلمة « ادناع » ومعناها السفلة فدونتها [1] .

والأصمعي هو الوحيد الذي جعل مجتمع البصرة كله مدرسة له ، فـآلى على نفسه ان لا يلقي ألواحه من يده الا وقت الحاجة ، وراح ينتقل في جوانب المدينة وفي كل مكان يدون ويسجل الفائدة من اي مصـــدر جاءت ما دامت هي ذاتها فكرة ومعنى . فتراه يدخل السوق ويجلس في دكان بقال ليسمع ما يتحدث به الباعة والمشترون ؛ و يجتاز الازقة فيتحدث هنا مع كناس سمعه يغني بأبيات من الشعر ؛ ويقف هناك بجانب حمال يشتم تاجراً بعبارات ذات معنى طريف ، فيدونها ؛ و يصادفه متسول فيمد اليه يده طالباً منه حاجة ، فيقول له : ماذا تقول لو اعطيتك هذا الدرهم ، فيقول المتسول شيئاً يعجبه فيسجل كلامه و يحفظه ؛ ويمر بجبانة فيسمع بعض الثكالى يندبن امواتهن فيستتر وراء قبر او حائط ويسجـــل الشعر الذي يندبن به الموتى ؛ حتى الاطفال الصغار لم يفلتوا منه ، وربما وقف اليهم يسألهم عن العابهم واصطلاحاتهم فيها ، فان وجد عندهم ما يستحق الأخذ دونه ، وعدّ ذلك فائدة [2] .

ومن اطرف ما روى عن نفسه في هـذا البـاب ، قال : « مررت بدار الزبير بالبصرة ، فاذا بشيخ قديم من اهل المدينة من ولد الزبير يكنى « ابا ريحانة » جالس بالباب عليه شملة تستره ، فسلمت عليـه وجلست اليه ، فبينما انا كذلك اذ طلعت علينا سويداء تحمل قربة ، فلما نظر اليها

---

(١) امالي القالي : ج ١ ص ٤٠ .

(٢) للاصمعي روايات كثيرة من هذا النوع سيرد ذكرها في مكان آخر .

لم يتمالك ان قام اليها فقال : بالله غني صوتاً ، فقالت : ان موالي اعجلوني ؛ فقال : لا بد من ذلك ، فقالت : اما والقربة على كتفي فلا ؛ قال : فأنا احملها عنك ، فأخذ القربة منها ، فاندفعت تغني :

فؤادي اسير لا يفك ومهجتي   تفيض واحزاني عليك تطول
ولي مقلة قرحى لطول اشتياقها   اليـك واجفاني عليك هـمـول
فديتك ، اعدائي كثير وشقتي   بعيد واشياعي اليك قليـــل

فطرب الشيخ وصرخ صرخة وضرب بالقربة الى الارض فشقها ، فقامت الجارية تبكي ، وقالت : ما هذا بجزائي منك ، اسعفتك بحاجتك فعرضتني لما اكره من موالي ؟ قال : لا تغتمي فأن المصيبة علي حصلت ؛ ونزع شملته ، ووضع يداً من خلف ويداً من قدام ، وباع الشملة وابتـاع لها قربة جديدة ؛ وقعد بتلك الحال عرياناً ، فاجتاز به رجل يعرفه ، فرأى حاله فقال له : « يا أبا ريحانة ، احسبك من الذين قال الله تعالى فيهم ، « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » قال : لا والله ، ولكني من الذين قال الله تعالى فيهم : « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه » فضحك وأعطاه مالاً » (١) .

كان الأصمعي يفعل ذلك عندما يفرغ من دروسه في المسجد الجامع ، وفي الأوقات التي يقيمها في مدينة البصرة اثناء ملله من المربد ومنازل الأعراب والركوب إلى الصحراء . وكان يساعده في ذلك شبابه ونشاطه وظرفه وسرعة بديهته وحسن تخلصه من المآزق ، فاشتهر بين الناس بحرصه واقباله على الفائدة ، وعرفه الصغار والكبار ، والنساء والرجال ، والبدو والحضر من سكان البصرة ، وصار بعضهم يجمع له هـذه الفوائد ويحدثه بها حين يصادفه في

(١) زهر الآداب : ج ١ ص ١٥٩

الطريق وفي اي مكان كان ، ويدله على اماكن الفصحاء من الأعراب الذين يفدون البصرة في المناسبات .. يقول : « كنت اغشى بيوت الأعراب في البصرة اكتب عنهم حتى الفوني وعرفوا مرادي ، فانا يوماً أمر بعذاري البصرة ، قالت لي امرأة : يا أبا سعيد أنت ذلك الشيخ فان عنده حديثاً حسناً فاكتبه ان شئت ؛ قلت : احسن الله ارشادك ؛ فأتيت شيخاً هماً ، فسلمت عليه ، فقال : من انت ؟؟ قلت : انا عبد الملك الأصمعي ، قال : انت ذو يتتبع الاعراب فيكتب الفاظهم ؟؟ قلت : بلى ، وقد بلغني ان عندك حديثاً حسناً معجباً رائعاً ، واخبرني باسمك ونسبك ؛ قال : نعم ، انا حذيفة بن سوار العجلاني .. الى آخر القصة » [١] .

كان يجمع كل هذه اللقط في ألواحه حتى تتكدس بين يديه ، فيخصص لها شيئاً من وقته ثم يعمل على تنقيحها ؛ فان كانت لغة اخذ الفصيح الصحيح منها وشطب على الباقي ولو كان اضعاف ما اخذ ؛ وان كان شعراً بحث عن قائله والمناسبة التي قيل فيها ، وان كان خبراً حقق في صحته وتوثق من حقيقته قبل ان يدونه في دفاتره ، وهكذا يفعل بالأمثال والحكم والكلام المأثور ، حتى جمع في شبابه ما لم يجمعه غيره من اللغة الصحيحة والأدب الجزل ، وبلغت دفاتره عشرات الأسفاط والصناديق [٢] .

والغريب ان الأصمعي كان يحفظ جل ما يدونه في دفاتره هذه بفضل ذاكرته وحافظته الجبارة التي كانت لا تعجز عن حفظ القصيدة الطويلة بمجرد سماعها مرة واحدة .. كان يقول : « ما قرأت كتاباً قط فأحتاج

---

(١) المزهر : ج ٢ ص ١٩٦
(٢) الاغاني : ج ٢ ص ٦٨

الى ان اعود فيه ، ولا دخل قلبي شيء فخرج منه . » فلما سئل عن صحة دعواه هذه ، اثبت لهم صدق قوله بالفعل [١] .. وكان يقول ايضاً : « حفظت اثني عشر الف ارجوزة ، قبل ان ابلغ الحلم » [٢] ... ويقول احد معاصريه : « سمعت الأصمعي يحدث اصحابه عن محفوظاته ، ويقول : احفظ ستة عشر الف ارجوزة .. فقيل له : فيها البيتان والثلاثة ؟! قال : وفيها المئة والمئتان » [٣] . هذا عدا القصائد الطوال والقطع الشعرية القصيرة ، وغير الخطب والحكم والأقوال المأثورة والنوادر واللغة والأخبار .

بهذا النشاط الذهني الذي لم يقف عند حد ، والأدمان والجلد في طلب العلم والأدب ، و بتلك الحافظة اللاقطة النادرة المثال ، و بغير ذلك من المواهب ظهر نبوغ الأصمعي في شبابه بين طلاب المسجد ، فبدأت الأنظار ترمقه ، وراحت شهرته تنتشر في المجتمع البصري شيئاً فشيئاً ، وشعر اساتذته ومعارفه بأنهم أمام شاب سيكون له غداً مستقبل عظيم الشأن في المجال الفكري .

اساتذته

اساتذة الاصمعي كثيرون ، منهم من لازم حلقاتهم في مسجد البصرة خلال تحصيله العلم فيه ؛ ومنهم من تعرف بهم فأخذ عنهم أيام كهولته وأثناء تجواله وأسفاره .. ومتى علمنا بأنه لم ينقطع عن الدراسة حتى ادرك الشيخوخة ، وانه كان تلميذاً سياراً يتنقل باحثاً عن الفائدة ليجنيها حيث وجدها وعلى يد اي شخص ، سواء أكان في العراق أم في بوادي الجزيرة

---

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٦ ـ لهذا الكلام قصة سنوردها في مكان آخر .
(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ٣٤٤
(٣) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٦

أم في مدن الحجاز حين كان يقصد الحج ؛ متى علمنا ذلك ادركنا بأن من الصعب إحصاء جميع الذين افاد منهم بوجه عام .

وقد حدثنا هو عن بعض هؤلاء في أخبار متفرقة غير مجموعة من رواياته ؛ ونوهت كتب السير والأدب عن بعض آخر منهم ؛ وظل الباقي في طي الضياع والنسيان . . وبين هؤلاء الذين عرفناهم من كان الأصمعي قد لازم مجالسهم أعواماً طويلة في صباه وشبابه فكان لهم الأثر الأكبر في تعليمه وتوجيهه ؛ وبينهم من كان لقيهم في المناسبات فأخذ عنهم جانباً من اللغة ، او درس عليهم ديوان قبيلة او شاعر من الشعراء ، او قراءة من القراءات القرآنية السبع ؛ وآخرون مر بهم عابراً فأفاد منهم الشيء القليل .

كان اكبرهم اثراً في حياته العلمية ، وأقربهم الى نفسه ابو عمرو « زبان بن العلاء بن عمار التيمي المازني » احد مشيخة القراء السبعة ، ووجيه من اشراف العرب الممدوحين ، واستاذ جيل كامل من علماء البصرة وادبائها .. ألف كتباً ضخمة ملأت جانباً من بيته ؛ ثم تنسك وتزهد فأحرقها كلها في اواخر ايامه خوف الخطأ والاثم .

وكان شغوفاً باللغة والادب والأخبار . اخذ عن اعراب ثقات ادرك بعضهم الجاهلية والاسلام ، فجاءت رواياته صادقة ثابتة ، واعتبر من أجلّ الرواة ، كما كان من اقدر من فسر الشعر ، وأمهر من عرف معانيه وادرك خفاياه (١) .. يقول الاصمعي : « جلست اليه عشر حجج ، فما وجدته احتج ببيت اسلامي واحد ، خلا الشعر الجاهلي » (٢)

---

(١) ابن خلكان : ج ١ ص ١٣٦ .

(٢) البيان والتبيين : ج ١ ص ٢٥٦ – وفي رواية انه قال ثماني حجج .

والظاهر ان الاصمعي لازم حلقة استاذه هذا منذ خرج من (الكتّاب) ودخل المسجد ، فأحبه وأعجب به الى حد الافتنان ، ولم يفارقه حتى توفي عام (١٥٤ هـ) فبكى عليه واسف لفقده ، وصار يذكره بكل اجلال واحترام ، ويعتبر اقواله وآراءه حجة ما بعدها حجة .. ومن حقه ان يكون وفياً لاستاذه الجليل هذا ، وقد كان له في حياته موجهاً ومعلماً وصديقاً . وعنه اخذ الكثير من اللغة الصحيحة ، والأدب الرفيع ، والدقة في نقد الشعر وتفسيره وفهم دخائله . وعنه ايضاً اخذ قراءة القرآن المعروفة باسمه . (١)

ومن اساتذته الذين لازمهم في اوائل نشأته ايضاً « عيسى بن عمر الثقفي » وكان اماما في النحو واول من الف في هذا العلم ، وعنه اخذ « سيبويه » كتابه المعروف حتى اليوم باسمه ، لازم الاصمعي حلقته بضع سنين حتى توفي عام (١٤٩هـ) فأخذ عنه الكثير من النحو واللغة . وكان عيسى هذا يتقعر في كلامه ويستعمل الغريب من اللغة في حديثه حتى اشتهر بذلك ورويت عنه النوادر الكثيرة ؛ وكان صديقا لابي عمرو بن العلاء يجالسه ويأنس به ، ويتندر معه ، ولهما مناظرات طريفة في اللغة والادب والنحو ، روى الاصمعي الكثير منها ، لانه كان ـ بحكم اتصاله باستاذه ابي عمرو ـ يحضر مجلسهما ويسمع احاديثهما فيدونه ويفيد منه وهو في مقتبل العمر ، وقد تجاوز العشرين . (٢)

وكان « الخليل بن احمد الفراهيدي » سيد اهل الادب في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، واول من استخرج علم العروض الى الوجود ، واسبق العرب الى تدوين اللغة وتنسيق الفاظها على حروف المعجم

---

(١) الحيوان للدميري : ج ٢ ص ٢٨٨
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٣

في كتاب سماه « العين » . اخذ الاصمعي عنه اللغة والنحو ، وحاول ـ كما يقول بعض المؤرخين ـ ان يدرس عليه العروض ، ولكنه احجم عن ذلك لان الخليل وجده يتعثر في ادراك خفايا هذا العلم وقياساته فقال له : قطع لي هذا البيت :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

فأدرك الأصمعي قصده وترك درس العروض [١] ؛ ولكنه بقي يتردد الى حلقته ويسمع آراءه واجتهاداته .. والخليل من أجلّ اساتذة البصرة ورؤسائهم ، وقلّما نبغ في عصره عالم او اديب إلا اخذ عنه شيئاً مما يختص به ؛ وقد دامت حلقته في مسجد البصرة حتى عام (١٨٠ هـ) وهو عام وفاته ، مما يدل على انها عاصرت حلقة الأصمعي مدة اعوام طويلة [٢] .

وأما « يونس بن حبيب الضبي » المعروف بيونس النحوي ، فكان من أئمة نحاة البصرة ، ومرجع النحويين في المشكلات ، وقد اخذ عنه معظم اساتذة البصرة من معاصري الأصمعي ، وفيهم من لازم مجالسه عشرات السنين ، وهو من العلماء الذين يحضر حلقاتهم كبار اساتذة المسجد لعلمه وفضله . وقد عاش طويلاً ، وعمّر مائة سنة وتوفي عام (١٨٢ هـ) .. لازم الأصمعي حلقته طوال أيام دراسته وبعد ان اصبح استاذ حلقة هو ايضاً في المسجد ، وأخذ عنه النحو واللغة والأدب . وكان اكثر ما يعجب الأصمعي منه معرفته بالشعر ، وصواب نقده له ، وحسن التفاتاته نحو معانيه الدقيقة ؛ وقد حكى الكثير عنه في هذا المجال [٣] .

وكان « خلف بن حيان » المعروف بخلف الأحمر ، أو الراوية ،

---

(١) لنا رأي في هذه الرواية وسنتحدث عنها في مكان آخر .

(٢) شاد الأصمعي حلقته في مسجد البصرة حوالي عام ١٥٤ هجري .

(٣) معجم الأدباء : ج ٧ ص ٣١١ .

أشهر رواة الشعر على الاطلاق في عصره وفي العصور التي بعده ، وهو فارسي الأصل ، ولد في البصرة وعاش فيها ، وحفظ كلام العرب الجاهليين وأشعارهم حتى صار يقول الشعر ويجيده ، وينحله المتقدمين فلا يتميز من شعرهم لمشاكلة كلامه كلامهم . وكانت له قوة على تمييز الأشعار ومعرفة اصحابها منها ، لذلك كان اذا أراد أن يروي شعراً على لسان احدهم نظم ما يشبه شعر ذلك الشاعر سواء أكان جاهلياً أم متأخراً . وقيل : انه هو الذي نظم القصيدة الخالدة المشهورة « بلامية العرب » ومطلعها :

اقيموا بني امي صدور مطيكم فأني الى قوم سواكم لأميل

فملأها بغريب الألفاظ ونسبها الى الشاعر الجاهلي « الشنفرى » . كما صنع قصائد أخرى غيرها في غاية الجزالة ونسبها إلى شعراء آخرين ممن عرفوا بالجزالة في الشعر .

وكانت حلقة خلف في مسجد البصرة من امهات الحلقات ، يرتادها خلق كثير من هواة الأدب والشعر ليسمعوا آراءه وانشاده ورواياته للشعر الغريب النادر ، ويتمتعوا بظرفه ودعابته التي كانت تلازمه . احبه الأصمعي كثيراً ، ولازم حلقته باستمرار وبدون انقطاع منذ صغره ، ثم تمكنت بينهما على مدى الأيام صداقة دامت أكثر من ثلاثين عاماً حتى توفي خلف سنة (١٨٢ هـ) . والظاهر ان خلف الأحمر في حبه للأدب وروايته للشعر وتفسير معانيه ودقة التفاتاته فيه ونقده وتحليله ، كان نموذجاً مثالياً للأصمعي الذي سار فيما بعد على الخطة نفسها ثم وازاه فيها فاقترن اسماهما معاً في هذا المجال الأدبي .

والحق ان صداقة الأصمعي هذه لخلف كانت خير ما درت عليه الصداقات مع الآخرين ، فقد اخذ عنه الكثير جداً من الفوائد الأدبية ،

واشترك معه في دعاباته ومساجلاته مع الآخرين من ادباء عصرهما . وكان الأصمعي يحترم استاذه هذا ويكبر فيه مواهبه ؛ ولكنه لا يألف منه عادة انتحال الشعر ونسبته الى غيره والتصرف بأشعار الآخرين ، ويعد ذلك ضعفاً في الأمانة الأدبية ونقصاً في الرواية .. يقول : قرأت على خلف شعر جرير الخطفى وفيه هذا البيت :

فيا لك يوم خيره قبل شره تغيب واشيه واقصر عاذله

فقال خلف : ويله ، وما ينفعه خير يؤول الى شر ؟؟ قلت : وكيف كان يجب ان يقول ؟ قال : الأجود له لو يقول : « فيا لك يوماً خيره دون شره » ثم قال لي : اروه هكذا بعد اليوم [١] .

ومن هؤلاء الأساتذة الذين تأثر بهم الأصمعي في نشأته العلمية « شعبة ابن الحجاج » وكان من علماء البصرة النابهين وأحد شيوخ الحلقات الكبيرة في مسجدها . اخذ عنه اللغة والأدب ، ونمت بينهما صداقة ومودة واعجاب متبادل . ولهما مناظرات لغوية وأدبية حدثتنا عنها بعض الروايات ، وفيها ما يدل على اعجاب شعبة بتلميذه واعترافه له بحسن الرأي وصوابه ، حتى قال له يوماً : « لو فرغت للزمتك » اي لدرست عليك العلم [٢] .

وللأصمعي ـ غير من ذكرنا ـ اساتذة كثيرون من شيوخ البصرة وأصحاب الحلقات في مسجدها . وله مع كل منهم اخبار . ومن أشهر هؤلاء : « مؤرج بن عمر السدوسي » [٣] المعروف بتضلعه في اللغة والأدب ، و « محمد بن المستنير البصري » المعروف باسم « قطرب » [٤] . ومنهم

---

(١) ديوان المعارف : ج ١ ص ٣٥٣ .
(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٣٢ .
(٣) توفي مؤرج عام ١٩٥ هـ .
(٤) توفي قطرب عام ٢٠٦ هـ .

ايضاً « حماد بن سلمة » و « حمـــاد بن دريد » و « الأخفش » و « عبد الله بن عون المزني » و « قرة بن خالد » [1] . وأخـذ عن « يعقوب بن محمد بن طحلاء » و « مسعر بن كدام » و « سليمان بن المغيرة » وكل هؤلاء من افاضل علماء عصرهم ، وتاريخ كل منهم معروف في عالم الأدب واللغة والنحو .

وكان الأصمعي يتردد الى بلاد الحجاز بين مدة وأخرى لأداء فريضة الحج . وكان كلما وردها مكث فيها مدة وتنقل في مدنها الثلاث : مكة والمدينة والطائف ، والتقى بعلمائها ومحدثيها وادبائها ورواتها ، فيحضر حلقات بعضهم هناك ويأخذ عنهم ما يمكن اخـــذه ، ويجالس البعض الآخر ويصادقهم ؛ ويتبادل مع رواتها الأشعار فيجمع ما عندهم مما يروقه ويعطي البعض منهم مما عنده . والظاهر انه لكثرة ما ارتاد هذه الأرض المقدسة طوال حياته ، في فترات متقطعة طبعاً ، تعرف بسائر علمائها فعرفوه وألفهم كما ألفوه .

فكان ممن اخذ عنهم هناك ولازمهم « نافع بن عبد الرحمن بن نعيم » احد القراء السبعة و إمام اهل المدينة وعالمهم الذي صاروا الى قراءته ورجعوا الى اختياره ، لأنه من الطبقة الثالثة بعد النبي عليه السلام . وكان اصفهاني الأصل . اخذ عنه الأصمعي قراءته القرآنية المعروفة بقراءة « نافـــع » واختص بها [2] .

ولازم ايضاً الامام « مالك بن أنس » [3] صاحب المذهب المالكي ،

---

(١) تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١١ .

(٢) ابن خلكان : ج ٥ ص ٥ .

(٣) توفي مالك عام ١٧٩ هـ .

ونشأت بينهما مودة ، فأخذ الأصمعي عنه بعض الأحاديث ، وسمع منه كتابه « الموطأ » ، وأعطاه من عنده شيئاً من اللغة [1] .

ودرس ديوان الشاعر الجاهلي « الشنفرى » وشعر بني هذيل في مكة على الامام « محمد بن ادريس » صاحب المذهب الشافعي [2] . والظاهر انه درس ذلك في اواخر أيامه وهو مسن ، في حين كان استاذه الشافعي شاباً أصغر منه حسب تاريخ المولد [3] .

وكان من أقرب علماء الحجاز اليه واوثقهم صداقة معه « سفيان بن عيينة » [4] المحدث المشهور . جالسه الأصمعي كثيراً ، واخذ عنه بعض الأحاديث . وكان يزوره كلما قدم مكة ، و يتقرب اليه . فلما توفي حزن الأصمعي عليه ورثاه بقصيدة من الشعر سنذكرها في مكان آخر [5] .

وأما من تعرف بهم وأخذ عن بعضهم من علماء الكوفة فعديدون ، منهم « حماد بن ميسرة » المعروف بـ « حماد الراوية » ، اصله من الديلم ، وكان يتشطر ويصاحب الصعاليك واللصوص ، ثم طلب الشعر وأيام الناس ولغات العرب ، واختص بجمع الشعر وتفوق في نظمه فصار ينسب اشعاره الى غيره من الشعراء المتقدمين ، وامعن في ذلك حتى قيل : « انه افسد الأدب العربي في رواياته التي اخذها عنه اهل الكوفة » . قدم البصرة وتعرف به الأصمعي فلم يأخذ عنه شيئاً ، إذ كان قد اشتهر بكثرة افترائه على الشعراء [6] ، ولكنه اعجب بحسن التفاته الى معاني

---

(١) كتاب (المنتقى من اخبار الأصمعي) : ٢٧
(٢) المزهر : ج ١ ص ٩٧ .
(٣) كان مولد الشافعي عام ١٥٠ هـ .
(٤) توفي سفيان بن عيينة عام ١٩٨ هـ .
(٥) عيون الأخبار : ج ٢ ص ١٣٥.
(٦) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٤٤ .

الشعر ، وروى عنه شيئاً من ذلك .

ومن اساتذة الكوفة الذين قدموا البصرة وأخذوا النحو عن علمائها « علي بن حمزة الكسائي » ، ولا ندري إذا كان الأصمعي قد اخذ عنه شيئاً ، ولكننا نعلم بأنهما التقيا - فيما بعد - في بلاط هرون الرشيد وتناظرا مرات كثيرة هناك أمام الخليفة .

وقد ذكر بعض مؤرخي الأدب عدداً من فصحاء الأعراب الذين قدموا البصرة فأخذ عنهم الأصمعي بعض اللغة والأدب والأخبار (١) : منهم « ابو البيداء الرياحي » الذي عاش في البصرة طوال حياته . كان يتصل بطلاب العلم ويروي لهم غريب الشعر والكلام الفصيح . وكان يدرس الصبيان ويعلمهم بأجرة .

و « عمرو بن كركرة » ويكنى بأبي مالك النميري . كان يعلم في البادية ، ويورق في الحضر ، ويتردد على البصرة ، ويعطي ما يجمعه من القبائل الى طلاب الفوائد الأدبية لقاء اجر . وكان معيناً لا ينضب في النوادر والأخبار ، ويحفظ اللغة كلها على مذهب اهل البصرة . وله زميل آخر يدعى « ابا عرار العجلي » ، لا يقل عنه فصاحة وحفظاً للنوادر .

وللأصمعي صلة قوية مع (بني غني) يزورهم في البادية ويأخذ من فصحائهم ، ومنهم « ابا سوّار الغنوي » المعروف بنوادره وفصاحته ، وكان يزور البصرة فيأخذ عنه معظم طلاب الأدب .

و « شبل بن عرعرة الضبعي » ، سكن البصرة طويلاً ومات فيها ، وكان من الخوارج خطيباً فصيحاً عالماً اديباً ، ودرس عليه الكثير من اهل البصرة وأخذوا عنه .

---

(١) كتاب الفهرست لابن النديم - المعارف لابن قتيبة ، ابن خلكان وغيرهم .

و « جهم بن خلف المازني » ، صديق خلف الأحمر والأصمعي ، وأحد الذين يتنقلون في البوادي بين القبائل ، ويجمعون اللغة والشعر والأخبار ، ثم يعطونها للطلاب في مدينة البصرة . وكان بينه وبين خلف الأحمر والأصمعي مجالس ونوادر طريفة .

و « ابو محلم الشيباني » ، احد علماء الأعراب بالشعر واللغة ، وكان غليظ الطبع ، عجيب الهيئة ، يفخم ألفاظه إذا تحدث ، ويعرب في كلامه . وكان الطلاب يأنسون به ويتندرون معه دون ان يغضبوه ، وللأصمعي معه محاورات ومناقشات طريفة .

و « ابو مهدية » ، وكان من أظرف الأعراب وألذعهم نكتة ، عاشره الأصمعي زمناً طويلاً وصادقه ، واستعان بنوادره ضد الشعوبيين الذين خاصموه . وكان يستشهد بأقواله ليهاجم هؤلاء الخصوم . ولأبي مهدية نوادر كثيرة رواها صاحب العقد الفريد في فصل خاص ، وفيها ما يضحك ويسر .

و « الفقعسي » ، راوية بني اسد وصاحب مآثرهم واخبارهم ، وعنه اخذ الرواة مآثر هذه القبيلة .

و « ابو الدقيش » ، الخطيب المعروف بفصاحته ومواقفه الخطابية في سوق المربد ، حيث كان يجتمع طلاب العلم ويدونون اقواله وألفاظه .

وغير هؤلاء عدد كبير امثال : الشاعر الراجز المعروف بـ « البهدلي » ، وأبي طفيلة ، وأبي حيوة بن لقيط ، والحرمازي ، وربيعة البصري ، وآخرون امثالهم .

خصومه في مجتمعه

كان مولد الأصمعي ـ كما قلنا ـ في عام (١٢٣ هـ) اي في عهد

خلافة « هشام بن عبد الملك » ، يوم كانت الدولة الأموية متماسكة القوى في الظاهر . فلما دالت بتلك السرعة امام الثورة العباسية ، وسقطت البصرة في ايدي الثائرين ، كان الأصمعي قد خلع السنوات العشر الأولى من سني حياته . . فهو اذاً عاصر الدولتين ، ولمس الفارق بين عهديهما ، وواكب التطورات العاجلة والتقلبات المفاجئة في شتى نواحي حياة مجتمعه في فترة الحكم العباسي الأول ؛ وعاش في جو البصرة المحموم - يومئذ - بتياراته المتضاربة في المبادىء الحزبية السياسية ، والاعتقادات المذهبية ؛ وشاهد مولد الخلافات العنصرية بين الفرس والعرب ؛ واشترك كعضو اجتماعي عامل في ذلك الغليان المضطرب . ولكنه لم يكن من حملة السيف ، فلم يقاتل بالدم والحديد ، ، بل كان من اصحاب الرأي واللسان ، فناضل بهما ضد خصومه ، ودافع بقوتيهما عن آرائه ومعتقداته . . والصراع الفكري اوسع ميداناً من المعارك العسكرية ، واكثر جمعاً للأعوان ، والخصوم ايضاً ؛ وهو في الوقت نفسه احتكاك في الآراء ، والاحتكاك في الرأي يولد النظريات ويبعث على الدرس والبحث ، ويفيد الطرفين علماً ، ويزيدهما اطلاعاً وتثقيفاً .

كان صاحبنا - بحكم نشأته وبيئته - أموي الهوى ، سني المذهب ، ثم مال مع جماعته الى جانب العباسيين بعد زوال الحكم الأموي نهائياً ، وبقي بجانبهم عند اختصامهم مع ابناء عمهم العلويين ، وقد نشأ شديد التعصب لقوميته العربية فلم يعجبه رأي الشعوبيين في عنصره . وزاد في تعصبه تمادي هؤلاء بتهجمهم على العرب ؛ ولم يستطع البقاء على الحياد وهو يرى كثرة الموالي بين العلماء وطلاب الأدب من زملائه الذين انغمروا في الفكرة الشعوبية وحملوا لواءها في البصرة ، فانغمر هو ايضاً في الصراع

العنصري ضدهم ، وحاربهم بمثل السلاح الذي عندهم ، وقارعهم حجة بحجة ودليلاً بدليل ؛ ولم يضعف امام المناوشات الجانبية التي كان يشنها دعاة المذاهب الأخرى من المعتزلة والخوارج والشيعة ضد مذهب اهل السنة والجماعة الذي كان يدين به .

وكان ميدان هذا المعترك الفكري مدينة البصرة بأجمعها .. هناك ، في المسجد الجامع حيث ملتقى العلماء والأدباء والشعراء والطلاب على اختلاف عناصرهم ونزعاتهم ومذاهبهم ، وفي سوق المربد حيث يختلط اشتات الناس بالأعراب الفصحاء والخطباء والشعراء من سائر القبائل ، فتقام الاجتماعات وتلقى الأفكار وتحتك الآراء وتتعارض المبادىء . وفي مجالس الولاة وندوات الموسرين حيث يتناظر ارباب العلم والأدب ، فتبدو ميولهم ونزعاتهم صريحة على ألسنتهم ، في ثوب فكري قشيب .

وشاءت الصدف ان تخلق في هذا الجو الروحي الزاخر ثلاثة من نوابغ الشباب ، يتقاربون في الأعمار ، ويدرسون في مسجد واحد ، ويختصون - ثلاثتهم - باللغة والأدب والأخبار ، ويجمعون فوائدهم الفكرية من مصادر متشابهة ، ويبرزون الى المجتمع البصري في عنان واحد ، وهم : ابو زيد الأنصاري ، والأصمعي ، وأبو عبيدة . فشغلوا الناس في عصرهم ، وجمعوا اللغة العربية كلها ، ودونوا الأدب القديم الذي بين أيدينا اليوم .

عاش كل من هؤلاء ما ينوف على التسعين عاماً ، فاقترنت اسماؤهم ببعضها ، وصار طلاب العلم وهواة الأدب في البصرة وغيرها اذا ذكروا احد هؤلاء الثلاثة ذكروا صاحبيه معه ؛ واذا تحدثوا عن فضل احدهم قارنوه بفضل رفيقيه الآخرين . وما زلنا حتى الآن نقرأ آثار اقوال العلماء فيهم ، ومقارناتهم بينهم ، كقولهم مثلاً : « الأصمعي احفظ الناس ،

وأبو زيد أوثقهم ، وأبو عبيدة اجمعهم للعلم » وقولهم : « ابو زيد جمع علوم الناس وحفظها ، والأصمعي بلبل في قفص يطرب الناس ، وأبو عبيدة أديم طوي على علم » وقولهم : « ابو زيد أعلم من الأصمعي بالنحو ، والأصمعي أعلم من صاحبيه في اللغة ، وأبو عبيدة يفوقهما بالأخبار والأنساب » وقولهم : « الأصمعي يروي ثلث اللغة ، وأبو زيد يجيب في ثلثيها ، وأبو عبيدة في كلها »(١) .. الى آخر ما هنالك من آراء صدرت عن اناس تختلف اهواؤهم تجاه هؤلاء الثلاثة المعاصرين .

وكأن الظروف ابت إلا ان تخلق بينهم خلافاً في المبادىء والمذاهب والآراء ، لتضيفه الى تلك المنافسة الطبيعية بينهم على الفضل والمكانة العلمية بين الناس .. فكان ابو زيد عربياً يرى رأي القدرية في الاعتزال ؛ وكان ابو عبيدة فارسياً يتعصب للشعوبية ويدين بمذهب الخوارج ؛ بينما كان الأصمعي عربياً متعصباً لقوميته ، شديداً على الشعوبية ، ويذهب في عقيدته مذهب اهل السنة والجماعة . فلعبت هذه المنافسة الطويلة المدى والخلافات الروحية بين هؤلاء الزملاء ادواراً مهمة في جو البصرة العلمي ، ما زالت آثارها مدونة خالدة في كتب الأدب العربي .

كان التنافس والتحدي بين الأصمعي وابي زيد ضعيفاً بعكس ما كان بين الأصمعي وابي عبيدة اللذين بقيا طوال حياتهما في سجال مستمر لم تهدأ ثائرته .. وذلك لأن كلاً من ابي زيد والأصمعي عربي ، فلم يحدث بينهما ما يحدث عادة بين شعوبي متطرف وعربي متعصب ؛ ولأن كليهما مسالم مع من يسالمه ، صادق اللهجة في الحديث ، فلا يفتري على الغير اذا غضب ، ولا يبذىء في القول اذا استثير ؛ على ان أبا زيد كان اكثر

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٧ .

تجافياً عن الخصومات وأقل نشاطاً وحيوية من الأصمعي الذي لا يسالم من لج في خصومته ، ولا يلج في الخصومة مع من يسالمه ، لذلك كانت فترات السلم طويلة بين الرجلين مع احترام متبادل وشهادة طيبة لكل منهما في صاحبه . ولم يصل الخلاف المذهبي بهما إلى حالة التطرف والحدة ما عدا ابداء الرأي كما هو المألوف بين علماء المذاهب في ذلك العهد .. وكان ابو زيد اكبر من الأصمعي بعدة سنوات ، لذلك قيل : ان الأصمعي جاء يوماً الى حلقة ابي زيد فقبل رأسه وجلس بجانبه ، ثم قال له : انت رئيسنا واستاذنا منذ ثلاثين سنة (١) .

ولم تكن الحال كهذا بين ابي عبيدة « معمر بن المثنى » والأصمعي . فقد كان ابو عبيدة حفيد يهودي من اهل فارس ؛ وسخاً مدخول الدين مدخول النسب ، متهماً بميله للغلمان ، سليط اللسان مشاكساً جباهاً للناس بكل سوء ، فلا يتأثم من الافتراء على الغير ، وصنع الأخبار ، وحتى انتحال الأحاديث النبوية في سبيل الخصومة ، وقد قيل ان القضاة كانوا لا يقبلون شهادته لسوء خلقه (٢) .

ولكنه مع ذلك كان من علماء اللغة والأدب ، وفي طليعة رواة اخبار العرب وايامهم واحوالهم .. وكان يقول « ما التقى فارسان في الجاهلية او في الاسلام الا كان عندي خبرهما » . وله مؤلفات كثيرة تناهز المئة كتاب في اللغة والنسب والأخبار والأدب ، وقد ذكرت لنا بعض المصادر عشرات الأسماء منها .. وهو ـ على سوء خلقه ـ حاد الذكاء ، سريع الجواب ، لاذع النكتة ، ظريف المعشر اذا لم

---

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٨ .
(٢) ابن خلكان : ج ١ ص ١٢١ .

تتغلب عليه حدة الطبع .

كان هو والأصمعي على طرفي نقيض في العقيدة والمذهب والتطرف العنصري ، وفي الكثير من المواهب ايضاً ؛ فقد اوتي الأصمعي حظاً وافراً من وضوح البيان وحسن اللهجة وقوة الحجة ، وهدوء الطبع في المناقشة ؛ بعكس ابي عبيدة الذي كان ألثغ ، يلحن في كلامه ويكسر اوزان الشعر عند انشاده ؛ وبذلك قال ابو نواس : « كان طلاب العلم اذا جاؤوا مجلس الأصمعي اشتروا البعر في سوق الدر ، واذا اتوا مجلس ابي عبيدة اشتروا الدر في سوق البعر » (1) . وهذه شهادة واضحة من احد خصوم الاصمعي (2) تدل على قدرته في تنميق الكلام وتزيينه بحيث يصبح التافه منه حسناً في آذان سامعيه ، في حين كان ابو عبيدة يسيء الى غزارة علمه بسخف طريقته في الحديث ، وبلثغته ولحنه (3) .. واكثر من ذلك ان الأصمعي يتقن أخذ اللغة فلا يحفظ كلمة منها حتى يتعرف الى مدلولها ويشاهده إن كان مما يشاهد ، فإذا تحدث في اعضاء الأبل مثلاً عرف اماكن الأعضاء في جسمها وأشار اليه عند الضرورة ، خلاف ابي عبيدة الذي كان يعتمد على ذاكرته ويكتفي بما يحفظ (4) .. كل ذلك جعل الأصمعي في تفوق دائم على خصمه في المناظرات والمناقشات التي كانت تحتدم احياناً بينهما .

وأول ما قاد العداوة والخصومة بين الرجلين هو غلو ابي عبيدة بشعوبيته وكرهه للعرب وتظاهره بذلك . فكان يحفظ عيوبهم ، ويدون

---

(1) ابن خلكان : ج 2 ص 346 .
(2) كان ابو نواس يدرس على ابي عبيدة ويؤازره ويهجو الأصمعي .
(3) ابن خلكان : ج 1 ص 121 .
(4) ابن خلكان : ج 2 ص 347 .

مثالبهم ، ويجمع اشعارهم في هجاء بعضهم ، ويتهكم بسخرية لاذعة على ما يصادفه من نقص في بعض عاداتهم وأحوالهم حتى اسمائهم ؛ وقلما مُدحت قبيلة منهم أمامه إلا غضب وراح يعد لجلاسه مثالبها وينشد ما قيل من هجاء فيها ؛ ويؤلف في فضائل الفرس . فكان هذا يستثير الأصمعي ويدفعه الى مقابلته بالمثل دفاعاً عن عنصره العربي ، فعلقت الجفوة بين الشابين الزميلين ، ثم تطورت الى حرب كلامية وصراع بين فكرتين ، فقاد كل منهما معسكره ضد الآخر في مناوشات سلاحها العلم والفكر واللسان . يقول السيرافي : « كان ابو عبيدة والأصمعي يتقارصان ويقع كل منهما في صاحبه » (١) ..

بدأت المناوشات بينهما وهما تلميذان في المسجد الجامع . فكان الذي يغيظ ابا عبيدة من صاحبه تفاخره بعنصره ومباهاته بأمجاد العرب وذكرهم بكل ما يزينهم ، وتحدثه بإعجاب عن الأبطال الذين نبغوا في التاريخ من بني باهلة ؛ ثم هو يذكر اباه قريب بكل تجلة واحترام ، وينسب بعض الروايات اليه . فيثور ابو عبيدة لذلك ويقذف باهلة بكل نقيصة ومثلبة ، ويشتم قريباً ويقسم بأنه كان نذلاً من الرجال . فيسمع الأصمعي بما يقوله خصمه هذا ، فيقابله بالمثل احياناً ؛ فاذا ذكره في كلامه دعاه بـ « ابن الصباغ » نسبة الى مهنة ابيه ، وإذا غضب دعاه بـ « ابن اليهودي » نسبة الى جده الذي كان يهودياً .

فلما اكتهلا ، وتبوأ كل منهما مكانته العلمية انقسم طلاب العلم بينهما الى جبهتين : شعوبية يقودها ابو عبيدة ، وعربية يمثلها الأصمعي ويدير دفتها . واستمر الصراع الفكري بين الطرفين زمناً طويلاً ، فقال كل منهما

---

(١) السيرافي : ٦٩ .

بخصمه من الطرائف والنوادر الأدبيـــة ما أضحك الناس في ذلك الزمن وأعجبهم ؛ ولا يزال يضحك قراء العربية ويعجبهم حتى يومنا هذا . ولم تهدأ ثائرة هذا السجال بين الرجلين حتى بلغ كلاهما الجانب البعيـد من الشيخوخة ، فتزهد الأصمعي وتورع وبقي صاحبه على ســوء خلقه كما يقولون [١] .

وفيما يأتي ألوان من تلك الطرائف المتبادلة :

قيل لأبي عبيدة : ان الأصمعي يتحدث عن ابيه ويقول : « بينـا ابي يساير الأمير سلم بن قتيبة على فرس له . . » فصاح ابو عبيدة مستنكراً وقال : « سبحان الله ، والله اكبر . . المتشبـع بما لم يؤت كلابس ثوبي زور . والله ما ملك ابو الأصمعي قط دابة ، ولا حمل الا على ثوبه » [٢] .

وقيل له مرة : ان الأصمعي يدعي في نسبه الى باهله . فأظهر تعجبه ، متجاهلاً هذا النسب ، وقال : « هذا لا يكون قطعاً !! » قالوا : ولماذا ؟؟ قال : « لأن الناس اذا كانوا من باهلة تبرأوا منها ، فـكيف يأتي من ليس منها وينتسب اليها » [٣] ؟؟

ويقول الأصمعي : دخلنا انا وابو عبيدة الى المسجد يوماً ، فوجـدنا على الاسطوانة التي يجلس اليها ابو عبيدة بيتاً من الشعر مكتوباً في نحو سبعة أذرع :

صلى الإلـه على لوط وشيعته   ابا عبيـدة قل بالله آمينـا

فقرأ ذلك ابو عبيدة ، فاستشاط غضباً ، وقال لي : يا اصمعي ، استر على ما رأيت ، وساعدني بمحو هذا قبـل ان يقرأه الناس . فركبت على

---

(١) كتاب المعارف : ٢١٧ .
(٢) السيرافي : ٦٩ .
(٣) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٨ .

ظهره ، وصرت أمحو الكتابة شيئاً فشيئاً حتى اثقلته . فقال : ويحك ، اثقلتني وقطعت ظهري ، فهل انهيت ؟؟ قلت : بقيت كلمة « لوط » ، قال : هي والله شر كلمات هذا البيت ، وما اظنك صنعت شيئاً حتى الآن [١] .

وقيل لأبي عبيدة : كان الأصمعي اليوم يتحدث عن ابطال « باهلة » في الجاهلية والاسلام ، فغضب ابو عبيدة وقال : « رأيت في بعض المجاميع ان الأشعث بن قيس الكندي قال للنبي (ص) : أتتكافأ دماؤنا يا رسول الله ؟؟ قال النبي : نعم ، ولو قتلت رجلاً من باهلة لقتلتك [٢] » .

ويقول ابو عبيدة ، متندراً على العرب : قال لي « ابو الدهماء » الأعرابي : علمتَ بأن (الأعراب) و (الأغراب) هجاهما واحد ؟؟ — اي عدد حروفهما مع حركاتهما — قلت : نعم ، قال : فاقرأ « الأعراب اشد كفراً ونفاقاً » ولا تقرأ « الأغراب اشد .. » ولا يغرنك الأعرابي وان صام وصلى .

فيجيبه الأصمعي بنادرة مثلها ويقول : « سألت ابا النشناش الأعرابي : أكنتم تتوضأون بالبادية ؟؟ قال : نعم والله كنا نتوضأ ، وكانت الوضوءة تكفي الواحد منا اياماً عديدة ، حتى جاءتنا هذه الحمراء — اي الموالي من الفرس — وجعلت تليق أستاهها كما تلاق الدواة ، فصارت الوضوءة لا تكفي واحدنا اكثر من صلاة واحدة » .

ويقول ابو عبيدة — ساخراً من اسماء العرب — : سألني احدهم عن

(١) ابن خلكان : ج — ص ٣٢٨ — الذي كتب البيت هو الشاعر ابو نواس

(٢) ابن خلكان : ج ٣ ص ٢٥٢ — اثر الانتحال في هذا الحديث ظاهر . لأن النبي «ص» كان لا يزدري بأحد من المسلمين ، ولا يفرق بينهم في المنزلة ؛ فكيف يقول ذلك وفي صحابته عدد من الباهليين ، وفيهم من بايعه تحت الشجرة ؟؟ مع العلم بأن نسب الباهليين يتصل بنسبه في (مضر) .

شخص فلم أعرفه ، فقال « كيسان » ـ وكان ممروراً ـ : انا اعرف الناس به : هو « خراش ، او خداش ، او قرواش ، او رياش » او شيء من هذا ؛ فقلت : ما احسن ما عرفته ؟! قال ؛ اي والله ، وهو قرشي ايضاً !! قلت : وما ادراك ؟؟ قال : اما ترى كيف احتوشته الشينات من كل جانب (١) ؟؟

فيقول الأصمعي : سألت ابا مهدية الأعرابي : اتقرأ شيئاً من كتاب الله ؟؟ قال : نعم ، قلت : إقرأ سورة والضحى ، فافتتح يقرأ « والضحى والليل اذا سجا . . » حتى انتهى الى « . . ووجدك ضالاً فهدى » فسكت ولم يقرأها ، وقال : ان هؤلاء العلوج ـ اي الموالي الفرس ـ يقولون « فوجدك ضالاً . . » وانا والله لا اقولها ابداً (٢) .

كان الناس في البصرة يتشوقون الى سماع هذا النوع من الأدب في الخصومة والمماحكة بين هذين النابغين ، وربما تعمد بعض سراة البصريين جمعهما في مجلس واحد دون ان يعلم احدهما بحضور الآخر . فكان ابو عبيدة اذا رأى الأصمعي يتدفق بحديثه ونوادره ، ويتقلب من لون في الأدب الى لون آخر ، اعترته الحدة في اعصابه وراح يعرض بالأصمعي ويخطئه ؛ فيجد الأصمعي في ذلك مجالاً لمناقشته ومناظرته ، فيتعمد استثارته وإغضابه قبل المناظرة ، ثم يناظره فيغلبه ويكسفه ، ويتركه غير ملتفت الى سلاطة لسانه وبذاءته عند الغضب لأن الناس قد عرفوا ذلك فيه (٣) . وقد قيل إن الأصمعي اذا اغضب ابا عبيدة امتنع عن الدخول الى المسجد الجامع اثناء

---

(١) ابن خلكان : ج ٤ ص ٣٢٩ .

(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ٣١٨ .

(٣) ابن خلكان : ج ٤ ص ٣٢٩ ـ كان ابو عبيدة لا يسلم احد من لسانه ، فلما مات لم يخرج احداً من اهل البصرة في جنازته لأنه لم يترك احداً منهم الا نال منه .

وجوده فيه ، ويقول لأصحابه : انظروا هل هو هنا ؟؟ خوفاً من مجابهته له امام الناس (١) .

ولم يبتل الأصمعي بهذا الخصم العنيد وحده ، ولكن عدداً كبيراً من الشعوبيين كانوا يؤازرون أبا عبيدة ويعينونه عليه وفيهم الأديب والشاعر والراوية ؛ فلم يتركوا في الأصمعي مطعناً إلا اصابوه منه ؛ فهاجموا شخصه وشنعوا به ، واختلقوا القصص للنيل من أبيه ومن قبيلته ومن العرب اجمعين .. سمعوه مرة يقول : « حدثني ابي .. » فأغاظهم ذلك ، وصنعوا هذه القصة على ابيه فقالوا :

« جاء – عطاء الملك – بجماعة من اهل البصرة الى ابي الأصمعي ، فوجدوه ملتفاً بكسائه ، نائماً في الشمس ، فوكزه (عطاء) برجله ، وقال : قم ويلك يا قريب ، هل لقيت احداً من اهل العلم قط او من الفقهاء او المحدثين او الأعراب او اهل اللغة ؟؟ قال لا والله . فالتفت (عطاء) الى من معه وقال لهم : هذا هو ابو الأصمعي ، فاشهدوا عليه وعلى ما سمعتم منه ، لا يقل لكم ابنه غداً : « حدثني ابي .. وقال ابي .. » (٢)

وسمعوه مرة اخرى يقول : « قال ابن الأجْـيَد مولى أبي .. » فلم يرق لهم قوله ، ولم يستطيعوا تكذيبه لوجود هذا المولى حقيقة بينهم ، فاختلقوا هذه النادرة الطريفة وأشاعوها بين الأدباء ، فقالوا :

« لقي اعرابي رجلاً ، فسأله عن نسبه ، فقال : من باهلة ، فرثى له

---

(١) ابن خلكان : ج ٤ ص ٣٢٨ – طبقات الادباء : ج ٧ ص ١٦٨ .

(٢) السيرافي : ٦٩ .

الأعرابي ، فقال الرجل : وأزيدك اني لست من صميمهم ولكن من مواليهم ؛ فأقبل الأعرابي على الرجل يلثم يديه ورجليه ؛ فبهت الرجل وقال له : لم هـذا كله ؟؟ قال : لأن الله تعالى ما ابتلاك بهـذه الرزية في الدنيا إلا ليجعلك من اهل الجنة في الآخرة » [١] .

وهكذا لم يترك الشعوبيون طريقاً الى الأصمعي إلا سلكوه للنيل منه ، كما كان هو لا يترك فرصة تمر إلا تصيدها لأجـل الاشادة بأمجاد العرب ومكارمهم ، والتحدث عن ابيه وقبيلته ورفع مكانتهما ، والكيل للشعوبيين ورد اقوالهم ومفترياتهم ، كقوله مثلاً : « خالجني الشك في كلمة ـ استخذى ـ أهي مهموزة ام غير مهموزة ، فقلت لأحد الأعراب : أتقول : استخذيت ام استخذأت ؟؟ قال : لا اقولها ، قلت : ولم ؟؟ قال : ان العرب لا تستخذي » [٢] .

ويقول ايضاً من باب الحكمة : : « ثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى تعرفهم : رجل يناقش في القدر على قارعة الطريق ، ورجل تشتم من فمه رائحة الخمرة ، ورجل يتكلم بالفارسية في بلد عربي .. » وأمثال هذا كثير .

بقي الأصمعي طوال شبابه وشطراً من كهولته يقارع هؤلاء الشعوبيين ويصد هجماتهم على عنصره وقبيلته وأسرته ، فيتصيد زعماءهم في المجالس والمنتديات ويحاججهم ويناظرهم ويستعين بكل ما أوتي من علم وموهبة ولباقة فيهزمهم . بالحق وبالباطل اذا استطاع ، كما فعل بالنحوي المشهور « عمرو ابن عثمان » المعروف « بسيبويه » الفارسي الأصل حين ناظره في المسجد امام الجماهير فهزمه ببيانه وكان الحق مع خصمه [٣] . فلما كبرت مكانته

(١) ابن خلكان : ج ٤ ص ٣٢٧ .
(٢) الكامل : ٢٢٤ .
(٣) معجم الادباء : ج٢ ص ٢٨١ ـ وابن خلـكان : ج ٢ ص ٣٤٩ ـ توفي سيبويه عام ١٨٢ هجري .

العلمية بين الناس ، و كثر طلابه ومؤازروه ترك هذا النوع من السلاح الى طلابه لمواجهة الشعوبيين الذين كانوا قد كثروا ايضاً وتألبوا على شخصه وسمعته دون فائدة . . وكان من اشد من ناصبه العداء في كبره الشاعر ابو نواس « الحسن بن هانىء » الذي هجاه وهجا العرب بقصائد كثيرة واعان استاذه ابا عبيدة عليه ، وصار ينال منه بلسانه في كل مناسبة . ولكن الأصمعي لم يلتفت اليه ولم يعبأ بأقواله فيه ، ويقول : « غلام فارسي خليع نظم الشعر وهجا العرب » (١) .

وما دمنا في بحث خصوم الأصمعي فلا بد من ان نذكر اثنين من علماء عصره ناصباه العداء ايضاً ، وتركا أثراً فيه لا يزال باقياً حتى الآن ؛ وهما « يحيى بن المبارك » المعروف بأبي محمد اليزيدي ، و « محمد بن زياد » المعروف بابن الأعرابي :

كان يحيى بن المبارك هذا زميلاً للأصمعي في حلقة « أبي عمرو بن العلاء » فنبغ في اللغة والنحو والأدب وصار استاذ حلقة في مسجد البصرة ، ثم انتخب معلماً لأولاد هارون الرشيد وفيهم الأمين والمأمون . وكان « خلف الأحمر » يكرهه ويزدري به وينظم فيه الأشعار ، متهماً اياه بميله للغلمان . وكان الأصمعي بحكم صداقته لخلف وصلته القوية به يؤيده على يحيى ويروي أشعاره فيه ، ويعلق عليها بنوادر فكرية طريفة ، فنشبت بينه و بين يحيى خصومة ايضاً ودامت بعد وفاة خلف . وصار يحيى يتقول على الأصمعي و يذمه ، ثم هجاه فقال :

---

(١) ابن منظور (اخبار ابي نؤاس) : ١٧ .

ألا هَبَلت كلٌّ من ينتمي　　الى باهل أمُّه الهابله
فكيف اذا كان ذا دعوة　　وكفة نسبته شائله
أبن لي دعيّ بني اصمع　　متى كنت في الأسرة الفاضله
ومن انت ؟ ما انت الا امرؤ　　اذا صح اصلك من باهله
وللباهلي على خبزه　　كتاب : لآكله الآكله [1]

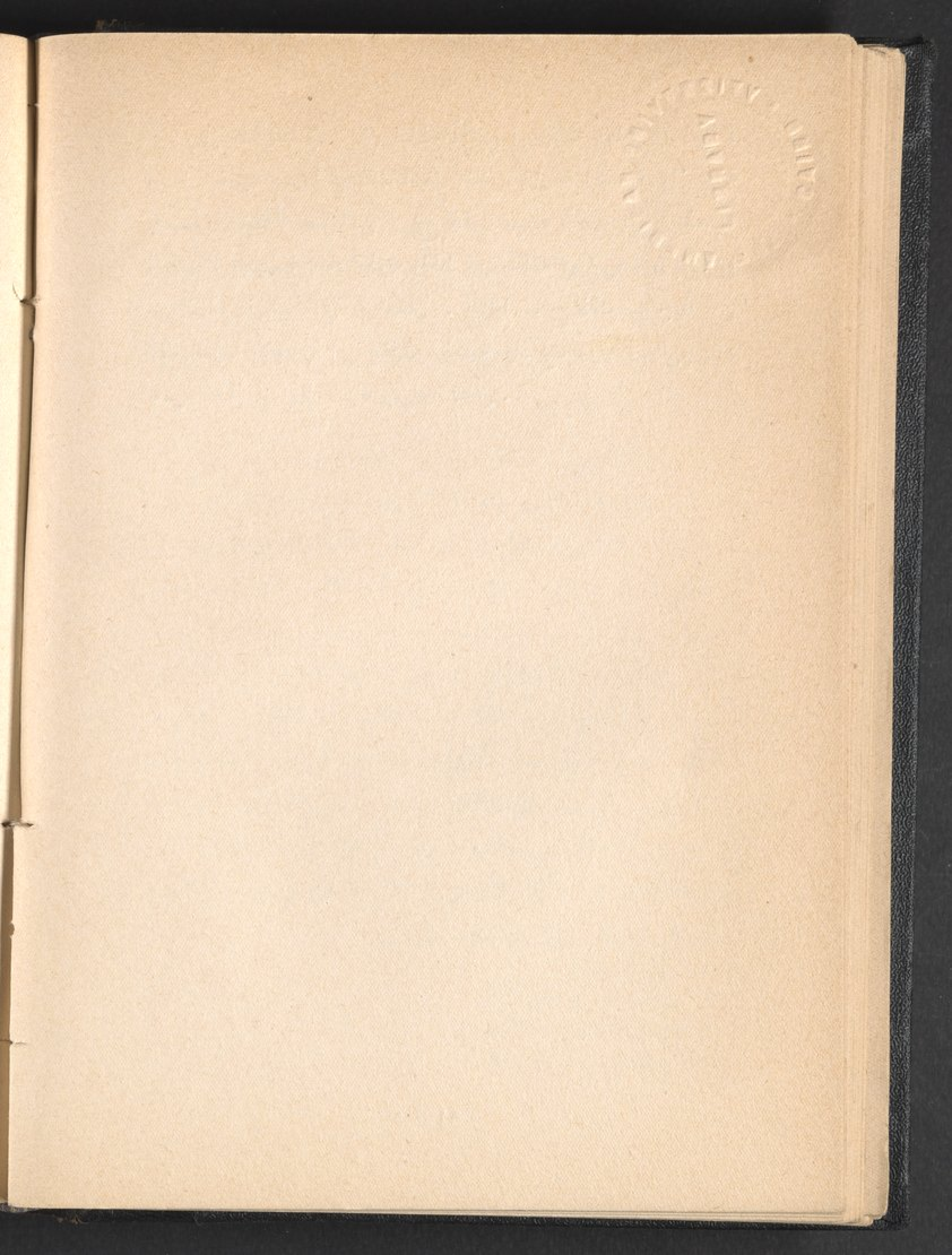
واستمر هذا العداء بين الاثنين طويلاً ولعب دوراً خطيراً في بلاط الرشيد كما سنرى ذلك بعد .

وأما ابن الأعرابي ، فكان من علماء الكوفة النابغين في اللغة والأدب ، أسود اللون ، أدرك الأصمعي متأخراً [2] . وقد اختلفت الروايات في سبب كرهه وعدائه للأصمعي . فقيل انه قدم البصرة فاختاره الأمير « سعيد بن سلم الباهلي » معلماً لأولاده ؛ وفي ذات يوم قدم الأصمعي عند سعيد فسمع احد اولاده يقرأ بيتاً من الشعر ويلحن فيه لحناً واضحاً ، فسأله عن السبب فقال : هكذا علمنا الأستاذ ابن الأعرابي ؛ فدعا الأصمعي ابن الأعرابي وناقشه في ذلك اللحن فوجد الخطأ منه ، فالتفت الى الأمير سعيد وقال : هذا لا يصلح ان يكون معلماً لأولادك ، فنحاه سعيد عنهم ؛ فثارت ثائرة ابن الأعرابي وراح يشنع على الأصمعي ويتهمه بالجهل والكذب ، ويحلف بأنه سمع من ألف اعرابي خلاف ما رواه الأصمعي في بعض اللغة [3] .. وفي رواية اخرى ان ابن الأعرابي لم يقابل الأصمعي في يوم من الأيام ، ولكنه ناصبه العداء حسداً منه لعلمه وفضله .

---

(١) ابن خلكان : ج ٥ ص ٢٣٦ .
(٢) توفي ابن الأعرابي عام ٢٣١ هـ .
(٣) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٨ .

وعلى هذا فاننا نجد ان نشاط الأصمعي في مجتمعه العلمي والأدبي ، وبروز شخصيته بسرعة في ذلك الخضم الزاخر بتياراته الفكرية والمذهبية والعنصرية ، خلقا له خصوماً من كل نوع فذهب خصومه بالافتراء عليه كل مذهب؛ ولكنهم لم يستطيعوا إخماد جذوته والحط من مكانته في شيء ، وربما كانوا من العوامل في شهرته في كل مكان . وكانوا - مع ذلك - جزءاً من تلك المدرسة الاجتماعية التي صقلت شخصيته واذكت نبوغه ؛ واليهم يعود بعض الفضل في ابراز قابلياته ومواهبه للناس .



القسم الثاني

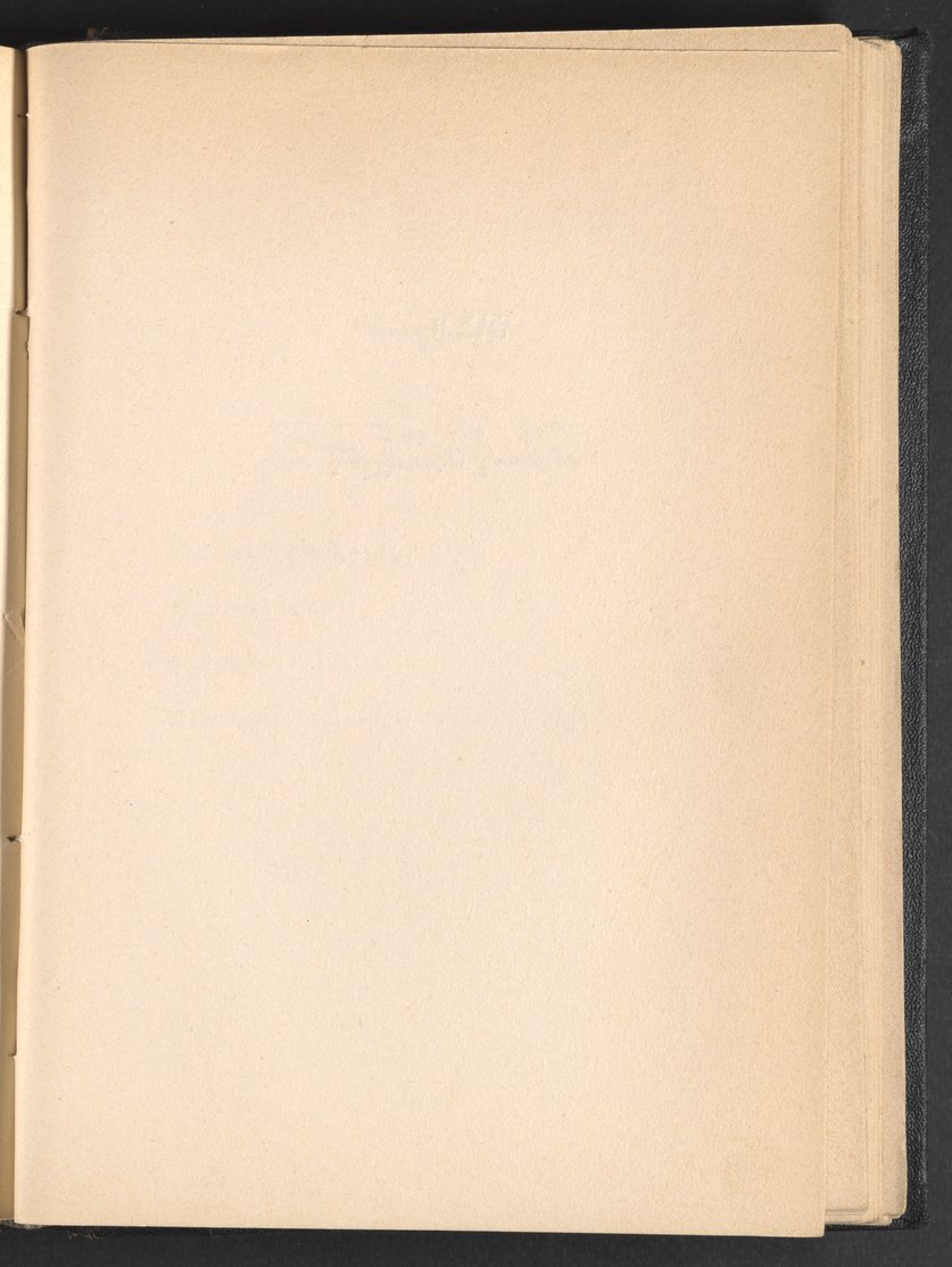
شخصيته وأخلاقه

١ ـ دمامته واهماله ، وفتور غريزته

٢ ـ بخله وحرصه

٣ ـ ظرفه وخفة روحه

٤ ـ تدينه ، وصدق لهجته



دمامته واهماله ، وفتور غريزته

جاء في الأخبار انه كان دميم الخلقة ، تافه الهيئة والمظهر . اهداه احد الأمراء جارية ففزعت منه ونفرت عنه وبكت لمصيرها معه ؛ وهجاه بعض خصومه فوصفه بالقرد ، وفضل القرد في صورته عليه . وغالت بعض الروايات في وصف دمامته مما يدل على انها كانت من صنع مبغضيه وشانئيه (١) . غير ان الذي نتصوره من خلال سيرته وتاريخ حياته هو ان سحنته كانت اقرب الى الدمامة منها الى الصباحة والجمال ؛ ولكنها دمامة غير مشوهة ، في قسمات لا تمجها الأعين كما لا تصبو اليها الانظار . . ربع القامة ، لا بالطويل الممشوق ، ولا بالقصير البادن ؛ اسمر البشرة كمن لفحته شمس الصحراء ، في جبهة عريضة واسعة بارزة ، وعينين سوداوين صغيرتين تشعان ذكاءً وفطنة ، ركبتا فوق انف استدق اعلاه وعرضت ارنبته ، وفم اشدق مليء الشفتين على ذقن رفيع النهاية ، احتفت به لحية خفيفة سوداء ، رق عارضاها وطالت نهايتها بمقدار ما تستوعب قبضة الكف ، سيراً على قاعدة السنة (٢) .

قيل : ان اهله ومعارفه كانوا يكنونه في صغره « ابا القندين » لكبر خصيتيه (٣) ـ والقند في اللغة نوع من السكر يستخرج من التمر ويجعل على شكل كرات ـ ، وعرف في كبره بكنيته « ابي سعيد » .

كان على دمامة صورته هذه مهملاً لمظهره الخارجي الى حد بعيد ، غير

---

(١) لو كان الأصمعي من البشاعة بالشكل الذي يصفه به خصومه لما استطاع ان يكون نديماً للرشيد وجليساً مقرباً عنده . ولكان هذا خلاف ما يشترط في منادمة الخلفاء في ذلك العهد ، كما هو معلوم .

(٢) كتاب المعارف : ١٨٤ .

(٣) الدميري : ج ٢ ص ٢٨٢ .

ملتفت الى لباسه الا بمقدار ما تقتضيه النظافة والطهارة للصلاة والعبادة ؛ مكتفياً بعمامة بيضاء يلوثها على رأسه لوثاً بغير اعتناء ، وجبة بسيطة سوداء تخفي تحتها ثياباً من النسيج الأبيض الرخيص ، وفي قدميه نعال من الجلد مخصوفة بقطع رقيقة من الحديد خوف الاستهلاك السريع .

عاش الاصمعي في هذا الاهمال لمظهره ولباسه ، وقلما عني بشد عمته او تسريح لحيته الا في زياراته للشخصيات المهمة او حين يختلف الى مجالس الموسرين . وهو مع ذلك يرى التجمل في الزي واللباس شيئاً لا قيمة له ، بل من سفاسف الأمور وعقيمها بالنسبة الى ما يجب ان يتحلى به المرء في الحياة من زينة علمية وثراء ادبي يقدمه في المجتمعات ويرفعه الى مصاف الخالدين .. وكان يسخر من هؤلاء الذين أفلسوا من العلم والأدب ، فانصرفوا الى تجميل مظهرهم وتزويق هيئاتهم وابداء محاسن وجوههم معتمدين على الثراء والنسب والطبيعة ؛ ويقول ؛ « ان الرجل قد تصيبه النائبة فيستعير من صديقه او قريبه ثوباً يلبسه ويظهر به ، ولكنه لا يستطيع ان يجد من يعطيه علمه وأدبه ولسانه عند الحاجة (١) » وينشد :

وما حسن الرجال لهم بزين ... اذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيباً ان تراه ... له وجه وليس له لسان (٢)

نرى من فلسفته هذه وآرائه الكثيرة التي كان يبديها عند كل مناسبة في هذا الشأن ، ومن تعمده اهمال مظهره ، لوناً من الثورة الصامتة على الطبيعة التي ظلمته وجارت عليه ؛ فحرمته ـ وهو في عنفوان شبابه ـ من جمال تشتهي رؤيته عيون الناس ، ومن سعة في العيش يتمتع بها ، حتى

---

(١) الدميري : ج ٢ ص ٢١٨ .
(٢) الدميري : ج ٢ ص ٢١٩ .

من نسب عريق يفخر بوجاهته ؛ في حين وهبته ذكاء متقـــداً وحساً وادراً كاً يبصر بهما الغبن الفاحش بين اديب نابه فطن يتعثر باسمال فاقته وقبحه وضعة نسبه ، وبين آخر غبي بليد يرفل بالدمقس وبالحرير ، وينام في فراش ناعم ، ويركب في الموكب الخطير ويقول بين الناس : كان ابي .

وقد حدثنا التاريخ بأن الفقر والقبح وضعة النسب قلما اجتمعت في رجل ذكي عالم الا جنحت به نحو الثورة على الناس والحياة ، او اندفعت به الى الزندقة والكفر . ولكن الأصمعي القوي الأعصاب المتزن التفكير لم يجنح الى هذا ولا الى ذاك ، انما انحصرت ثورته النفسية من هــذا الحرمان الى افهام الناس بأنه جميل في روحه وظرفه ، غني بعلمه وعقله ، رفيع النسب بأدبه ، فيقول : « جمال الروح اطول ربيعاً من نضارة الوجه » ويقول : « من قعد به نسبه نهض به ادبه » (١) .

كان يحاول ان يفهم الناس ذلك من وراء احاديثه ورواياته ، فإذا لم يجد عندهم قبولاً لذلك اندفع ساخراً بالجمال البليد والثراء الغبي السخيف ، ويروي القطع الأدبية النادرة في ذلك ، فتدوي ضاحكة بين الناس ، ويرويها القريب والبعيد . . يقول مثلاً : رأيت في البصرة شيخاً له منظر حسن ، وعليه ثياب فاخرة ، وحوله حاشية وهرج ، ودخل وخرج ، فاردت ان اختبره ، فسلمت عليه وقلت له : ما كنية سيدنا ؟؟ قال : « ابو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين » فضحكت منه وعرفت رقاعة عقله (٢) .

وتبلغ به السخرية اللاذعة والتهكم المر احياناً الى ان يزدري بشكله وقبح هيئته ويتندر على نفسه كما يتندر على غيره ، ويخلط هذا بذلك ،

---

(١) الأمالي : ج ٣ ص ٢٢٣ .

(٢) كتاب المعارف : ١٧٢ .

فيخلق جواً ادبياً ظريفاً تشع فيه روحه بجمالها على شكله ، ويتدفق لسانه بغزارة علمه وكنوز ادبه تدفقاً يتضاءل امامه جمال وجوه الحاضرين وسعة ثرائهم ، فيظهر امامهم كما قال عنه الجاحظ : « اجمل من تحدث وأعذب من حكى » .

يقول : « دخلت على احد الأمراء في مجلسه ، فقال : يا أصمعي ، هل لك من زوجة ؟؟ قلت : لا ، قال : فجارية ؟؟ قلت : جارية للمهنة ؛ قال : فهل لك ان اهديك جارية نظيفة ؟؟ قلت : اني لمحتاج الى ذلك . فأمر باخراج جارية الى مجلسه ، فخرجت جارية في غاية الحسن والجمال والهيئة والظرف ؛ فقال لها : : قد وهبتك لهذا ؛ ثم قال : يا أصمعي ، خذها . فشكرته على هبته ، فبكت الجارية وجزعت جزعاً شديداً وقالت : يا سيدي ، اي ذنب جنيت حتى تدفعني الى هذا ، مع ما ارى من قبح صورته ؟؟ فأظهر الأمير تردده وقال : يا اصمعي ، هل لك ان اعوضك منها الف دينار ؟؟ قلت : ما اكره ذلك . فأمر لي بألف دينار ، ودخلت الجارية الى القصر ؛ فقال مبتسماً : يا اصمعي ، اني انكرت من هذه الجارية امراً ، فأردت عقوبتها بك ، ثم رحمتها منك . قلت : فهلا اعلمتني بذلك قبل مجيئي اليك ؟! فإني لم آتك حتى سرحت لحيتي وأصلحت عمتي ؛ ولو عرفتُ الخبر لصرت اليك على هيئة خلقتي ، فوالله لو رأتني كذلك لما عاودَتْ شيئاً تنكره منها طوال حياتها[1] .

وللأصمعي روايات وطرف من هذا اللون الساخر اللاذع حول القبح والجمال . ويبدو لنا انه كان يعنى بهذا الشأن حين كان يتخطى مراحل شبابه ، وقبل ان يكتهل فينغمر في الجو الفكري حيث لم يعد يلتفت الى

---

(١) تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١٤ .

المظهر الحسن والصباحة كما يلتفت الى الانتاج في العلم والأدب .. ولو أمعنا البحث في سيرته وتصرفاته لوجدناه فاتر الغريزة في كل ما يتعلق بالمسائل الجنسية ، بعيداً عن مغازلة النساء رغم ضخامة ما روى من الشعر الغزل الرقيق ، زاهداً في المحاولات معهن . فلم يخبرنا هو عن حب علق به ايام فتوته ، او هوى أسهره ليلة من لياليه طوال شبابه . وحتى خصومه الذين كانوا يبحثون عن زلاّته وأخطائه لم يشيروا الى شيء من ذلك .

كل ما نعلمه عنه في هذا المجال هو انه تزوج في حداثته وأنجب عقباً ، ثم انه ترمل في شبابه فبقي أرمل حتى النهاية .. ولا شيء اكثر من ذلك [١] . غير اننا نجد احد خصومه يتهمه بعد موته - على سبيل المغالاة - بأنه كان « مانوياً » [٢] ؛ والمانوية مذهب مجوسي فارسي قديم ، ينسب الى « ماني بن فتك بن بابك » ، يقول : بأن العالم مصنوع ومركب من اصلين قديمين هما « النور ، والظلمة » ؛ وكان ماني هذا قد حرم على نفسه شرب الخمرة ، وأكل اللحم ، ومقاربة النساء [٣] .. فقول خصوم الأصمعي بأنه كان مانوياً لا يعني الطعن بعقيدته ، وهو المعروف بورعه وتقواه ، ولكنه كان لا يشرب الخمرة بحكم تمسكه بالدين ، ولا يكثر من أكل اللحم لأنه لا يألفه ، ولا يتشبب بالنساء لفتور غريزته الجنسية .. وقد جاء في كتاب « البصائر والذخائر » لأبي حيان التوحيدي رواية عن احد طلاب الأصمعي الظرفاء يقول : « تقدم الأصمعي الى جارية ، بعدما كبر ، فانقطع ، فقال : سبحان من خلق خلقاً فأماته في حياته » [٤] .

---

(١) سنبحث هذا في مكان آخر من الكتاب .
(٢) تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١٨ .
(٣) الملل والنحل : ج ٢ ص ٧٢ .
(٤) البصائر والذخائر : ٥٦ .

وقد يكون لفتور غريزته هذا الأثر الكبير في تكوين اخلاقه ؛ وقد رأيناه هادئ الطبع ، مستقيم الأطوار ، يغلب عليه التعقل في سائر تصرفاته ؛ ولم نجده يوماً ثائر الأعصاب ، او مندفعاً طائشاً في امر من الأمور على غير هدىً او تفكير ، ولم يلق بنفسه في مأزق او تهلكة ، ولم يرد مورداً ليس له مصدر ابداً .. وربما كان لهذا الفتور ايضاً اثر في انصرافه الى الدرس والتحصيل والادمان والمواظبة على جمع الفوائد الفكرية طوال حياته .

بخله وحرصه

واتفق مؤرخو السير على انه كان بخيلاً ممسكا « يضيق في معيشته ، ويستقصي في مبايعته . ولو بذلت له الجنة بدرهم لما رضي ولساوم واستقصى » (١) والبخل صفة عرف بها اكثر الباهليين بين العرب ، وفيهم يقول الشاعر :

وللباهلي على خبزه كتاب : لآكله الآكله

فكان في ايام دراسته اذا مر بسوق المربد ، وتعرف بأعرابي فصيح عالم ، واراد استبقاءه لأخذ ما عنده من اللغة والأدب والأخبار وغيرها ، دعاه الى ضيافته في البصرة ، ولكنه لا ينزله في بيته بل في بيت احد اصدقائه من الموسرين لكي لا يتكبد هو خسارة الضيافة . فلما عقد حلقته في مسجد البصرة صار الأعراب يفدون اليه ليسمعوا منه ويجادلوه ، فاذا وجد من بينهم شاعراً او راوية للغة والأدب شوقه الى البقاء في البصرة ، وشجعه على ملازمة حلقته ليأخذ ما عنده من العلم ، وامر طلابه ان يجمعوا له من عندهم شيئاً من المال لسد حاجته مدة اقامته ، ولا يدفع هو شيئاً من ذلك (٢) .

---

(١) محاضرات الأدباء : ج ١ ص ٢٩٠ .

(٢) زهر الآداب : ٣٨٦ .

والأصمعي كان محباً للمال ، وكان من الأساتذة القلائل الذين يقبلون المنح والهدايا من طلابهم ورواد حلقاتهم في مسجد البصرة .. قيل ان رجلاً كان يألف حلقته ، فاذا صار الى ضيعته اهدى الى الأصمعي ما يحمل منها ، ثم ترك حلقته وألف حلقة ابي زيد الأنصاري ، وكان ابو زيد لا يقبل شيئاً ، فمر الرجل بالأصمعي يوماً فقال له الأصمعي معاتباً :

ولج بك الهجران حتى كأنما ترى الموت في البيت الذي كنت تألف ! [1]

وفي رواية اخرى : انه مرض مرة فعاده صديق له من سراة الناس واغنيائهم ، وكان يحب الأدب والعلم ويبر اصحابهما ، فقال له : اي شيء تشتهي يا اصمعي ؟؟ قال : اشتهي ان تقرضني خمسة آلاف درهم ، قال : افعل ذلك ، فأي شيء غير هذا ؟؟ قال : واشتهي ان تهدي لي سيفاً قاطعاً وبرذوناً حسناً وسرجاً محلى وخاتماً ثميناً ، قال : افعل ذلك ؛ ثم ارسل اليه كل ما طلب [2] .

وقصته في بخله هذا كقصته في قبح صورته وتفاهة مظهره .. كان يعلم بأنه ممسك مقتر ، ويعلم بأن الامساك صفة تزري بصاحبها ، ولكنه كان يحاول ان يغطي نقصه هذا على معارفه ويخفف من اثره في نفوسهم بلباقته وظرفه وحسن بيانه ونادرته . فكان يزدري بالبخلاء ويروي نوادرهم بأسلوب طريف ، ويتندر بالمسرفين ويضعهم في مصاف السفهاء واخوان الشياطين ، ويخلق عند الضرورة من هذا وذاك جواً مرحاً يشغل به اذهان سامعيه عن التفكير بنقصه . وله اقوال طريفة في هذا الباب ، فيقول على سبيل التندر مثلاً « نعم الأدام الجوع ، ونعم شعار المسلمين

---

(١) نزهة الألباء : ١٦٦ ـ الشعر للفرزدق .
(٢) الأغاني : ج ٥ ص ١٠٨ .

التخفيف »[1] ويقول ايضاً : « ان اكثر اهـل النار النساء والفقراء ، وان اكثر اهل الجنة البـله والأغنياء ، وان أرباب الدثور – أي الأموال الطائلة – هم الذين ذهبوا بالأجور »[2] .

والطريف في الأمر انه كان من اكثر من روى عن البخلاء من الشخصيات المعروفة في التاريخ ، واجمـل من تحدث عنهم ؛ وربما كان دافعه الى هذا محاولة اخفاء بخله ، او جعل البخل في اذهان معارفه صفـة قد يتصف بها العظماء ايضاً .. فمن حكاياته عن كبار البخلاء مثلاً قوله : « كان المغيرة الثقفي والي الكوفة يأكل تمراً هو وأصحابه عنـده – وكان بخيـلاً – فانطفأ ضوء السراج ، وكانوا يلقون النوى في طست ، فسمع صوت نواتين تسقطان في آن واحد فقـــال : من هذا الذي يلعب بالكعبتين ؟ »

ويقول كذلك : « سأل فقير خالد بن صفوان شيئاً ، فأعطاه درهماً ، فاستقله السائل ، فقال خالد : يا أحمـق ، ان الدرهم عشر العشرة ، وان العشرة عشر المائة ، وان المائة عشر الألف ، وان الألف عشر العشرة آلاف .. أما ترى كيف ارتفع الدرهم الى دية مسلم ؟ »[3]

ويقول في نوادره عن بخل الأعراب : « تعرق اعرابي عظماً ، فـلم يرد ان يلقيه ، وله بنون ثلاثة ، فقال له احدهم : اعطنيه ، قال : وما تصنـع به ؟ قال : اتعرقه حتى لا ترى به ذرة مقيـلا ؛ قال : ما قلت شيئاً . فقال الثاني : اعطنيه اتعرقه حتى لا تدري أهو لعامه هذا ام للعام الذي قبله ؛ قال : ما قلت شيئاً . فقال الثالث : اعطنيه اجعله مخة ادام ؛

---

(١) كتاب البخلاء : ٨٦ .
(٢) كتاب البخلاء : ١٤١ .
(٣) كتاب البخلاء : ١٩٠ .

قال : انت له ، لله ابوك .. وناوله العظم الذي بيده » [١] .

و ينشد على لسان اعرابية ترقص طفلها :

احبه حب البخيـل مـاله
قد كان ذاق الفقر ثم ناله
إذا أراد بذله بدا له [٢]

وكان اذا سئل حاجة وامتنع عن بذلها علل اسباب امتنـاعه بمنطق وجيه يقبله العقل احياناً ، وجاء بالحكمة والمثل والنادرة ليفهـم السائل والحاضرين بأنه تعمد الامتناع لغاية في نفسه غير باخل بتلك الحاجة .. قيل : ان متسولاً بسط يده اليه يسأله درهماً امام جماعة من صحبه ، فامتنع وقال للسائل : بورك فيك ؛ ثم التفت الى جلاسه وقال لهم : « سألني متسول درهماً ، فقلت له : لا ارتضي لك ما يحضرني ، قال : انا ارتضيه ، قلت : هو ــ بورك فيك ــ فأنشدني المتسول قائلاً :

ألم ترني ابغضت ليلى وذكرها   كما ابغض المسكين بورك فيك

فأعطيته الدرهم من اجل تلك الفائدة [٣] »

وكان خصومه يعرفون جانب البخل هذا فيه ، فيغمزونه منه ، ، ويغالون في وصفه ، ويحكون النوادر الطريفة عنه ، وربما ذهبوا في ذلك الى مـا يزري به غاية الازراء وتعدوا حدود الواقع الذي عرف به .. والحق انـه كان بخيلاً ، وقد زاد في بخله وامساكه ذلك الفقر الذي عاش فيه صغيراً حتى اعتاده ، والحرمان الذي كابده طويلاً في نشأته حتى ألفه ، فصار يراه طبيعياً محموداً ، ويرى غيره سفهاً وتبذيراً .

---

(١) كتاب البخلاء : ١٨٧ .
(٢) زهر الآداب : ٣٨٦ .
(٣) محاضرات الأدباء : ج ١ ص ٣٤٦ .

كان يزهد في ترف العيش واناقة الثياب لعاملين هما الفقر والأمساك .
فلما ظهر في المجتمع وبرزت شخصيته وخالط سراة اهل البصرة وحسنت حاله ، لم يستطع التخلص من قيود البخل الذي فطر عليه والاقتصاد الذي اعتاده من قبل ، فقصرت يده عن مجاراة مجتمعه في البذل ، وراح يعلل ذلك بأقوال مأثورة فيقول : « ان الرجل لتكون غلته الفين فينفق الفاً فيصلح وتصلح الغلة ، وتكون غلته الفين فينفق الفين فيوشك ان يبيع العقار في فضل النفقة [١] »

ولما تقدمت به الايام ، وابتسم له الدهر ، فاتصل – كما سنرى – ببلاط هارون الرشيد ، وجالس الأمراء والوزراء ، رأيناه يلبس الحلل الجميلة التي كانت توهب له ، ويركب براذين الخلفاء في مواكب الخليفة ، ولكنه لم يستطع – وهو المقتصد البخيل – ان يجري مع كبار القوم هؤلاء في ميدان بذخهم وترفهم وجزيل عطائهم للناس ، ولم تسمح له نفسه السير في صفوف الأجواد والمبذرين من الشعراء وندماء القصر ، فتكشف بخله وامساكه امام خصومه وشانئيه اكثر من قبل ، وقالوا فيه ما ارادوا .

وأكثر من كتب عن بخله « عمرو بن بحر الجاحظ » في كتابه « البخلاء » وهو كتاب صنعة وأدب ، استهدف صاحبه منه الظرافة والملح ولم يتقيد بالحقائق .. والجاحظ – كما علمنا – من تلامذة الأصمعي في اواخر ايامه ، وقد لازم حلقته طويلاً ولكنه لم يستطع التقرب من نفسه لأسباب جوهرية كانت تباعد بينهما . وذلك لأن الجاحظ كان ينحو في عقيدته منحى القدرية في الاعتزال ، ويقتدي بآراء « النظام » احد علماء الكلام ورؤسائهم ؛ والأصمعي من خصوم هذا المذهب – كما اسلفنا – لذلك كان

---

(١) المنتقى : ٢٩ – و يختلف نص هذه الرواية في مصادر اخرى .

ينفر من تلميـذه هذا ولا يلتفت اليه كثـيراً في مجلسه ، ولا يناقشه في آرائه ، وربما تعمد الرد عليه بأجوبة لا تعجبه . وآخر ما كان من امرهما ما حدثنا به « ابو العيناء » قال : كنا في مجلس مع جماعـة ، فأفضنا بالحديث عن استاذنا الأصمعي ـ وكان قد توفي ـ فقال الجاحظ : كان الأصمعي (مانوياً) ، فقال له العباس بن رستم : لا والله ، لا نقبـل منك هـذا القول ، ولكن نذكر حين جلست اليه في حلقته تسأله ، فجعل يأخـذ نعـله بيده ، وهي مخصوفـة بحديد ، ينفض عنها التراب ويقول : « نعم ، قناع القدري .. نعم قناع القدري » فعلمت انه يعنيك فقمت (١) .

وقد أورد الجاحظ في كتابه هذا عن الأصمعي عدة نوادر في بخله ، جاءت غاية في الأبداع والظرف ، وهذا بعضها ، قال :

« شهدت الأصمعي يوماً ؛ وأقبل على جلسائه يسألهم عن عيشهم وعما يأكلون ويشربون .. فأقبـل على الذي عن يمينه وقال : ابا فلان ، ما ادامـك ؟؟ قال : اللحم ؛ قال : أكلّ يوم لحم ؟؟ قال : نعم ؛ قال الأصمعي : وفيه الصفراء والبيضاء والكدراء والحامضة والحلوة والمرة ؟؟ قال : نعم ؛ قال : « بئس العيش هذا ، ليس هذا عيش آل الخطاب ؛ كان عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ورضوانه يضرب على هذا ، وكان يقول : « مدمن اللحم كمدمن الخمر » .. ثم سأل الذي يليه : ابا فلان ، ما ادامك ؟؟ قال : الآدام الكثيرة والألوان الطيبة ؛ قال : أفي ادامك سمن ؟ قال : نعم ؛ قال : فتجمـع السمن والسمين على مائدة ؟؟ قال : نعم ؛ قال : « ليس هذا عيش آل الخطاب ؛ كان ابن الخطاب رحمة الله عليه

---

(١) تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١٨ .

ورضوانه يضرب على هذا ؛ وكان إذا وجد القدور المختلفة الطعوم كدرها في قدر واحد وقال : « ان العرب لو أكلت هذا لقتل بعضها بعضاً ».
ثم اقبل على الآخر فقال : ابا فلان ، ما ادامك ؟؟ قال : اللحم السمين والجداء الرُضَّعْ ، قال : « فتأكله بالحُوّارى ؟ » قال : نعم ، قال : « ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابن الخطاب يضرب على هذا . او ما سمعته يقول : اتروني لا اعرف الطعام الطيب ؟ لباب البر بصغار المعزى . الا تراه كيف ينتفي من اكله ، وتنتحل معرفته ؟ » ثم يقبل على الذي يليه ، فيقول : « ابا فلان ، ما ادامك ؟ » فيقول : اكثر ما نأكل لحوم الجزور ونتخذ منها هذه القلايا ، ونجعل بعضها شواء ، قال : « افتأكل من اكبادها واسنمتها وتتخذ لك الصباغ ؟ » قال : نعم ، قال : « ليس هذا عيش آل الخطاب . كان ابن الخطاب يضرب على هذا . او ما سمعته يقول : اتروني لا اقدر ان اتخذ اكباداً وافلاذاً وصلائق وصلابا ؟ الا تراه كيف ينكر اهله ، ويستحسن معرفته ؟ » . ثم يقول للذي يليه : « ابا فلان ، ما ادامك ؟ » فيقول الشبارقات والأخبصة والفالوذجات . قال : « طعام العجم ، وعيش كسرى ، ولباب البر ، بلعاب النحل ، بخالص السمن » حتى اتى على آخرهم . فلما انقضى كلامه ، اقبل عليه بعضهم ، فقال : « يا ابا سعيد ما ادامك ؟ » قال: « يوماً لبن و يوماً زيت و يوماً سمن و يوماً تمر و يوماً جبن و يوماً قفار و يوماً لحم .. عيش آل الخطاب » [1] .

« وتمشى قوم اليه مع تاجر كان اشترى ثمرته ، لخسران كان ناله . وسألوه حسن النظر والحطيطة . فقال الأصمعي : « أسمعتم بالقسمة الضيزى ؟

---

(١) البخلاء : ١٨٥ .

هي والله ما تريدون شيخكم عليه . اشترى مني على ان الخسران علي والربح له . هذا وابيكم تجارة ابي العنبس . اذهبوا فاشتروا علي طعام العراق على هذا الشرط . على اني والله ما ادري اصادق هو ام كاذب . وها هنا واحدة ، وهي لكم دوني - ولا بد ان احتمل لكم ، اذ لم تحتملوا لي - : والله ما مشيتم معه الا وانتم توجبون حقه وتوجبون رفده . لو كنت اوجب له مثل ما توجبون لقد كنت اغنيته عنكم : وانا لا اعرفه ولا يضربني بحق ، فهلموا نتوزع هذه الفضلة بيننا بالسوية ، هذا حسن ممن احتمل حقاً لا يجب عليه في رضا من يجب ذلك عليه » فقاموا ولم يعودوا . فخرج التاجر من حقه ، وايس مما قِبَله [1] » .

وقيل : « انه كان يتعوذ بالله من الاستقراض والاستفراض فانعم الله عليه حتى صار هو المستقرض منه ، والمستفرض ما عنده ، فاتفق ان اتاه في يوم واحد رجلان وكان احدهما يطلب الفرض والآخر يطلب القرض ، هجما عليه معاً فأغضبه ذلك وملأ صدره فأقبل عليهما وقال لصاحب الفرض : « ... وأما الفرض فليس يسعه الا بيت المال . ولو وهبت لك درهماً واحداً لفتحت على مالي باباً لا تسده الجبال والرمال . ولو استطعت ان اجعل دونه ردماً كردم ياجوج وماجوج لفعلت . ان الناس فاغرة افواههم نحو من عنده درهم ، فليس يمنعهم من النهس إلا اليأس ، وان اطعموا لم تبق راغية ولا ثاغية ولا سبد ولا لبد ولا صامت ولا ناطق إلا ابتلعوه والتهموه . أتدري ما تريد بشيخك ؟ انما تريد ان تفقره ، فاذا افقرته فقد قتلته ، وقد تعلم ما جاء في قتل المؤمن » [2]

---

(١) البخلاء : ١٣١ .

(٢) كتاب البخلاء : ١٩٠ .

ولم يكتف خصوم الأصمعي بغمز جانب البخل المادي فيه ، فقالوا عنه بأنه كان بخيلاً بعلمه ايضاً على طالبي الفائدة منه [1] . وفي هـذا القول شيء من المغالطة ، فلو نظرنا الى كثرة ما اقتبس الرواة عنه من اللغـة والأدب والأخبـار ، ورأينا كثرة من لازمه من الطلاب اعواماً طويلة فأصبحوا بعد ذلك من قادة العلم والأدب في عصرهم ، إذاً لعلمنا بأنه كان كغيره من العلماء في بذل ثروتهم الفكرية وتكريس جهودهم العلميـة في سبيل تقديمها للناس .

ولكن شيئاً واحداً كان يبخل به على طبقة معينـة من الناس .. كان يبخل ببعض الطرائف الأدبية النادرة التي تصلح للمنادمة والمجالسة كالقطع الشعرية الغريبة المجهولة عند الآخرين والرقيقة منها الصالحة للغنـاء ، فلا يعطيها الى هؤلاء الذين تعودوا التكسب بأدبهم في مجالسة الأمراء والموسرين، ولا الى المغنين الذين امتهنوا الغناء في مجالس كبار القوم ليأخذوا من اجل ذلك العطـاء الجزيل . فهو يرى ذلك ضرباً من ضروب الكسب على حساب الغير ، ولا يرى من الحزم اعطاءهم ما يربحون به سهلاً على حساب رواياته الأدبية التي تكبد في سبيل العثور عليها متاعب الأسفـار ومشاق البحث وعناء التدوين والتصحيح .

كان يحتفظ بها لنفسه ليتزين بانشادها وروايتها في المجالس والمنتديات التي يزورها ، ويحصل بها على اعجاب الناس بشخصه وعلمـه . وقد يكون معذوراً في ذلك بعض العذر متى علمنا بأن عصره كان عصر علم وأدب حيث كان يسكب المال والثراء امام الرواة كلما جاؤوا بطريفة نادرة ، او شعر غريب مجهول ، او خبر يلذ في السمع عن شخصية تاريخية معروفة

---

(١) الاغاني : ج ٥ ص ١٠٦ .

او نادرة ذات مغزى جميل عن الأعراب . وقد وجدناه اكثر ما يكون بخلاً في ذلك عندما اتصل ببلاط الرشيد ورأى البيت والبيتين من الشعر قد يدران عليه آلاف الدنانير اذا أُلقيا في مناسبتهما وحصلا على اعجاب الخليفة وسروره بهما (١) .

يقول احد هؤلاء الأدباء « عيسى بن اسماعيل » : حضرت مجلس الأصمعي فسمعته يقول : دخلت على الأمير « جعفر بن سليمان العباسي » وقد ترك الطعام جزعاً على اخيه محمد بن سليمان - والي البصرة - فأنشدته بيتين من الشعر ، فما برحت حتى دعا بالمائدة فأكل ؛ قال عيسى : فسألته عن ذينك البيتين فسكت - بخلاً بهما - ثم سألته ثانية ، فالتفت إلي وقال : أتدري ما قال الأحوص ؟؟ قلت : لا ادري ، قال : قال الأحوص :

قد زاده كلفاً بالحب ان منعت   احب شيء إلى الانسان ما منعا

ثم سكت ، ولم يقل البيتين (٢) .

ويقول الآخر : انشدني الأصمعي ابياتاً قليلة رائعة في وصف الفرس هذا بعضها :

كأنه في الجل وهو سامي   مشتمل جاء من الحمّام

يسور بين السرج واللجام   سور القطامي الى السيام

فأعجبتني وكتبتها ، وقلت له : هل لها بقية ؟؟ قال : لا ، فذهبت الى احد الأمراء في مجلسه ، ورحت انشدها له ، فدخل الأصمعي وسمعني

---

(١) نزهة الألباء : ١٢٤ .

(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ٤١ - الابيات هما للشاعر « اراكة الثقفي » يرثي ابنه عمراً وفيها يقول :

لعمري لئن أتبعت عينك ما مضى   به الدهر او ساق الحمام الى القبر

ليستنفدن ماء الشؤون بأسره   وان كنت تمريهن من ثبج البحر

تبين ، فان كان البكا رد هالكا   على احد فاجهد بكاك على عمرو

اتلوها ، فقال : هات بقيتها !! فقلت : الم تقل انه لم يبق شيء منها ؟؟ قال : ما بقي منها الا عيونها ، ثم انشد بعدها ثلاثين بيتاً ، فغاظني والله فعله (١) .

من ذلك نفهم بأنه ما كان يبخل على هؤلاء بما يدخره لنفسه من روائع الأدب فحسب ، بل كان يستخدمهم للوصول الى غايته ايضاً ، فيعطيهم بعض الشعر لا كله ، او يعطيهم الشعر كله ولا يطلعهم على اسم صاحبه ؛ فاذا انشدوه في المجالس او غنوا به وسألهم الحاضرون عن تتمته او عن اسم قائله عجزوا عن الجواب ، فيكون هو حاضراً فيجيب ، او يكون غائباً فيسأل عن ذلك فيما بعد فيجيب ، فيظهر فضله على غيره . وكان يعتبر ذلك وسيلة مشروعة من وسائل الكسب الادبي .. والمادي ايضاً في بعض الاحيان .

ومن صفاته المقاربة للبخل ، حرصه الشديد على التغلب في مناظراته ومناقشاته مع العلماء ، وبخاصة عندما تكون المناظرة والمناقشة في مسألة تدخل في نطاق اختصاصه كاللغة والشعر والأدب على انواعه . لذلك نراه يتجنب الخوض في امر يجهله خيفة ان يغلب فيه ، ولا يدعي شيئاً يرى غيره فيه أمكن منه . وقد قال احد معاصريه : « لم ار الأصمعي يدعي شيئاً من العلم فيكون احد اعلم به منه » (٢) .

والذي يبحث في مناظرته مع العلماء يجده مسلحاً بكل الوسائل التي تعينه على الوصول الى الفوز في النتيجة : فهو يدخر الكثير من المسائل الصعبة الغامضة في اللغة والشعر والنحو احتياطاً للطوارىء فاذا غلب في مسألة

---

(١) الاغاني : ج ٢ ص ١٠٨ – حدث هذا مع اسحاق الموصلي في مجلس الفضل بن الربيع .

(٢) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٤ .

قاد مناظره الى احدى هذه المسائل المدخرة عنده فيوقعه . وكان ماهراً في ادراك جانب الضعف عند مناظره فان وجده مكيناً في اللغة دفعه الى النحو او الشعر الغريب ، فيغلبه . ور بما استخدم الكلمات المتعددة المعاني ، او قام امام خصمه بحركات ، واتى بإيماءات تورطه في المعنى وتوقعه في الخطأ .

ناظره « ابو عمرو الجرمي » مرة فغلبه ، فشق ذلك على الأصمعي ؛ فقيل لأبي عمرو : ظفرت به فاحترز منه ، فقال الأصمعي : ما تقول في قول الشاعر :

وضرب كآذان الفراء فضوله   وطعن كأبزاغ المخاض بتورها

ما اراد بالفراء هنا ؟؟ (وأشار مومئاً الى فراء كانوا جالسين عليه) فقال ابو عمرو : الفراء ما نحن جالسون عليه ؛ قال الأصمعي : اخطأت انما الفِراء جمع فَراء وهو حمار الوحش .. فانكسف ابو عمرو وارتاح الأصمعي [1] . والذي هو واضح في هذه الرواية ان صاحبنا تعمد انشاد هذا البيت الغريب لأن فيه كلمة (فراء) وهي تدل على معنيين مختلفين ـ حمار الوحش ، والفراء المفروش على ارض المجلس ـ فاستطاع باشارته ان يوقع مناظره في الخطأ ؛ وفي هذا ما يشير الى قدرة الأصمعي وغزارة ما يحفظ من الشعر الغريب .

وناظره رجل آخر في مجلس سعيد بن سلم فغلبه ايضاً ، فقال الأصمعي منشداً :

واحدة اعضلني امرها   فكيف لو قمت على اربع

ما معنى « قمت » هنا ؟ ؟ (واشار بيديه كأنه يريد القيام على اربع) فقال الرجل : قمت اي نهضت ؛ قال الأصمعي : وهل ينهض

(١) نزهة الألباء : ١٢٣ .

الأنسان على اربع ؟ ؟ ولكن معنى (قمت) هنا مأخوذ من قوله تعـالى « الرجال قوامون على النساء » وفي البيت ، ان امرأة واحدة اتعبني امرها فكيف لو قمت على اربع نساء ؟ ؟ فعجب الحاضرون ، وضحك سعيد بن سلم وقال : لا تعارضوه في الشعر [١] . . ومتى علمنا بأن هـذا البيت من نظم الأصمعي نفسه وهو من ابيات اولها :

يا امة الله الا تسمعي   ما قال عبد الملك الأصمعي
واحـدة اعضلني امرهـا   فكيت لو قمت على اربع

ادركنا كيف كان يهيىء المعـاني الصعبة ويدخرها لنفسه ليوقـع بها مناظريه حرصاً منه على ان لا يغلب .

ومما يشبه هـذا قول اسحاق الموصلي : دخلت على الأصمعي فأنشدته ابياتاً قلتها :

هل الى ان تنام عيني سبيل   ان عهدي بالنوم عهد طويل
غاب عني من لا أسمّي فعيني   كل يوم وجداً عليه تسيل
ان ما قل منك يكثر عندي   وكـثير ممن تحب القليـل

فسألني عن صاحبها ، فقلت : لأحد الأعراب ، فجعل يعجب بهـا ويرددها ؛ فقلت له : اقول لك الحق ، انها بنت ليلتهـا . فسكت ثم قال : لا جرم فان اثر التوليد فيها بيّن ؛ فقلت ولا جرم فان اثر الحسد فيك ظاهر [٢] . . ولم يكن ذلك ـ في الحقيقة ـ حسداً من الأصمعي ولـكنه كره ان يغلب بمثل هذه الخدعة .

مع كل هذا يجب ان لا نعتقد بأن الأصمعي كان مكابراً لا يعترف

---

(١) السيرافي : ٦٣ .
(٢) طبقات الادباء : ج ٢ ص ٢١٧ .

لأحد بفضل او تفوق عليه في اي شيء كان ، او انه لا يذعن للحق اذا كان بجانب غيره . بل كان كغيره من العلماء يخطىء و يصيب ، ويغلب و ينهزم . ولكنه شديد الحذر من الوقوع في موارد ليس له منها مصادر ، واذا وقع في مأزق احسن التخلص منه بمهارة وحذق وسرعة بديهة ، ولا يرضيه ان يكون مغلوباً ومنهزماً .

ظرفه وخفة روحه

يقول الأصمعي : « وصلت بالعلم ، وكسبت بالمُلَح » [1] ، فهو - دون شك - من اظرف علماء عصره قاطبة ، واوفرهم ملحة ، وآنسهم دعابة ، وادقهم حساً ، واقواهم ملاحظة و بديهة ، « ولم ير الناس في ذلك العهد احضر منه جواباً » [2] .. وكان ظرفه فطرياً ، يتدفق خفة من روحه ، ويستمد رقة من ذوقه ، ويتغذى مادة من غزارة علمه وفيض ادبه ، ويكتسي رونقاً من نبرات صوته الموسيقية العذبة .

ولكنه كان ظرفاً مقيداً بحدود الوقار المفروض في العلماء ، و بقيود التأثم الموجودة عند الأتقياء ، فلا يشوبه مجون ولا زندقة ، ولا تمازجه بذاءة ولا هجنة في القول ، بخلاف ما اعتاد عليه ظرفاء ذلك العصر من انطلاق في الرأي ، وتحرر من كل مانع .. ولما كانت طبيعة الأصمعي هادئة مسالمة ، كان ظرفه على شاكلته ، فاذا تندر تحاشى جارح اللفظ ، واذا داعب تجنب اللجاج والخصام ، واذا تحدث وزن حديثه بميزان واعطى لكل مقام مقالاً .. وهو مقابل ذلك لا يحتمل من احد العبث بشخصه ، ولا يصبر على المس بكرامته ، واذا ابتلي بمن يحاول ذلك منه اسرع اليه ببديهته وفاجأه

(١) ابن خلكان : ج٢ ص ٣٤٧ - البيان والتبيين : ج ١ ص ١٧٣ .
(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٥١ .

باجوبته المسكتة ، او اعرض عنه ، او انسحب بلباقة من مجلسه .

والمجالس عند الأصمعي ذات الوان : تراه في بعضها لا يتكلم الا اذا سئل ، وفي البعض الآخر لا يتحدث الا بمقدار ؛ اما اذا ضمه مجلس اجتمع فيه شمل اصحابه وانداده ومن تأنس به روحه ، انطلق يفرد فيه بملحه ونوادره واشعاره ، وتنقل من فن الى فن ، يسحر جلاسه ويطربهم ، كما يقول عنه ابو نواس .. « كان يأتي بالنادرة في مناسبتها فوراً كأنها كانت تجول على شفتيه ، أو كأنه هو الذي خلق تلك المناسبة ليرصعها بنادرته . وتتدفق طرائف الأشعار وبدائع الحكم والأمثال في حديثه بدون تكلف كأنها كانت تدور في رأسه ، او كأنه يتكلم بعقول اولئك الشعراء والفصحاء اصحاب تلك الكلمات المأثورة » . هكذا عرفنا الأصمعي بعد نضج شخصيته ، واحتلاله المكانة المرموقة في مجتمعه ، ولم يكن كذلك في شبابه النزق ولا في شيخوخته المتزهدة الورعة .

عاش نيفاً وتسعين سنة : قضى ايام طفولته منها وباكورة شبابه في محيط شعبي فقير ، فاختلط بابناء مجتمعه كواحد منهم ، وساقه تحصيله ودراسته - كما رأينا - الى الاتصال بطبقات الناس من علماء وشعراء وتجار واعراب وسوقة ولصوص ومتسولين ومجانين وغير ذلك . فكان عليه ان يكلم كلاً منهم باللغة التي يفهمها ، والاصطلاحات التي يستخدمها ، والألفاظ التي يستعملها ؛ فحصل لديه بفضل ذلك ثروة لفظية شعبية دارجة غير اللغة الفصحى ، ودراية باحوال السوقة من الناس ، وخبرة بكل تلك الصور الاجتماعية المتناقضة .

وقد رأيناه في صباه وشبابه يستوقف الأعراب وغير الأعراب في الطرقات، ويجرهم الى الحديث معه لعل في حديثهم فائدة تستحق التدوين . ويعاكس

عقلاء المجانين في الأزقة ، ويصغي الى شذوذهم الفكري ، ويجمع في ألواحه ما يضحك من اقوالهم او يرشد ، غير عابئ بما يلقـاه منهم احياناً من اهانة او سباب . ولم يترك جانباً من جوانب المجتمع البصري إلا مشى فيه ليجمع ما يعثر عليه من فكاهة طريفة ونكتة لاذعـة وجواب ماجن ، ليعود به الى زملائه من ظرفاء المسجديين فيحدثهم به ويتندر معهم فيه .

ورأيناه اثنـاء ذلك يرتاد مجالس الشعراء والأدباء من الظرفاء ، التي يعقدونها في اوقات معينة في داخـل البصرة ، كمجلس « البردان » الذي يقيمه شيخ شعراء البصريين « بشار بن برد ، الأعمى » فيحضره كل ذي رغبة في الأدب من الناس وحتى النساء .. وفي هذا المجلس صورة واضحة للظرف والمجون في ذلك العهد :

فقد كان بشار هذا ظريفاً حاد النكتة عنيف الجواب سـليط اللسان كثير الهجاء والمجون ، لم يسلم احد من اهـل البصرة من شره ، وقد قيل : « أسعد أهل البصرة من لا يعرف بشاراً ولا بشار يعرفه ، لأنـه إن لم يصبه بماله اصابه بعرضه » .. وكانت صلة الأصمعي به حسنة جـداً لصداقة هذا الشاعر الكبير مع الباهليين بوجه عام ، ولمدحه ابنـاء « سلم ابن قتيبة الباهلي » بوجه خاص . فكان – في شبابه – يحضر هذا المجلس ويكثر من التردد اليه ، ويعجب بصاحبه ويروي اشعاره الرائعة ، ويفضلها على اشعار غيره من المعاصرين ؛ ويأنس بظرفه ونكاته ، ويستشهد بأشعاره الرزينة الحكيمة كما كان يحتج بها كبار العلماء وأساتذة المسجد ، ويطرب لشعره في الغزل وابتكاراته فيه .

وكان لبشار خصوم ألداء من الشعراء الماجنين الهجائين امثال « حماد عجرد » و « ابي الشمقمق » و « اعشى باهلة » وغيرهم . وله في كل

هؤلاء كما لهم فيه ألوان من أقذع وأبذأ ما قيل ويقال في الهجـــاء ، ومساجلات اضحكت اهل البصرة وشغلتهم زمناً طويلاً . فكان الأصمعي يحضر الكثير من تلك المقابلات والمساجلات ، وتتلذذ روحه الفتيـة في جو ذلك المجلس المرح الطروب ، ويحفظ تلك الأجوبة الماجنـة ويروي تلك الأشعار المقذعة ويعلق احياناً عليها ، ولا يرى بأساً في التحدث بها واستعادتها من اصحابها .

وبقيت تلك الصداقة وطيدة بين الشاعر الكبير والأصمعي الشاب النابغ ، مليئة بالمودة والأعجاب ، حتى اصطدم بشار - اخيراً - بالشاعر ابي هاشم الباهلي فهجاه ، فأجابه ابو هاشم يقول :

وعبدي فقا عينيك في الرحم أيره   فجئت ولم تعـلم لعينيك فاقيا
أأمك يا بشار كانت عفيفـة ؟؟   عليّ إذاً أمشي الى البيت حافيا

فنقم بشار على الباهليين جميعـاً فهجاهم بأبيات كثـيرة ، يقول في بعضها :

فارغ

إذا أعيتك نسبة باهـلي   فرفع عنه حاشية الأزار
على استاه سادتهم كتاب :   موالي عامر طبعت بنـار

فلما سمع الأصمعي بهجاء بشار لقومه تألم وقال : « ويلي على هـذا العبد ، القن بن القن »[1] ثم هجر مجلسه وجفـاه ، ولم يجتمع به حتى قتل متهماً بالزندقة في عهد الخليفة المهدي .

هكذا كان الأصمعي في بداية نشأته مع ما كان عليه من جد ونشاط في الدرس والتتبع - كما اسلفنا - ؛ فلما انشأ حلقته في مسجـد البصرة ، وصقلت شخصيته العلميـــة ، صار يحترس من الوقوع في زلل الكلام ؛

---

(١) الأغاني : ج ٣ ص ٤٩ .

فتشذبت روايته من البذاءة والاقذاع وهجنة القول ، وتحول نهجه في الظرف الى نوع آخر من النوادر والملح في الأدب الرفيع . ثم اتصـــل فيما بعد ببلاط هارون الرشيـد ، فتغيرت ظروفه وتقيدت حريته في الكلام بحكم الجو الجديد الذى غمره في « قصر الخلد » ببغداد . فلما عـاد الى البصرة ثانية وقد وخطه الشيب ووعظته الأيام ، واستوى تفكيره ونضجت فلسفتـه وازداد تدينه ، قل نشاطه في الدعابة والنكتة . ثم تورع اخيراً وتزهـد ، فلم يبق في صدره من جذوة المرح غير رمق ضئيل .. وعليـه ، يجب ان ندرك بأن هنالك فرقاً واضحاً بين نهجه في الدعابة والرواية والتظرف اثناء صباه وشبابه ، يوم كان طليقاً حراً غير مسئول عن كلامه وآرائه ، وبين اسلوبه في ذلك بعد ان ظهرت شخصيته بين كبار علماء البصرة وأسـاتذة مسجدها ؛ وأثناء مجالسته للخليفة الرشيد ؛ وفي عهد الشيخوخة والورع والزهد .

ولكن الكثير من مؤلفي كتب الأدب والنوادر نقلوا حكاياته وملحه وأقواله في المجالس جزافاً ، دون تفريق بين ما كان قاله في صباه ونشأته وبين ما تحدث به ايام مجده العلمي وفي شيخوخته ؛ وخلطوا ذلك خلطاً ، غير ملتفتين قليلاً او كثيراً الى ذكر المناسبات والظروف التي تكلم فيها .. وراح بعضهم الى أبعـد من ذلك في الخطأ ، فنسبوا مضحكاته وعبثه في حداثته مع المجانين والمتسولين والكناسين والخُلعاء اليه في شيخوخته وأواخر عهده ؛ وربما زعموا انه قالها في مجالس هارون الرشيد وهي لا تصلح للرواية في مثل هذا المكان الجليل .. وبعضهم تساهل في كل ما نسب اليه من روايات مصنوعة منتحلة هو منها براء ، وفيها الركيك والسمـــج والبذيء الماجن ، والمغلوط من الناحية التاريخية ، والجريء على الدين ؛ فسببوا بذلك ارتباكاً في واقع سيرته ، واظهروه للأجيال المتـأخرة على

غير حقيقته .

يقول في شبابه :

- مررت ، وانا حدث السن ، بكناس يكنس كنيفاً وهو يغني ويقول :

اضاعوني واي فتى اضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فقلت له : اما سداد الثغر فلا علم لنا كيف انت فيه ، واما سداد الكنيف فمعلوم . فنظر الي حانقاً وقال :

واكرم نفسي انني ان اهنتها وحقك لم تكرم على احد بعدي

فقلت : واي كرامة حصلت لها منك ؟ وما يكون من الهوان اكثر مما اهنتها به ؟؟

قال : بلى والله ، من الهوان ما هو اكثر واعظم مما انا فيه . قلت : وما هو ؟؟

قال : الحاجة اليك والى امثالك من السفلة ، ان سألتهم قالوا : « بورك فيك » .. فانصرفت وانا اخزى الناس (١) .

- ويقول : مررت بجبانة ، فرأيت امرأة عند قبر تبكي وتنشد :

فمن للسؤال ومن للنوال ومن للمقال ومن للخطب

ومن للحماة ومن للكماة اذا ما الكماة جثوا للركب

اذا قيل : مات (ابو مالك) فتى المكرمات قريع العرب

فقد مـــات عز بني آدم وقد ظهر النكد بعد الطرب

فملت اليها ، وقلت لها : يا امة الله ، من هذا الذي مات كل هؤلاء الخلق بموته ؟؟ قالت : او مـــا تعرفه ؟؟ قلت : لا والله ؛ فاقبلت الي ودمعتها تنحدر ، واذا هي مقاء برشاء ثرماء ، فقالت : فديتك ، هذا « ابو

---

(١) ثمرات الأوراق : ج ١ ص ٦٥.

مالك الحجام ، ختن ابي منصور الحائك » ، فقلت : عليك لعنة الله ، والله ما ظننت الا انه سيد من سادات العرب (١) .

ويقول ايضاً : ضلت لي ابل ، فخرجت في طلبها ، وكان البرد شديداً ، فالتجأت الى حي من احياء العرب ، واذا بجماعة يصلون ، وبقربهم شيخ ملتف بكساء رقيق وهو يرتعد من البرد ؛ فجلست بجانبه ، وقلت له : انشدنا . قال :

ايا رب ان البرد اصبح كالحاً   وانت بحالي يا الهيَ اعلم
فأن كنت يوماً في جهنم مدخلي   ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

فعجبت من فصاحته ، وقلت له : يا شيخ ، اما تستحي تقطع الصلاة وانت شيخ كبير ؟؟ فانشد :

ايطمع ربي ان اصلي عارياً   ويكسو غيري كسوة البرد والحر
فوالله لا صليت ما عشت عارياً   عشاءً ولا وقت المغيب ولا الوتر
ولا الصبح الا يوم شمس دفيئة   وان غيمت فالويل للظهر والعصر

فاعطيته ثوباً كان عندي ، فقام وصلى (٢) .

ـ وحدثني اعرابي ، قال : مات رجل عندنا ، فادمنت امرأته البكاء عليه ليلاً نهاراً ، حتى ازعجت بنيها ، فقال لها احدهم :

اتفقدين من ابينا خيره ؟؟
اتذكرين نفعه وضره ؟؟
اراك ما تبكين الا ....

فأمسكت بعد ذلك عن البكاء (٣) .

---

(١) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٢٠ .
(٢) المستظرف : ج ٢ ص ١٢٣ .
(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ٣٠٨ .

لا شك في ان الأصمعي روى ـ في شبابه ـ الشيء الكثير من الطرف والنوادر والنكات التي لا تخلو من العبث والمجون . وكان الناس في زمنه بالبصرة قد بدأوا يطربون من هذا ، وتفتحت نفوسهم له ، واستقبلوا استقبالاً حسناً امثال « بشار بن برد » و « ابي نواس » و « حماد عجرد » وغيرهم ، وهم ما هم : في قول الفحش في صراحة من غير ايماء . كما اننا لا ننكر صحة القول : « بـأن الأدب العربي ـ من عهده في الجاهلية ـ ادب مكشوف ، فنقرأ في ثنايا الشعر ابياتاً صريحة من غير كناية ، وحتى بعض الخلفاء انفسهم لم يكن جلساؤهم يتحرجون من القاء الكلام على عواهنه [1] . » ولكن دراستنا وبحثنا في سيرة الأصمعي يجعلاننا نعتقد بأنه لم يسترسل ، بعد حداثته ، في هذا اللون الفاحش من الطرائف والملح لما عرف به من وقار وتدين يمنعانه الا من الظرف الرزين والملح والنوادر البريئة .

تدينه وصدق لهجته

ولد الأصمعي في بيت يمارس شعائر الدين الأسلامي ويؤدي فرائضه وسننه على الوجه الاتم ؛ ودرس في « الكتاب » عند معلم مؤمن تقي يعلم طلابه الصغار قواعد الأسلام ؛ ولازم بعد ذلك اساتذة من كبار شيوخ المسجد مشهوداً لهم بصحة العقيدة ؛ فنشأ تقياً صحيح الدين متمسكاً به متبعاً بالدقة اوامره ونواهيه ؛ فلم ينحرف نحو المجون على كثرة المجان في ايامه ، ولم يتأثر بآراء الزنادقة ممن جالسهم في شبابه من الأدباء والشعراء الذين كان يقول فيهم : « تزندق هؤلاء القوم لجهلهم باللغة العربية ، ولو كانوا مطلعين على خفايا اللغة لفهموا حقيقة القرآن والحديث ، ولما اعتراهم

---

(١) انظر مقدمة الأستاذ احمد امين لكتاب « البصائر والذخائر » لأبي حيان التوحيدي .

الشك في الدين » [1] .

وكان على مذهب اهل السنة والجماعة ـ كما قلنا ـ وهو مذهب اسرته واهل بيته وكبار اساتذته الذين لازم حلقاتهم طويلاً ايام دراسته وتحصيله .. يقول احد معاصريه : « اهل العربية كلهم اصحاب اهواء ، الا اربعة ، فانهم كانوا اصحاب سنة وهم : ابو عمرو بن العلاء ، والخليل بن احمد ، ويونس بن حبيب ، وعبد الملك الأصمعي [2] » .

لم يمل الى مذهب الخوارج لما كان يرى فيه من غلو زائد وتطرف وانحراف عن سنن الدين . ولم يقل برأي المعتزلة لأنه كان يكره طريقة اهل الرأي منهم ، ولا يقبل العمل بالقياس الذي يستندون عليه في اجتهاداتهم وتأويلهم ، كما لا يحب المناقشة في اصول الدين والخوض في فلسفته والاستنتاج فيها كما يفعل علماء الكلام [2] . وكان يحترم آل البيت ويجلهم لقرابتهم من الرسول الأعظم ولكنه لا يرى رأي الشيعة فيهم .. وهو كغيره من العلماء ينتقد المذاهب الأخرى ويدافع عن مذهبه ، فاتهمه بعض اصحاب تلك المذاهب بما ليس فيه .

وفي الروايات المتواترة ، انه كان ـ رغم اتقانه اللغة ـ لا يفسر شيئاً من القرآن خوف الوقوع في الخطأ وتجنباً للاثم من ذلك ؛ فكان اذا سئل عن شيء من هذا قال : « العرب تقول معنى هذا كذا ، ولا اعلم المراد منه في كتاب الله اي شيء هو » [4] ، واذا مر به اثناء حديثه او محاضراته في اللغة نص مشابه لبعض نصوص القرآن امسك وعدل عن

---

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢١٧ .
(٢) كتاب المعارف : ١٨٤ .
(٣) ضحى الاسلام : ج ٢ ص ٢٧٩ .
(٤) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٦ .

تفسيره . ولا يبحث في شيء عن الأنواء والنجوم ، ويقول : « سمعت ان النبي عليه السلام قال : إذا ذكرت النجوم فأمسكوا »(١) ولم يرو شيئاً في الأساطير لوجود ذكرها في القرآن . وكان في اواخر ايامه قد تورع وتزهد ، وصار لا يشرب بآنية الفضة لاعتقاده بأن ذلك منهي عنه .

وكان - مع قوة حافظته - لا يروي إلا اليسير الثابت من الأحاديث ولم يفسرها ايضاً .. قيل انه سئل مرة عن معنى جملة من حديث فقال : « انا لا افسر حديث رسول الله ، ولكن العرب تقول كذا في معنى هذا الذي تريدون تفسيره »(٢) .. وفي مرة ، فسر معنى حديث غريب ، ثم رجع نادماً يلوم نفسه على ما فعل ، فقال له احد الجالسين : « لا عليك فلقد سمعت بهذا المعنى من غيرك » فسري عنه..(٣) وقد قال ابو الطيب اللغوي : « كان الأصمعي شديد التأله ، لا يفسر القرآن ولا الحديث ، تحرجاً . »(٤)

وقد اجمع الرواة في سيرته على انه كان لا يفسر شعراً فيه هجاء ، لأنه يرى الهجاء قذفاً بالأبرياء وشتماً لهم بدافع الغيظ والحقد فلا يريد الاشتراك مع القاذف الشاتم بالأثم والخطيئة (٥) . ويرى ايضا بأن في شعر الهجاء العربي القديم ثلباً وطعناً موجهاً الى قبيلة او جماعة او شخص عربي ، وفي هذا مالا يشرف عنصره وقوميته امام الشعوبيين الذين يبحثون عن عيوب العرب ومثالبهم ليدونوها في كتبهم تشفياً وانتقاما .

---

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢٠٧ .
(٢) المنتقى : ٣٢ .
(٣) السيرا في : ٦٠ .
(٤) المزهر : ج ٢ ص ٢٥١ .
(٥) المزهر : ج ٢ ص ٢٥١ .

وهنا يجب ان نفرق بين تفسير شعر الهجاء وبين روايته . فالأصمعي كان يحجم عن تفسير اي هجاء ولو كان موجهاً ضد الشعوبيين انفسهم تحرجاً من الأثم ـ كما قلنا ـ ؛ واما في روايته فالأمر يختلف عنده باختلاف ادوار حياته .. رأيناه في شبابه يجمع شعر الهجاء والمجون ويرويه للتظرف والتندر بين جلاسه وفي خصوماته مع الشعوبيين وغيرهم ، غير ملتفت الى مانع اجتماعي او رادع في العقيدة ما دام ذلك الشعر من نظم غيره ، سيراً على قاعدة « ناقل الكفر ليس بكافر » . حتى اذا ظهر في مجتمعه واشتبك بجد مع الشعوبيين ، وتزعم فكرة الدفاع عن القومية العربية ضدهم ، احجم عن رواية كل ما يقع من شعر قديم يستهدف هجاء جماعة او احد من العرب اياً كان ؛ وربما عمل على اتلافه لكي لا يقع في ايدي هؤلاء الخصوم ، مكتفياً بترديد او رواية ما يقال في هجاء الشعوبيين وعنصرهم فقط .

اما ما كان متداولاً معروفاً عند الناس من شعر الهجاء القديم ، فكان لا يروي منه الا البيت او البيتين في سبيل فائدة علمية او ادبية او تاريخية ، ولا يرى في ذلك بأساً لأنه لم يأت بجديد في هذا الباب . كقوله مثلاً حين سئل عن الشاعرين « جرير » و « الأخطل » ايهما اهجى ؟؟ قال : الأخطل اهجى من جرير بقوله :

قوم اذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النار

ولكن جريراً اسير شعراً منه ، لانه حين قال :

والتغلبي اذا تنحنح للقرى   حك استه وتمثل الأمثالا

لم يبق سقاء ولا امة إلا روته . (١)

---

(١) العمدة : ج ٢ ص ١٤٧ .

وعندما تقدمت مكانته العلمية ورمقته الأنظار كاستاذ من اساتذة المسجد صار يبتعد جهد المستطاع عن رواية شعر الهجاء ولو كان في خصومه واعدائه .. ثم امتنع بعد ذلك عن رواية كل هجاء حين ادرك الشيخوخة وازداد ورعه . والقصد بالهجاء هنا هو ما كان موجهاً من الطعن والثلب ضد شخص او جماعة معينة .. وكذلك كان حاله في شعر المجون وكل ما فيه تبذل يخرج عن حدود الوقار العلمي والخلق الديني .

وصار ايضاً لا يجيب على سؤال قد يكون في الجواب عليه اساءة الى احد او حط من قيمة الغير سواء أكان من العلماء والأدباء ام من غيرهم ، ويقول : « ان في بعض الأجوبة شهادة » . واذا اجاب اجاب بعد علم ويقين ، متوخياً الصدق والحقيقة ؛ لذلك نراه ، في بعض مقارناته بين الشعراء مثلاً ، لا يبالي ان يفضل خصماً له من الشعوبيين على صديق له من العرب ، ما دام ذلك في سبيل الشهادة .. قيل له مرة : من اشعر اهل زمانك ؟؟ قال : ابو نواس اشعرهم بقوله كذا وكذا ، وذكر شيئاً من غرر شعره ، مع العلم بأن هذا الشاعر كان من الد خصومه والمشنعين عليه وممن هجاه واقذع في هجائه (١) . وسئل ايضاً : ايهما اشعر من الآخر « بشار بن برد » ام « مروان بن ابي حفصة » ؟ قال : « بشار اشعر من صاحبه » ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : « لأن مرواناً سلك طريقاً كثر من يسلكه ، فلم يلحق من تقدمه ، وشاركه فيه من كان في عصره ؛ واما بشار فقد سلك طريقاً لم يسلك ، واحسن فيه وتفرد به ، وهو اكثر تصرفاً وفنون

---

(١) العمدة : ج ٢ ص ١٤٨ .

شعر ، واغزر واوسع بديعاً ، ومروان لم يتجاوز الأوائل » .

وكل ما وصلنا من اخباره في الكتب القديمة الرزينة ، والحوادث التي رويت عنه يدل على انه كان ديّناً صحيح العقيدة كامل الأيمان في صومه وصلاته . وقد حج مراراً عديدة في شبابه وكهولته وشيخوخته واتصل بفقهاء الحجاز ومحدثيهم وزهادهم واخذ عن بعضهم وصادقهم .. ومن كانت هذه حاله يكون صادقاً حتماً في لهجته وروايته ، لا يكذب فيها ولا يضيف من عنده عليها .

لقد شهد بصدقه عدد من كبار رجال الدين الذين عاصروه ، وسمعوا منه واخذوا عنه . فقال الأمام الشافعي « محمد بن ادريس » : « ما رأيت بذلك المعسكر اصدق من الأصمعي » (١) . وكان الأمام « احمد بن حنبل » يثني عليه ويعده ثقة (٢) . ويقول « يحيى بن معين » وهو من كبار المحدثين الاتقياء : « لا نعلم ان الأصمعي كان يرفع الا احاديث يسيرة ، وصدوقاً في غير ذلك من احاديثه » (٣) . ويقول يحيى بن معين ايضا : سمعت الأصمعي يقول : « سمع مني مالك بن انس » ، ويقول كذلك : « قد روى مالك بن انس عن شيخ يقال له عبد الملك بن قريب » (٤) .

وقد ايد هذه الشهادات الواردة من أئمة معاصريه ، عدد كبير ايضاً من العلماء الذين جاؤوا بعد عصره وكتبوا عنه . . يقول ابو الطيب اللغوي : « لم ير الناس أحضر جواباً ، وأتقن لما يحفظ وأصدق لهجة من الأصمعي . اما ما يحكي العوام وسقاط الناس من نوادر الأعراب ، ويقولون : هذا ما

---

(١) نزهة الألباء : ١٧٢ .
(٢) نزهة الألباء : ١٧١ .
(٣) السيرافي : ٦٧ — طبقات النحاة : ٣١٣ .
(٤) المنتقى : ٢٧ .

اختلقه الأصمعي ؛ او يقولون : ان رجلاً رأى عبد الرحمن بن اخيه فقال : ما فعل عمك ؟ قال : قاعد في الشمس يكذب على الأعراب ؛ فهذا باطل. وكيف يقول ذلك عبد الرحمن ، ولولا عمه لم يكن شيئاً مذكورا ؟ وكيف يكذب عمه وهو لا يروي الا عنه ؟ وانى يكون الأصمعي كذلك وهو لا يفتي الا فيما اجمع عليه العلماء ، ويقف عما ينفردون عنه ، ولا يجيز الا افصح اللغات ، ويلح في دفع ما سواه ؟ [1] » . وقال عنه ابن معن : « لم يكن ممن يكذب [2] » . واكبر شاهد على صدقه في رواياته ، ان كبار مشيخة قراءة القرآن كانوا يحضرون حلقته ويأخذون عنه قراءة نافع وابي عمرو بن العلاء ، ولو شكوا في صدقه لتحاشوه وابتعدوا عنه ؛ كما ان معظم علماء اللغة والنحو والأدب اخذوا - بعد موته - من آثاره اكثر مما اقتبسوا من آثار غيره لاعتمادهم على صدقه وحسن اختياره وتضييق دائرة اخذه .

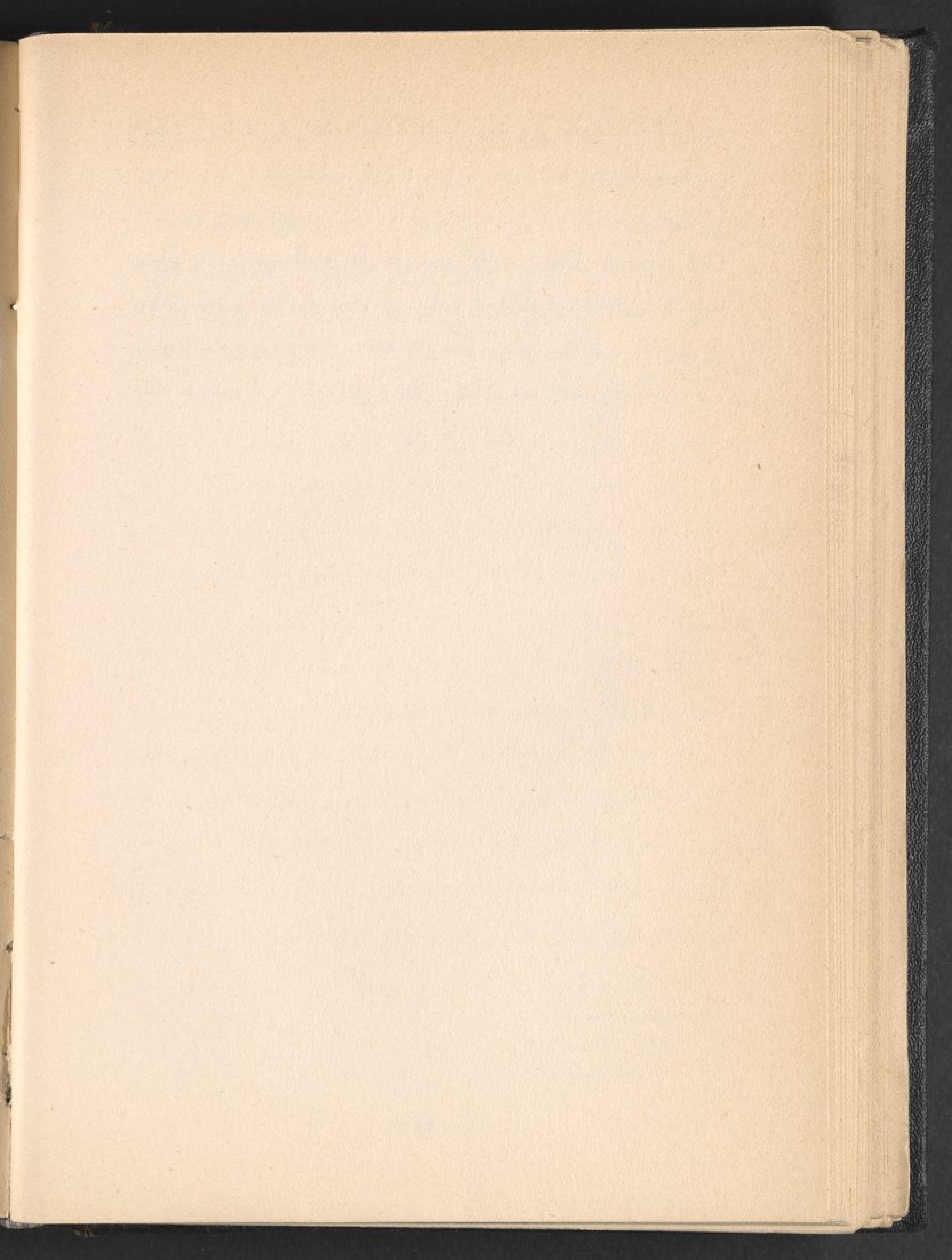
وكذلك كان صادقاً في روايته للشعر القديم ، ولم ينح في ذلك منحى بعض رواة الأدب في عصره امثال « خلف الأحمر » و « حماد بن ميسرة » المعروف بحماد الراوية وغيرهما من الذين يحسنون نظم الشعر ويجيدون تقليد الشعراء الأقدمين باساليبهم فينظمون من عندهم وينسبون ما ينظمونه الى فحول الشعراء السابقين ترويجاً لرواياتهم . وكان الذي يمنع الأصمعي عن مثل هذا صدقه وتدينه اولا ، ثم انه كان ينظم الشعر ولكنه لا يجيده الى درجة يقلد فيها اولئك الشعراء الكبار الذين روى اشعارهم .

واما الشائع المغلوط بين الناس في ان الأصمعي كان يزيد في اشعار

---

(١) المزهر : ج٢ ص ٢٥١ .
(٢) كتاب المعارف : ١٨٤ .

السلف ، ويختلق الروايات الكاذبة على التاريخ ، ويكذب على الأعراب ، الى غير ذلك ؛ فله اسباب كثيرة : منها ما كان يشيعه خصومه عليه من الشعوبيين وغيرهم ، ومنها كثرة ما نسب اليه من الروايات مما لم يقله ولم يعترف به . وهذه سيرته تدل على انه كان من اصدق الرواة في اللغة والأدب والشعر والأخبار ، الا في نوادره عن الأعراب فكان يشنعها باسلوب خاص يودع فيها ما لديه من حكم وعبر ومواعظ ، ولا يرى في ذلك ما يضيره لأنه انتاج ادبي مستقل سنبحث عنه بالتفصيل في مكان آخر .



القِسمُ الثالث

مكانتُهُ العِلميّة

١ — حلقته في مسجد البصرة

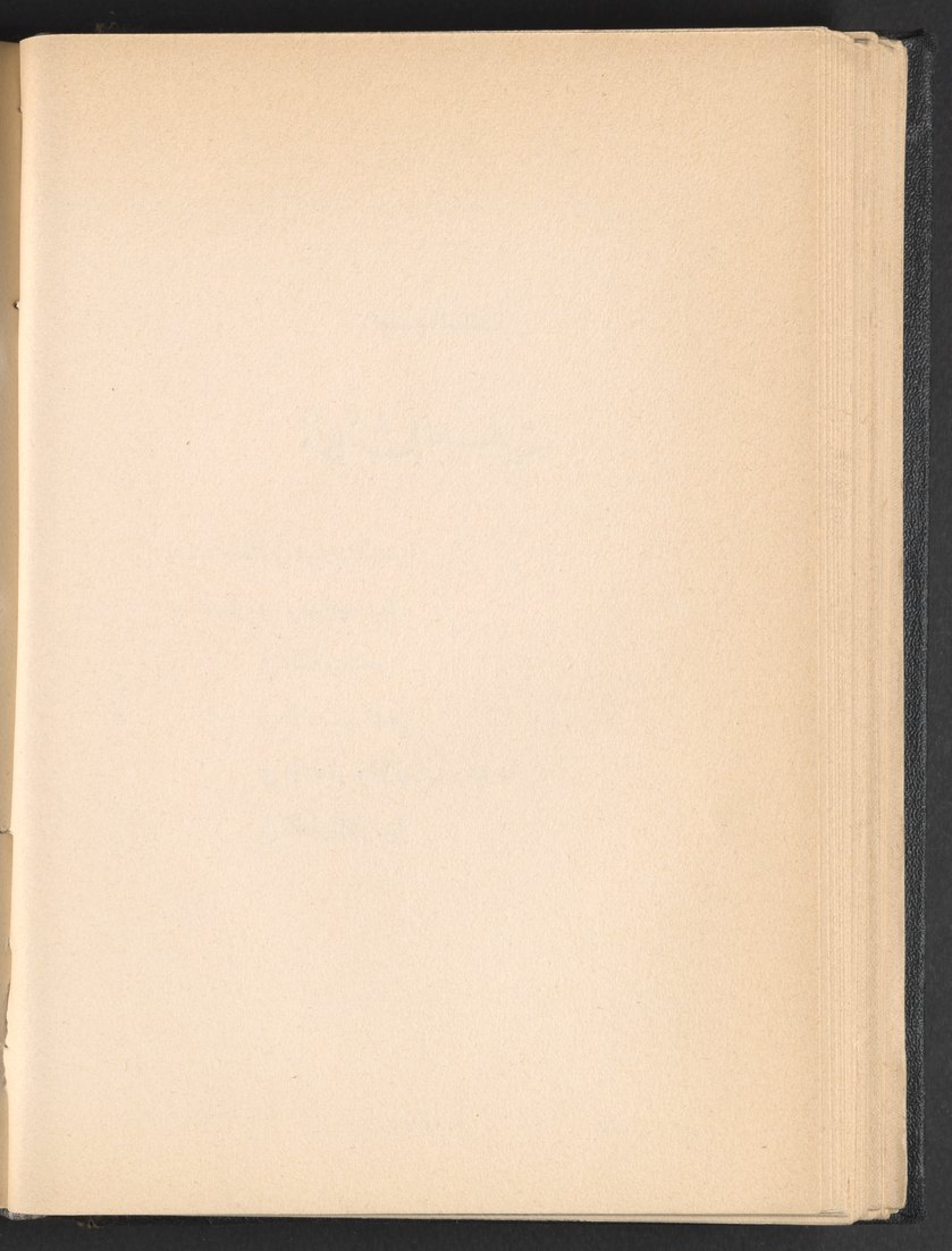
٢ — علومه ، ومذاهبه فيها :

في اللغة والنحو

في الأدب والشعر

في الأخبار والأنساب وغيرها

في اللغة الفارسية



جاء في بعض المصادر : « ان مشيخة القراء كانوا يحضرون الأصمعي ، رغم حداثته ، لأخذ قراءة نافع وابي عمرو بن العلاء عنه » [1] . من هذا نفهم بأنه كان قد شيد حلقته في المسجد الجامع في سن مبكرة « في حداثته » ؛ ولكن احداً من مؤرخي السير لم يخبرنا ـ بالدقة ـ متى كان ذلك .

وقد بقيت هذه الناحية من تاريخ حياته مجهولة عندنا . فاذا اردنا ان نقدر ذلك على وجه التقريب ، وجب علينا ان نلتفت قليلاً الى صلة الأصمعي الوطيدة بأستاذه الجليل « ابي عمرو بن العلاء » الذي روى عنه قراءته القرآن بعد وفاته . . هنالك نجد من يخبرنا بأن عدداً من طلاب هذا الشيخ الذين لازموه طويلاً ، اقاموا حلقاتهم بعد وفاته سنة (١٥٤ هـ) [2] . فلا يستبعد أن يكون الأصمعي أحدهم ، فيكون عمره ـ اذ ذاك ـ قد ناهز الثلاثين عاماً ؛ وهي سن كافية لتأهيله لهذا المنصب العلمي بعد تلك الكفاءة النادرة والغزارة في العلم والأدب ، كما رأينا .

والذي علمناه من سير الحوادث ، انه أعطى لحلقته هذه ساعات قليلة معينة في الأسبوع ، منصرفاً فيما يتبقى من وقته الى اكمال دراسته وتحصيله ، مستمراً في خطته الأولى في البحث عن الفوائد الفكرية وجمعها من حلقات كبار شيوخ المسجد ، وعند الأعراب في منازلهم القريبة ، وفي سوق المربد ، وفي البوادي النائية عند سنوح الفرص . . فهو استاذ وتلميذ في وقت معاً ، سيراً على القاعدة المتبعة عند علماء ذلك العهد .

---

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢٦١ .

(٢) ابن خلكان : ج ٥ ص ٢٣١ .

وقد رأيناه ، في الأيام الأولى من بدء حلقته ، حريصاً كل الحرص على اظهار كفاءته وجدارته بمنصبه العلمي الجديد ، شأن كل استاذ مبتدىء يقف أمام الناس هذا الموقف الدقيق ، حيث يسأل عما يقوله صغيراً كان أم كبيراً .. وكأننا به امام طلابه وسامعيه ، يلقي عليهم اوثق ما جمع في ألواحه ودفاتره ، وأجمل ما ادخر في ذاكرته من لغة فصيحة وقاعـدة نحوية مجمع عليها ، وشعر غريب طريف ، ونتف أدبية نادرة ، مستعيناً بين الفينة والفينة بآراء كبار شيوخه الذين درس عليهم ، وبأقوال فصحاء الأعراب المشهورين ، مستشهداً بأمتن ما جمع فأوعى من الشعر الجـاهلي القديم بأسلوب شيق ، وبيان واضح ، ولهجة عذبة ؛ حتى اتسع نطاق حلقته ، وكثر طلابها ومرتادوها ، ولما يمض على انشائها ، بعد ، زمن طويل .

ولم يسر في ادارة حلقتـه كما كان يفعل في مجتمعه وبين زملائه من المسجديين الظرفاء حيث تنطلق النوادر والملح والنكات بغير قيد ولا حذر ولا حساب ؛ كما انه لم يتصنع التزمت والجد والانقباض في إلقاء حديثه . ولكنه اتخذ الطريق الأوسط بين زملائه شيوخ المسجد ، جامعاً بين وقار العلم وجلاله وخفة الروح ورقة الطبع . فكان ناجحاً في ذلك كل النجاح ، فأحبه طلابه ولازموه بشوق ورغبة ، غير شاعرين بسأم من جفاف اللغـة ولا بكلل من قواعد النحـــو او شرح الغريب في معـاني الشعر ، او غـير ذلك .

فكان اذا توغل في بحث من بحوثه العلمية او الأدبية وشعر بشيء من الملل عند سامعيه ، أتحفهم بنادرة غريبة لها صلة بالبحث ، او بشعر جزل رقيق يأتي به على طريق الاستشهاد ، او برواية طريفة تضحك من حوله وتجدد لهم نشاطهم ، ثم يعود بهم الى إتمام بحثه .. وهكذا كان الذي

يحضر مجلسه يشعر بأنه امام دنيا واسعة الآفاق في غزارة المـادة وصواب النقد والتحليل وصحة التخريج ، وأمام « بلبل يطربهم بنغماته » ويتنقل بهم من روض الى روض في طرائفه وخفة روحه ، وأمام مصـدر يفيض عليهم كل آونة بجديد من الفائدة لوفرة حفظه واستمراره المتواصل في البحث عن الفوائد العلمية والأدبية الجديدة التي عرف مكامنها وأتقن وسائـل جمعها واقتنائها .

قيل انه كان يحافظ على أوقاته في حلقته ، فيلقي دروسه ومحاضراته ؛ حتى إذا انتهى من ذلك حمـل ألواحه ، وراح يتنقل في حلقات زملائه وأساتذته من كبار شيوخ المسجد ، ويجلس عندهم حيث ينتهي به المجلس ، ويصغي الى أقوالهم وحججهم وبيناتهم ، ويدون كل مفيـد غريب عليـه كما يفعل الطلاب أنفسهم ، فإذا وجد هناك ما لا يتفق ورأيه ناقش فيه وناظر حتى يقنع أو يقتنع . وربما اجل المناقشة في مسألة من المسائل التي وجدها عند غيره حتى يعود الى حلقته ، فيبحثها على طريقته ويعلن رأيه فيها دون التعرض بشخص من خالفه في ذلك . وقد يصل رأيه هذا الى من عارضه من الأسـاتذة المذكورين ، فيجتمع الطرفان ويتبادلان وجهات النظر والحجج والأدلة امام الطلاب والسامعين ، فتعم الفائدة على الجميع [1] .

جلس مرة في حلقة أستاذه القديم « شعبة بن الحجـاج » يصغي الى شرحه لقصيدة الشاعر « فروة بن سميك » حتى وصل الى قوله :

فما جبنوا أنا نشيد عليهـم ولكن رأوا ناراً (تحش) وتسفع

فقرأها شعبة (تحس) بالسين ، وخالفه الأصمعي فقال : انما هي

---

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤ — في اخبار الأصمعي كثير من المناقشات التي كان يثيرها مع الأساتذة الآخرين في داخل المسجـد امام الطلاب . وهو كعادته لم يعارض في مسألة إلا إذا كان واثقاً من علمه بها وصحة رأيه فيها .

(تحش) بالشين ، فقـال شعبة : هكذا أخذناها عن شيوخنا ، قال الأصمعي : اذا جاءت بالسين كما تقول افادت معنى القتل ، واذا جاءت بالشين أفادت معنى الوقود وهو الأصح لمعنى البيت . وجاء بالأدلة الكثيرة والحجج القوية ، فاقتنع شعبة بذلك ، وقال له : « لو فرغت للزمتك » (١) أي لو كان في وقتي متسع للزمت حلقتك ودرست عليك .

وجيء للأصمعي يوماً بكتاب لأبي عبيـدة يفسر فيه بعض آيات القرآن ، فأخذه وتصفحه ، ثم طواه غاضباً وقال : « ما لابن الصباغ ، يفسر كتاب الله برأيه .. ومن أين علم أن الريب هو الشك ، في قوله تعالى : ذلك الكتاب لا ريب فيه ؟؟ » . فسمع ابو عبيدة قوله هذا ، فسأل عن مجلسه في أي يوم هو ؛ وركب حماره في ذلك اليوم ، ومر بحلقته فنزل وسلم عليه ، وجلس عنده وحادثه ، ثم قال له : يا ابا سعيد ، ما تقول في الخبز ، أي شيء هو ؟؟ قال : الذي تخبزه وتأكله . قـال ابو عبيدة : قد فسرت كتاب الله تعالى برأيك ، فان الله تعالى يقول : « .. وقال الآخر اني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه . » قال الأصمعي : هذا شيء بان لي فقلته ولم افسر كتاب الله برأيي ؛ فقال ابو عبيدة : والذي تعيب علينا كله شيء بان لنا فقلناه ولم نفسره برأينا .. ثم قام وركب حماره (٢) .

ومن أخطر المنـاقشات التي حدثت له ، فأحدثت دوياً كبيراً في الأوساط العلمية بالبصرة هي تلك التي جرت بينه وبـين « سيبويه » النحوي المشهور . وقد حدثنا الأصمعي نفسه عن هذه المناقشة فقال : عرض

---

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢٣٢ .
(٢) ابن خلـكان : ج ٤ ص ٢٣٧.

عليّ شيء من الأبيات التي وضعها سيبويه في كتابه ، ففسرتها على خلاف ما فسر ، فبلغ ذلك سيبويه فشق عليه وقال : لا ناقشته الا في المسجد الجامع . فصليت يوماً في المسجد ، واردت الخروج فتلقاني ، وقال لي : اجلس يا ابا سعيد . فجلست واجتمع حولنا من كان في المسجد ، وتناظرنا فقال : ما الذي انكرت من بيت كذا وكذا ؟؟ ولم فسرت على خلاف ما يجب ؟؟ قلت له : ما فسرت الا على ما يجب ، والذي فسرته انت ووضعته في كتابك خطأ ، وما لك إلا ان تسألني فأُجيب . وصرنا نتجادل بصوت عالٍ ، فسمع العامة فصاحتي ونظروا الى لكنته ، فمالوا الى جانبي ، وصاروا يريدون ان اغلبه ، وأظهروا شعورهم بذلك . . وبعد نقاش طويل ، نهض سيبويه وقال لي : « إذا علمت يا أصمعي ما نزل بك مني ، لم التفت الى قول هؤلاء » ثم نفض يديه ومضى[1] .

وقد تناقل طلاب العلم اخبار هذه المناظرة بين هذين النابغين ، وسألوا اساتذتهم في أيهما المحق برأيه ، فقال يونس بن حبيب النحوي : « الحق مع سيبويه ولكن الأصمعي غلبه بلسانه » .[2]

ولم يكتف الأصمعي بجمع الفوائد من مصادرها ، واعطائها منقحة مصححة لطلابه الذين يلازمون حلقته ، بل كان يشجعهم على اقتفاء اثره في ذلك والعمل بمثله ، ويرشدهم الى الطرق التي يسلكونها والموارد التي يردونها ، فيذهبون كما يذهب هو الى المربد والبادية ويعودون وفي ألواحهم شيء مما جمعوه ، فيعرضونه عليه ، فيناقشه معهم ويصححه لهم ، ويظهر

---

(١) معجم الأدباء : ج ١٦ ص ١٢٥ .
(٢) بغية الوعاة : ٣١٣ .

اخطاءهم فيه بمقارنته بما عنده من آراء شيوخه وما كان قد عثر عليه عند علماء الأعراب وفصحائهم . وربما أوعز الى هؤلاء الطلاب ان يعرضوا بعض فوائدهم هذه على غيره من شيوخ المسجد الآخرين ليرى رأيهم فيه [١] .

والجدير بالذكر ايضاً ، ان فترات من المرح والدعابة كانت تمر احياناً بحلقة الأصمعي فتنقلب – رغم ما يسودها من جو علمي وقور – الى مهرجان ادبي طريف مشحون بالنكات والملح والنوادر التي يتبادلها الطلاب بينهم ، أو مع الأعراب الظرفاء الذين يفدون الى المسجد عمداً لمقابلة الأصمعي ، الذي اشتهر عندهم برواية الشعر وتفسيره ، ولأنشاده ما عندهم من الأدب والغريب ، وسماع رأيه في ذلك .. وكان بين طلابه عدد من المسجديين الظرفاء الذين عرفوا بسرعة البديهة وحبك النكتة ، امثال « عمرو بن بحر الجاحظ » و « العباس بن رستم » و « محمد بن القاسم » المكنى بأبي العيناء الضرير ، وكان من أحضر الناس جواباً وأبرعهم دعابة وفيه يقول ابن خلكان : « انه كان من ظرفاء العالم » [٢] وغير هؤلاء ممن سنتحدث عنهم في مكان آخر .

وقيل ان احد الجالسين في حلقة الأصمعي ، قرأ عليه ابياتاً للنابغة الذبياني فلما وصل الى قوله :

كليني لهم يا أُميمة ناصب وليل أقضيه بطيء الكواكب

صحفه فقرأه على الشكل التالي : « كليني لهم يا اميمة باضت .... » فانفجر السامعون بالضحك ، وضحك الأصمعي معهم ايضاً ، ثم التفت اليه وقال له : « يا هذا ، اما علمت ان كل ناجمة الأذنين تحيض ،

---

(١) نزهة الألباء : ١٤٨ .
(٢) ابن خلكان : ج ٣ ص ٤٦٦ .

ومعنى هذا ان كل ما له اذنان ظاهرتان يلد كالانسان والبقر والغنم ومن له اذنان مستورتان فهو يبيض كالدجاج والأوز

وكل سكاء الأذنين تبيض ؟؟ » فزاد الحاضرون بالضحك ، وكتبوا كلام الأصمعي لما فيه من دعابة ونكتة وفائدة ؛ وقد قال أحد الحاضرين : « لم أرَ تصحيفاً أجلب للفائدة منه » [1] .

وروى أحدهم ايضاً فقال : وقف علينا غلام من بني أسد ، رث الأطمار لا يدل مظهره على ذكاء او علم ؛ ثم سلم وجلس ، فسأله الأصمعي عن اسمه ؟؟ قال : « حريقيص » ، قال الأصمعي ، اما كفى أهلك ان يسموك حرقوصاً - وهو اسم لحشرة كالبرغوث - حتى حقروا اسمك وصغروه ؟ قال الغلام : « ان السقط ليحرق الحرجة » ، فعجب الأصمعي من جوابه ، وقال له : اتنشدنا شيئاً من أشعار قومك ؟؟ قال : نعم ، انشدك قول « مرار الأسدي » .. ثم انشد :

سكنوا شُبَيثاً والأحص واصبحوا ... نزلت منازلهم بنو ذبيان

واذا يقال : اتيتم ، لم يبرحوا ... حتى تقيم الخيل سوق طعان

واذا فلان مات عن اكرومة ... رقعوا معاوز فقره بفلان

فطرب الأصمعي لأنشاده وكادت تسوخ به الأرض . ثم قال : اكتبوه .

وقال أحد طلابه ايضاً : كنا في الحلقة ، فأقبل أعرابي يرفل بالخزوز ، فقال : اين عميدكم ؟؟ فأشرنا الى الأصمعي ، فسأله ما معنى قول الشاعر :

لا مال الا العطاف توزره ... أم الثلاثين وابنة الجبل

لا يرتقي النز في ذلاذله ... ولا يُعدي نعليه عن بلل

فضحك الأصمعي ، وأجابه :

عصرته نطفة تضمنها ... لصب تَلَقّى مواقع السبل

او وجبة من جناة اشكلة ... ان لم يرُغها بالقوس لم تنل

---

(١) محاضرات الأدباء : ج ١ ص ٦٥ .

فـأدبر الأعرابي وهو يقول : « تالله مـا رأيت كاليوم عضـلة » . فلما ذهب ، التفت الأصمعي الينا وقال : هذه قصيدة لشاعر من بني كلاب ، يصف بها رجلاً خائفاً لجأ الى جبل وليس معه غير سيفه وقوسه و كنانة فيها ثلاثون سهماً . . ثم قرأ علينا القصيدة كلها ، وفسرها [1] .

وروى ابو نصر « احمد بن حاتم الباهلي » قال : كنا في حلقـة الأصمعي ، فوقف بنا اعرابي فسلم ، ثم قال : ايكم الأصمعي ؟ فقال : انا ذاك ، قال : أتأذنون بالجلوس ؟؟ فأذنا له ، وعجبنا من حسن ادبه مع جفاء ادب الأعراب ، فقال : يا أصمعي ، انت الذي يزعم هؤلاء النفر انك اثقبهم معرفة بالشعر .والعربية وحكايات الأعراب ؟؟ قال الأصمعي : فيهم من هو أعلم مني ومن هو دوني . قال : أفلا تنشدني من بعض شعر اهل الحضر حتى اقتدي على شعراء أصحابنا !! فأنشده الأصمعي شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك :

أمسلم انت البحر إن جاء وارد ... وليث إذا ما الحرب طار عقابها
وأنت كسيف الهند و إني ان غدت ... حوادث من حرب يعب عبابها
وما خلقت اكرومة في امرىء له ... ولا غايــة إلا إليـك مآبها
كأنك ديان عليهـا موكل ... بها وعلى كفيـك يجري حسابها
إليك رحلنا العيس اذ لم نجد لها ... أخا ثقـــة يرجى لديه ثوابها

فتبسم الأعرابي وهــز رأسه ، فظننـا ان ذلك لاستحسانه الشعر ، ثم قال : يا أصمعي هذا شعر مهلهل خلق النسيج ، خطؤه اكثر من صوابه ، يغطي عيوبه حسن الروي ورواية المنشد ، يشبهون الممدوح بالأسـد الأبخر الشئيم المنظر ، والذي ربمـا طرده شرذمـة امائنا وتلاعب به صبياننا ؛

---

(١) امالي القالي : ج ٢ ص ٢٦٥ .

ويشبهونه بالبحر والبحر صعب على من ركبه ، مر على من شربه ؛ وبالسيف والسيف ربما خان في الحقيقة ونبا عند الضربة .. ألا أنشدتني كما قال صبي من حينا ؟؟ قال الأصمعي : وماذا قال صبيكم ؟؟ فأنشد :

اذا سألت الورى عن كل مكرمة لم يعز اكرمها الا الى « الهول »
فتى جواد أذاب المال نائله فالنيل يشكر منه كثرة النيل
الموت يكره ان يلقى منيته في كرّة عند لف الخيل بالخيل
لو زاحم الشمس أبقى الشمس كاسفة او زاحم الصُم ألجاها الى الميل
أمضى من النجم ان نابته نائبة وعند اعدائه أجرى من السيل
لا يستريح الى الدنيا وزينتها ولا تراه اليها ساحب الذيل
يقصر المجد عنه في مكارمه كما يقصر عن أفعاله قولي

قال ابو نصر : فأبهتنا والله ما سمعنا من قوله . فتأنى الأعرابي ، ثم قال : يا أصمعي ، ألا تنشدني شعراً ترتاح اليه النفس ، ويسكن اليه القلب ؟؟ فأنشده لعدي بن الرقاع :

وناعمة تجلو بعود اراكة مؤشرة يسبي المعانق طيبها
كأن بها خمراً بماء غمامة اذا ارتشفت بعد الرقاد غروبها
اراك الى نجد تحن وانما منى كل نفس حيث حل حبيبها

فتبسم الاعرابي ، وقال : يا اصمعي ، ما هذا بدون الأول ولا فوقه ؛ الا أنشدتني كما قلت ؟؟ قال : وما قلت ، جعلت فداك ؟؟ فأنشد :

تعلقتها بكراً وعلقت حبها فقلبيَ عن كل الورى فارغ بكر
اذا احتجبت لم يكفك البدر ضوءها وتكفيك ضوء البدر ان حجب البدر
وما الصبر عنها ان صبرت وجدته جميلاً وهل في مثلها يحسن الصبر

وحسبك من خمر يفوتك ريقهـا ووالله ما من ريقهـا حسبك الخمر
ولو ان جلد الدر لامس جلدهـا لـكان للمس الدر من جلدهـا أثر

فالتفت الاصمعي الى اصحابـه ، وقال : اكتبوا ما سمعتم ولو باطراف المدى في رقاق الاكباد . واقام الاعرابي عندنا شهراً ، وجمع له الأصمعي شيئاً من المال ؛ وكان يتعاهدنا في الحين بعد الحين حتى مات الاصمعي وتفرق اصحابنا [١] .

علومه ، ومذاهبه فيها

يقول ابو الطيب اللغوي : « كان في العصر العباسي الأول ثلاثـة هم أئمة الناس في اللغة والأدب وأخبـار العرب . لم يرَ الناس قبلهم ولا بعدهم مثلهم . وعنهم أخذ جل ما في ايدي الناس من هذه العلوم ، بل كلها ، وهم : ابو زيد الأنصاري والأصمعي وأبو عبيدة » [٢] .

ويقول محمد بن يزيد المبرد : « كان للأصمعي يد غراء في اللغة ، لا يعرف فيها مثله » [٣] . ويعده أجلة العلماء « ممن انتهى اليهم علم اللغة ».

اما في النحو فلم يـكن الأصمعي كالخليل بن احمد الفراهيـدي ولا كيونس بن حبيب النحوي ولا سيبويه من الذين عاصروه ، ولكنه كان فيه أفضل من غيره ممن انصرفوا الى الاختصاص في اللغة والأدب والأخبار . . وقد قال الأخفش احـد اساتذة ذلك العصر : « ما رأينا أحداً اعلم بالشعر من خلف الأحمر والأصمعي » فقيـل له : ايهما افضل ؟؟ قال : الأصمعي اعلم ، لأنه صاحب نحو [٤] . . وقد اتفق اصحاب السير

---

(١) زهر الآداب : ج ١ ص ٣٨٦ .
(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٤٩ .
(٣) السيرافي : ٥٧ .
(٤) طبقات النحاة : ج ٢ ص ٢٤٨ .

والطبقات على عده في الطبقة الأولى من النحاة [١] . وكانوا يعتبرونه ثقة في هذا العلم ، ويحتجون بآرائه لأنه يتقيد بالنصوص ، ويفضلون فتاويه النحوية على غيرها [٢] .

كان مذهبه في اللغة « تضييق دائرة اخذه لها » فلا يقبل غير الثابت الصحيح ، ولا يأخذ الا ما اجمع عليه علماء اللغة او فصحاء الأعراب . فاذا ورد عليه شيء غريب منها عرضه على كبار شيوخ المسجد - يوم كان طالباً - ثم صار يعرض ما يشك في صحته على فصحاء البدو وعلمائهم ؛ فإن ايدوه قبله ودونه في دفاتره ، والا الغاه وشطب عليه ؛ وربما كان الذي يلغيه ويشطب عليه اضعاف الذي يقبله .. يقول ابن اخيه عبد الرحمن : « كان عمي اذا ورد عليه شيء ينكره من اللغة والأدب ، قال : جحفل به » اي اتركه [٣]

ويقول احدهم : « كان الأصمعي يضيق دائرة الأخذ ، ولا يجوز إلا افصح اللغات ، ويشدد في ذلك ، ولا يفتي الا فيما اجمع عليه علماء اللغة ، ويقف عما ينفردون به ، ولا يجوز الا الأفصح » [٤] وربما ادى تشدده هذا الى ان ينفرد برأيه في رفض ما لا يوافق عليه دون باقي العلماء الآخرين .. فقد جاء مثلاً ان جميع زملائه يوافقون على صحة القول « فاظ الميت » بالظاء و « فاظت نفسه » و « فاضت نفسه » بالظاء وبالضاد ، الا هو فأنه يقول « فاظ الميت » و « فاضت نفسه » بالضاد فقط ، ولم

---

(١) السيرافي : ٥٨ .
(٢) نزهة الألباء : ٢٤٧ .
(٣) السيرافي : ٦٢ .
(٤) طبقات النحاة : ج ٢ ص ٣٠٢ .

يجمع بين الظاء والنفس ابداً (١)

وكان في مقارناته يفضل اقوال شعراء الجاهلية وخطبائهم على اقوال من جاء بعدهم في صدر الأسلام او في عهد بني امية . فان لم يجد من اقوال الجاهليين ما يحتج به فضل اقوال شعراء الاسلام من قاطني البوادي على اوائك الذين سكنوا المدن والحضر . وفضل فصحاء الأعراب الماكثين في كبد الصحراء على من جاور منهم البلاد والحواضر المأهولة بالغرباء والأعاجم . وكذلك كان مذهبه في النحو .. سئل مرة : هل يقال « شتان ما بين » ام « شتان بين » ؟ قال : انما يقال « شتان هذا وغيره » واحتج بقول الشاعر الجاهلي « حاجب بن زرارة » :

شتان هذا والعناق والنوم والمنهل البارد في الطل الدوم

فقالوا له ، ولكن الشاعر ربيعة الرقي يقول :

لشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم

قال : هذا شاعر متأخر ليس بحجة . ولم يقبل غير ذلك ، بينما اجاز غيره من اللغويين النحاة القواعد الثلاث كلها فقالوا « شتان بين » و « شتان ما بين » و « شتان ما هذا وذاك » .

ويقول ابو حاتم السجستاني : سألت الأصمعي : اتقول في التهديد « أبرق وأرعد » ؟ قال : لا ، لست أقول ذلك الا ان ارى البرق وأسمع الرعد . قلت : لقد قال الشاعر الكميت :

أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيدك لي بضائر

قال : الكميت جرمقاني من اهل الموصل ، ليس بحجة ؛ ولكن الحجة هو الذي يقول :

---

(١) معجم الأدباء : ج ١٨ ص ١٤٠ .

اذا جاوزت من ذات عرق ثنية فقل لأبي قابوس ما شئت فارعد

وهو شاعر جاهلي ، وشاعرك هذا متأخر لا يؤخذ بقوله . قال ابو حاتم : فأتيت ابا زيد الانصاري ، وقلت له : كيف تقول من البرق والرعد : فعلت السماء ؟؟ قال : « رعدت وبرقت » ، قلت : فمن التهديد ؟؟ قال : « رعد وبرق ، وارعد وابرق » فاجاز اللغتين . ثم سألت اعرابياً فصيحاً عن ذلك فأجاز اللغتين ايضاً .. ولم يجز الاصمعي الا لغة واحدة (١) »

وكان ينكر كلمة (زوجة) ويقولها (زوج) ، ويحتج بقوله تعالى : « ... امسك عليك زوجك » فقيل له : ان الشاعر « ذا الرمة » يقول :

أذو زوجة بالمصر ام ذو خصومة أراك لها في البصرة اليوم ثاويا

فقال : ذو الرمة ليس بحجة ، اذ طالما اكل البقل والمالح في حوانيت البقالين (٢) .

ومن مذاهبه في اللغة وتضييق دائرة اخذه لها اتباعه « قاعدة المتروك » وهي عدم قبوله استعمال الكلمات المتروكة التي اصبحت بحكم الميت لان العرب قاطبة تركوا استعمالها واستعاضوا عنها بغيرها ، ككلمة (الملّة ، والنشيطة ، والمرباع) وما شاكل ذلك ؛ فكان يقول : « لا يقولن احدكم ؛ أكلت ملّة ، بل : أكلت خبزة ، لان كلمة ملّة قد تركت ولم يستعملها احد من العرب » .

وكذلك تمسكه بقاعدة « تبديل الكلام اذا تبدل المعنى » فيقول : « لكل معنى كلام يقوله العرب ، فإذا تبدل المعنى لم تتكلم العرب بذلك الكلام » . ومن امثلته على ذلك : ان العرب كانوا يدفعون صداق

---

(١) امالي القالي : ج ١ ص ٩٦ .
(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٣٤ .

المرأة خيلاً وإبلاً فيقولون : « ساق اليها صداقها » لأن الخيل والابل تساق ؛ ثم تغير الحال ، فصاروا يدفعون الصداق ذهباً وفضة او تمراً أو ما شابه ذلك ، فلا يجوز القول هنا « ساق اليها صداقها » لأن الذهب والفضة لا تساق .. وكان العربي يضرب على اهله ليلة عرسه قبة او خيمة يبنيها ، فيقال « بنى بأهله » ثم تغير الحال عند سكان المدن ، فلم يبن احد منهم خيمة ليلة عرسه ، فأصبح من الخطأ استعمال كلمة « بنى بأهله » ما دام هو لم يبن .

وكان تزمته هذا وتمسكه الشديد بالنصوص يجعله يكره « القياس » في اللغة والنحو ولا يعمل به ؛ اي انه لا يقارن بين الأشياء المتشابهة ليستخرج من ذلك ما يراه ممكناً بل يكتفي بالنص المتفق عليه . من اجل ذلك شبهه البعض بالآلة الحافظة تلتقط ما يؤتى لها ؛ فقال « ابن جني » : « كان الأصمعي ليس ممن ينشط للمقاييس ؛ وانه معروف بقلة انبعاثه في النظر وتوفره على ما يرى ويحفظ »(١) . وقد انصفه بعض الباحثين فقال : « انه كان كشيوخ المحدثين ، متشدداً واقفاً عند النص اللغوي يكره القياس ويبغضه »(٢) .

والذي نراه ان الأصمعي يتجنب القياس ولا يعمل به ، لا عجزاً منه وضعفاً عن تطبيقه والخوض فيه ولكنه كان يرى رأي بعض المحدثين الذين يعتقدون بأن العمل بالقياس في تفسير القرآن والحديث يسبب الاختلافات في الرأي ، ويفسح المجال لدخول البدع في الدين والانحراف عن الأصل . وكذلك الأصمعي يرى بأن القياس في اللغة والنحو يسبب حدوث الاخطاء

---

(١) كتاب الخصائص : ج ١ ص ٣٦٦ .

(٢) ضحى الأسلام : ج ٢ ص ٢٧٩ .

فيهما ويبعث الى افسادهما . وأكثر من هذا انه يعتقد بأن الخطأ في الاجتهاد او القياس، في اللغة والنحو، يجر من يعمل به او بفتاويه الى الوقوع اخيراً في الخطأ ايضاً عند تفسير القرآن والحديث، لما بين هذا وذاك من صلة مباشرة .

وأما القول : بأن الأصمعي اراد يوماً ان يدرس علم العروض على استاذه الخليل بن احمد فلم يوفق وعجز عن الاستمرار فيه لأنه يحتاج الى قياس، فمسألة فيها نظر ؛ وذلك لأن الأصمعي كان من أعرف الناس بالشعر وأقدرهم قاطبة على تمييز غثه من سمينه، وصحيحه من مكسوره، وكل ما فيه من زحاف واقواء وغير ذلك ؛ وهو نفسه كان ينظم الشعر سليقة ويرتجله بدون تعب وان لم يكن فحلاً فيه . وقد قال احد معاصريه : « اثنان هما خير من رأينا علماً بالشعر : الأصمعي وخلف الأحمر »[1]، وقال آخر : « كان الأصمعي وخلف الأحمر على نهج واحد في رواية المأثور عن السلف، وهما اللذان فتقا المعاني، وأوضحا المسالك، وبينا المعالم، ولم يكن لهما في علم الشعر نظير »[2] .. فمن كانت هذه منزلته من العلم بالشعر، لا يعجز عن ادراك علم العروض اذا اراد درسه، مع العلم بأن مقاييس العروض غير القياس في اللغة والنحو، نوعاً ونتيجة .

ولكن الذي نراه محتملاً - فيما اذا صحت الرواية هذه - هو ان الأصمعي رأى علم العروض، الذي ابتكره استاذه الخليل، علماً لا يفيد غير الذين لا يحسنون نظم الشعر، ولم يوهبوا السليقة الفطرية في التمييز بين الصحيح والمكسور من اوزان الشعر ؛ ولم يجد هو نفسَه في

---

(١) طبقات النحاة : ج ٢ ص ٢٤٨ .
(٢) المزهر : ج ٢ ص ١٢٧ .

حاجـة الى اضاعة وقتـــه في درس مقاييس هذا العلم ودوائره وحساباته وتقطيعه ، فتركه .

ولم يكن الأصمعي يتجنب القياس ولا يعمل به فحسب ، بل كان يبغضه ولا يقر غيره على العمل به ، ويعارض من يحبذه . والظاهر ان ذلك كان معروفاً فيه عنـد الناس ، فكان بعض الظرفـاء من اصحابه يمازحونه بذكرهم القيـاس امامه وتحبيذهم له .. وقد حدثنا الأصمعي نفسه عن شيء من ذلك قال : دخلت على الفضـل بن الربيع يوماً ، وبين يديه العباس بن الأحنف الشاعر ؛ فقال العباس للفضـل : دعـني اداعب الأصمعي ، فقال له : لا تفعل فإنه لا يحتمل العبث ، قال : ان رأى الأمير ان افعل ، قال : ذاك اليك . فلما دخلت وأخذت مجلسي قال لي العباس : يا ابا سعيد ، من الذي يقول :

اذا احببت ان تصنع شيئـاً يعجب الناسـا
فصـــور هاهنا فوزاً وصـور ثم عباسـا
فإن لم يدنوا حتى ترى رأسيهما راسـا
فكذبها بما (قاست) وكذبه بما (قاسا)

فقال لي ابن ابي العلاء الشاعر ـ وكان حاضراً ـ : إنه اراد ان يعبث بك وهو نبطي فأجبه على هذا ؛ فالتفت الى العباس وقلت له : لا اعرف من قال ذلك ، ولكنني اعرف الذي يقول :

اذا احببت ان تصنع شيئـاً يعجب الخلقـا
فصور هاهنا (دوراً) وصور هاهنا (فلقا)
فان لم يدنوا حتى ترى خلقيهـما خلقـا
فـكذبهـا بما لاقت وكذبه بمـا يلقى

فوجم العباس ، وضحك الفضل وقال له : قد نهيتك عنه فلم تقبل [1] .

عدا ما ذكرنا من تضييق الأصمعي دائرة الأخذ في اللغة فقد كان لا يفسر ولا يتكلم في تفسير ما له شبه في القرآن .. يقول ابو حاتم : سألت الأصمعي عن « الصرف » و « العدل » فلم يتكلم فيه . وقلت له : هل معنى (الربة) جماعة من الناس ؟؟ فلم يقل فيه شيئاً لأن في القرآن (ربيون) اي جماعة منسوبة الى الرّبة . ولم يتكلم في كلمة « سرى واسرى » لأنه قرىء في القرآن (واسر بأهلك - وأسر بأهلك) وكذلك في كلمة « عصفت » لأن في القرآن (ريح عاصف) ولا في (نشر - وانشر) ولا في (سلك - واسلك) لأن في القرآن (ما سلككم في سقر ؟) ولا في (نكر - وانكر) لقوله تعالى (قوم منكرون) ولا في (كننت الحديث - واكننته) لأن في التنزيل (بيض مكنون) و (ما تكن صدورهم) ولا في (وعى - وأوعى) لأن في القرآن (جمع فأوعى) .. الى آخر ذلك [2] .

وكان لا يفسر ولا ينشد ما كان فيه ذكر الأنواء لقوله عليه السلام : « اذا ذكرت النجوم فأمسكوا » [3] . ولا يفسر ما كان متشابهاً مع بعض نصوص الأحاديث . ولا يفسر ولا ينشد شعراً يكون فيه هجاء الا ما ندر . ولا يذكر في الأساطير شيئاً [3] .

خلاصة القول ، ان الأصمعي كان يضيق دائرة الأخذ في اللغة والقواعد النحوية ، بينما كان غيره من اللغويين والنحاة في عصره يوسعون نطاق اخذهم جهد الطاقة .. يقول ابو حاتم السجستاني : « كان الأصمعي يقول

---

(١) الأغاني : ج ١٥ ص ١٤٣ .
(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٠٥ .
(٣) المزهر : ج ٢ ص ٢٠٧ .

افصح اللغات ويلغي ما سواها ؛ وابو زيد يجعل الفصيح والشاذ واحداً ، فيجيز كل شيء قيل .. ومثال ذلك ان الأصمعي يقول : حزنني الأمر يحزنني ، ولا يقول احزنني ، وهما جائزان لأن القراء قرأوا ـ لا يحزنهم الفزع الأكبر ، ولا يحزنهم الفزع الأكبر ـ بفتح الياء وضمها » [١] .

ولذلك قيل : « كان الأصمعي يجيب في ثلث اللغة وابو عبيدة يجيب في نصفها ، وابو زيد يجيب في ثلثيها ، وابو عمرو بن كركرة يجيب في كلها » . [٢] وقيل غير ذلك ايضاً .. ونحن وان كنا لا نلتفت الى مثل هذه التصانيف الحسابية لما يحتمل ان يكون فيها من جزاف في الحكم ، نرى بأن تشديد الأصمعي هذا وتضييقه جعل رواياته وآراءه امتن وأصح واوثق من روايات غيره وآرائهم . ولذلك أخذ عنه في اللغة والنحو اكثر مما أخذ عن زملائه الآخرين .

*

وكان وحيد عصره في رواية الشعر وفهمه ونقده وتحليله ، ولم يجاره احد في هذا الميدان لكثرة ما جمع من الأشعار ووعاها وحفظها ورواها وفسرها وتعمق في درسها ، وعرف شعراءها وسيرهم وأخبارهم وقبائلهم ومنازلهم ومذاهبهم ، حتى صار يعرف الشاعر من شعره بدون عناء ، وقلما يخطىء في ذلك .

وهو ـ باعتراف خصومه ـ احسن من كشف معاني الغريب في القريض ، والتفت الى الأخطاء الدقيقة فيه اذا وجدت ، وميز بين الصحيح والمنحول ، والغث والسمين ، والمبتكر في معانيه والمسروق منها .. وقد

---

(١) المزهر : ج ١ ص ١٣٩ .
(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٥٠ .

عرف اللغويون وأدباء عصره فضله وطول باعه في هذا المجال فتجنبوا مناظرته فيه . وسماه بعضهم « شيطان الشعر »(١) لعلمه بخفاياه وأسراره ، وقال آخرون : « هو اسد الشعر والغريب والمعاني »(٢) . وشهد بفضله خصمه اللدود « ابن الأعرابي » احد كبار علماء اللغة والأدب في عصره ، فقال : « شهدت الأصمعي وقد أنشد نحواً من مئتي بيت من الشعر ، ما فيها بيت عرفناه »(٣) . ويقول صاحب كتاب « الأغاني » المعروف بغزارة ادبه : « كان للأصمعي مواقف في تفسير الشعر تدل على عبقريته ونبوغه في فهم الأدب والشعر خاصة »(٤)

وفي رواية : ان رجلين كانا يتناظران في الشعر ، ويتحدثان في غريبه ، فمر بهما الأصمعي وهما يتجادلان ؛ فتوقفا عن الكلام ، وقال احدهما للآخر متمثلاً ببيت الشاعر « ساعدة بن جدية » :

وما ينجي من الغمرات إلا   براكاء القتال او الفرار

ثم استأنفا حديثهما بعد مروره ، وذلك إكباراً لفضله وعلمه في ميدان الأدب والشعر(٥) .

وقيل : انه كان يوماً في حلقة استاذه ابي عمرو بن العلاء ، وكان هذا ينشد ابياتاً للحطيئة حتى وصل الى قوله :

وغررتني وزعمت انك   لابِن في الصيف تامر

اي كثير اللبن والتمر ، فقال الأصمعي : اني اقرأه « لا تني للضيف

---

(١) كان هارون الرشيد يقول له : « انت شيطان الشعر » .

(٢) السيرافي : ٦٢ .

(٣) نزهة الألباء : ١٦٣ .

(٤) الأغاني : ج ١٣ ص ١٤٣ .

(٥) السيرافي : ٦٢ .

تامر » اي لا تتوانى عن ضيفك تأمر له بتعجيل القرى ؛ فقال له ابو عمرو: انت في تصحيفك هذا اشعر من الحطيئة [1] .

وسأل الأصمعي مرة جلاّسه عن معنى قول الخنساء في رثاء اخيها صخر :

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس

فقالوا : معنى ذلك انهـــا تذكره صباح مساء ، قال : لا ، ولكنها ارادت بقولها هذا انها كانت تذكر أخاها صخراً عند طلوع الشمس وقت الغارة والغزو لأنه كان من الفرسان ، وتذكره عند غروبها وقت القرى واطعام الضيف لأنه كان من الأجواد .. فقاموا وقبلوا يده [2] .

وبلغ بعلمه وفهمه للشعر انه قال : اقمت في المدينة بالحجاز زمناً ، ما رأيت عند رواتها قصيدة واحدة سالمة الا مصحفة او مصنوعـــة [3] .. وقال : جالست حماد الراوية فلم اجد عنده ثلاثمائة حرف ، ولم ارض عن روايته للشعر . [4] وفي أخباره انه كان يسمع القصيدة الطويلة ويطرب لها ، حتى اذا جاء فيها شعر منحول او مصحف قطب جبينه حـــالاً وصاح : « نقحوها » فكأن احداً اخبره بذلك .

لا شك ان الذي اوصـــله الى هذه المكانة من النبوغ وفهم الشعر وادراك معانيه وفحصه بهذا الميزان الدقيق ، امور كثيرة : منهـــا تعشقه للشعر والأدب حتى صـــار له غذاءً روحياً لا مناص منه ، وهو الذي يقول : « من لم يلهه الأدب عن اهله واوطانه لم ينجب » ؛ وفي رواية اخرى انه قال لأحد معارفه : « الا أخبرك عن كنز لا يفنى ، وصـديق لا

(١) الأغاني : ج ١٣ ص ١٤٣ .
(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢١١ .
(٣) المزهر : ج ٢ ص ٢٤٥ .
(٤) العمدة : ج ١ ص ٧٥ .

لا ينسى ، وثوب قشيب لا يبلى ؟؟ » قال : وما هو ؟؟ قال الاصمعي : « انه الأدب » .. وثاني هـذه الامور ، كثرة ما حفظ من الشعر على أنواعه وألوانه حتى صار اذا سمع شيئاً منه تواردت على ذاكرته الحافظة كل ما شابه ذلك الشعر من معنى ولفظ وقاعدة نحوية ، فيدرك في الحال صحته من خطئه وحسنه من رداءته . ثم ان تبحره في غريب اللغة واتقانه لها سهلا عليه فهم الشعر مهما كان غريباً .. يقـول : « حفظت للحجر سبعين اسماً ، وحفظت لغيره أضعاف ذلك فكيف يكون الغريب عندي غريباً ؟؟ » .

أما مذاهبه في قبول الشعر وأخذه ونقده وتفسيره فكثيرة نجدها في مناظراته ومحاضراته ورواياته .. يقول صاحب « كتاب العمدة » : كان مذهب الاصمعي في شعراء الجاهلية وما بعد الاسلام كمذهب ابي عمرو الذي يفضل شعراء الجاهلية ، ويقول عن الآخرين : « ما كان حسناً فقد سبقوا اليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم . ليس النمط واحداً ، ترى قطعة ديباج وقطعة مسح وقطعة نطع[1] » .. وكان لا يكتفي بأخذ الشعر دون محاولة معرفة صاحبه ، والمناسبة التي قيل فيها ، والمكان الذي أنشد فيه ، ومن كان حاضراً ساعة الانشاد ، وماذا علق الحاضرون على أقوال الشاعر من آراء ، وبماذا أجابهم ، وكيف كانت النتيجة بعد ذلك من استحسان وتقدير ، أو استهجان وعقاب .. وفي أخبار الأصمعي مواقف كثيرة تدل على علمه بذلك في بعض ما يروي من الشعر[2]

كان يحاول عند أخذه الشعر معرفة كل ما يتعلق به من أخبار بالتفصيل ؛

---

(١) العمدة : ج ١ ص ٧٥ .

(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٥ .

فأن عجز عن ذلك اكتفى بما حصل عليه من اسم الشاعر ومناسبة الشعر ، فأن لم يجد هذا بحث عن قبيلة الشاعر وعشيرته لكي يقول عند روايته : « أنشد احد بني فلان » . أما اذا غاب عنه كل ذلك وعثر على الشعر مجرداً اكتفى عند روايته بقوله : « قال احدهم » او « أنشدنا احد الاعراب ». وقلما وجدنا شعراً رواه الاصمعي دون ان يذكر اسم قائله ، او قبيلته على الأقل .

وكان لا يقبل الشعر المنحول او المصحف ، واذا قبله ثم علم بذلك الغاه من دفاتره ، او رواه مجرداً دون نسبته الى احد ، وربما ذكر صورة التصحيف فيه والانتحال ، وشرح ذلك لطلابه وسامعيه منعاً للوقوع في الخطأ . وكانت له من الكفاءة العلمية والأدبية ما يستطيع بها تقدير ذلك .. قيل ان ابا عبيدة روى ابياتاً للحاجب بن زرارة ، احد شعراء نجد ، يقول فيها :

شتان هذا والعناق والنوم والمنهل البارد في ظل الدوم

فسمع الأصمعي بذلك فقال : كذب ابو عبيدة ، انما هو « والمنهل البارد في الظل الدوم » اي الدائم ، وأما قوله : في ظل الدوم ، فمعناه في ظل شجر الدوم ، وشجر الدوم ينبت في الحجاز ، والشاعر نجدي ، وليس لأهل نجد شجر الدوم [1] .

وهو ـ عدا ذلك ـ لا يروي شعراً قط إلا بعد تذليل الغريب من ألفاظه ، وفهم معناه ووجوه تفسيره ومعالجة القواعد النحوية فيه اذا وجدت . وأكثر من هذا انه كان يبحث في مدوناته وذاكرته ليعلم ما اذا كان معنى ذلك الشعر مبتكراً ام مقتبساً من شعر سبقه ؛ واذا كان

---

(١) نزهة الألباء : ١٢٨ .

مبتكراً فأي الشعراء اقتبسه فيما بعد ، فإن وجد شيئاً من هذا قارن بين الشعرين من حيث الجودة والسبك وجمال اللفظ والديباجة ووضوح المعنى .

واذا وجد في الشعر خطأً في اللفظ او التشبيه ، اشار الى ذلك الخطأ .. يقول مثلاً : اخطأ « ابو النجم الراجز » في اشياء اخذت عليه منها قوله :

وهي على عذب روي المنهل
دحل ابي المرقال خير الأدحل
من نحت عاد في الزمان الأول

والخطأ فيه ان « الدحل » لا تورده الأبل انما تورده الركايا ، وهذا خطأ معيب ؛ ثم قوله عن الدحل : « من نحت عاد » والدحلان لا تحفر ولا تنحت ، انما هي خروق وشعاب في الأرض وفي الجبال لا تصيبها الشمس فتبقى فيها المياه ، وهي هوة في الأرض يضيق فمها ثم يتسع فيدخلها ماء السماء (١) .

وله في تفسير الشعر مذاهب يختص بها احياناً دون غيره من رواة الأدب ، ويختلف في الرأي بها عن اللغويين الآخرين .. يقول ابو هلال العسكري في بحث التصحيف حول بيت جاء في معلقة امرىء القيس يصف به طول الليل : « رواه الأصمعي هكذا :

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان الى صم جندل

وفسره كما يأتي : مصامها ، اي مصام الثريا ، ومعناه موضعها ومقامها ؛ وهو يصف الليل ، وان نجومه لا تسير من طوله ، فكأن لها أوخي في الأرض تحبسها . هذا مذهب الأصمعي . وقد رأيت بعض علماء اللغة

---

(١) الأغاني : ج ٩ ص ٨٣ .

يروونه على شكل آخر و يفسرونه بخلاف مذهب الأصمعي فيقولون :

كأن نجوماً علقت في مصامه بأمراس كتان الى صم جندل

ومصامه ، يعني مصام الليل ؛ والفرق ظاهر بين المذهبين » (١) .

وللشعر عند الأصمعي قيم تختلف باختلاف أنواع الشعر : فهو يعبأ بالشعر الجاهلي المتين ويتخذه شاهداً يحتج به في درس اللغة وضبط القواعد النحوية ويفضله على غيره ؛ ويروي القصائد الطوال لكبار شعراء الجاهلية والاسلام لأجل الأدب اولاً ثم كسند يثبت صحة أخبار الحوادث والمناسبات التي قيلت تلك القصائد فيها . وأما القطع الشعرية القصيرة النادرة في معناها ورقة ديباجتها فيدخرها لأنشادها والتحلي بها في المجالس والمنتديات ؛ كما يحتفظ بالشعر الظريف الفكه ليرصع به ملحه ودعاباته وطرائفه . وحتى الشعر التافه في نظره كان يحفظه للفرص والمناسبات . وله في كل ذلك أثر ضخم قلما خلا كتاب ادبي قديم من شيء منه .

على ان الذي نأخذه على الأصمعي هو اهماله لشعر الهجاء اولاً ، معتقدين بأنه ـ لا شك ـ عثر على ثروة ثمينة من هذا اللون الأدبي فأهمله ولم يروِه ؛ ولو رواه لأضاف الى كنوز الشعر ثروة اخرى . ثم انه كان يتجنب اخذ الشعر وروايته اذا كان فيه ما يخالف مذهبه ومعتقداته وآراءه الدينية والسياسية والاجتماعية ؛ وربما عزف عن رواية شيء من ديوان كامل لشاعر مجيد لأنه كان يدين بمذهب او عقيدة غير مذهبه وعقيدته .. حدث « التوزي » قال : رأى الأصمعي في يدي جزءاً فيه من شعر « السيد الحميري » فقال : لمن هذا ؟؟ فسترته عنه لعلمي بما عنده فيه ؛ فأقسم علي ان أخبره فأخبرته ، فقال : انشدني قصيدة منه ، فأنشدته قصيدة ثم اخرى

---

(١) خزانة الأدب : ج ٣ ص ٢٤٧ .

وهو يستزيدني ، ثم قال : قبحه الله ما اسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه ؛ ولولا ما في شعره ما قدمت عليه احداً من طبقته (١) .

*

ويعتبر الأصمعي من كبار رواة الأخبار .. والأخبار - كما علمنا - مرحلة من مراحل نشوء علم التاريخ ، قبل ان يجمع ويدون بالتسلسل ويصبح علماً مستقلاً بنفسه . ولم يكن في عهد الأصمعي راوية للأدب إلا اذا روى شيئاً كثيراً من اخبار العرب الأقدمين التي اصبحت - فيما بعد - مادة في علم التاريخ وحلقات في سلسلته العامة ، وذلك بحكم ابحاث هؤلاء الرواة عن المناسبات والحوادث التي قيلت فيها تلك القصائد او الخطب والأراجيز والأمثال والشواهد وغيرها مما يدخل في حظيرة اللغة والأدب .

وقد جمع الأصمعي اخباراً كثيرة ، دونها في ألواحه ودفاتره ، ورواها للناس في مجالسه . وهي على انواع : منها ما يصلح ان يكون خبراً من الأخبار التاريخية كذكر الوقائع والحروب والأحلاف والمنافرات في العهد الجاهلي ، او الغزوات والجهاد والفتوح في صدر الاسلام والعهد الأموي ؛ ومنها ما يدخل في سير الملوك والقواد والولاة والشخصيات المشهورة في التاريخ ؛ وبعضها يعتبر جزءاً في تاريخ الشعراء وأحوالهم وسيرهم . كما انه روى بين هذا وذاك اخباراً تكشف جوانب كثيرة من اخلاق القبائل والمجتمعات العربية وتصرفاتهم في معاملاتهم ومشاكلهم وطرق التحكيم عندهم ، الى آخر ذلك . (٢)

قص علينا في بعض رواياته اخبار العمالقة وحروبهم ومجالسهم وطراز

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٤.
(٢) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٩ .

معيشتهم وعاداتهم وأحوال البعض من ملوكهم وكبرائهم . وحدثنا عن العرب البائدة والعاربة والمستعربة . وروى الكثير عن عرب الجاهلية قبيل الاسلام وأيامهم والحروب التي استعرت بينهم : فحكى مثلاً عن حرب « البسوس » بين بكر وتغلب ، وروى اشعار ابطالها امثال « المهلهل ، وجساس بن مرة ، وأخته جليلة ، والحارث بن عباد ، وجحدر ، وغيرهم ». وعن حرب « داحس والغبراء » بين عبس وذبيان ، وعن ابطال بني عبس امثال « زهير بن جذيمة ، وقيس بن زهير ، وعنترة بن شداد » مع ذكر اشعارهم التي قالوها في حروبهم [١] ؛ وتحدث عن فارس بني جشم « دريد ابن الصمة » وعشقه للشاعرة المعروفة « الخنساء بنت عمرو بن الشريد » ؛ [٢] وعن « ربيعة بن المكدم » وبطولاته وحادث مقتله الغريب [٣] . وقص علينا حادث النفار المعروف بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، وما ادى ذلك النفار من تحزب بين القبائل المؤيدة للطرفين ، وما قيل فيه من الأشعار والخطب والأمثال [٤] ؛ وعن المنافسة بين حاتم الطائي والنابغة الذبياني حول « ابنة عفزر » ، وعما اشتهر به حاتم من السماحة والنجدة والفتوة ، وعما وقع من خلاف بينه وبين زوجته « ماوية » وما قال في ذلك من الشعر [٥] . وعن « عمرو بن معدي كرب » وصعلكته في الجاهلية وجهاده في الاسلام ، وروى معظم شعره مع ذكر المناسبات والحوادث التي قاله فيها [٦] . ونقل لنا اخبار الصعاليك والعدائين امثال

---

(١) الأغاني : ج ١٠ ص ١٦ .
(٢) الأغاني : ج ٩ ص ١٤ .
(٣) الأغاني : ج ١٤ ص ١٣٠ .
(٤) الأغاني : ج ١٥ ص ٥٧ .
(٥) الامالي : ج ٣ ص ١٥٢ .
(٦) الأمالي : ج ٣ ص ١٤٦ .

عروة بن الورد والسليك والشنفرى ، واخبار اللصوص وقطاع الطرق واشعارهم ... الى آخر ذلك .

خلاصة القول ، ان المطلع على ما روى الأصمعي من انبـاء عرب الجاهلية وحدهم يكاد يجزم بأنه لم يترك حادثاً خطيراً من حوادث هؤلاء القوم الا روى عنه شيئاً ان لم يكن قد جاء بمعظم أخباره . وهذا ما جعل بعض رواة الأدب والتاريخ يقولون بأنه نقل لنا معظم أخبار الجاهليين وأدبهم .. وقيل انه هو الذي اتى لنا بالمعلقات السبع في شكلها الحالي [١] .

ثم روى الكثير من أخبار العرب في صدر الاسلام و بعده في العهد الأموي حتى أيام بني العباس الأول الذين عاصرهم . ولم يترك خليفة ولا قائداً او والياً او شاعراً الا اعطانا فكرة عن شخصه وسرد لنا بعض اعماله وتصرفاته . وقد تحدث كثيراً عن الصحابة في عهد النبي عليه السلام ولكنه لم يروِ غير النزر اليسير من سيرته ؛ وقد يكون السبب في ذلك اعتقاده بأن الرواية عنه أمر يمس الدين في الصميم ، وهو يتجنب الوقوع في الخطأ والأثم فيه ؛ وربما كان هنالك سبب آخر ، فقد سبق الأصمعي جماعة من رواة الأخبار جمعوا سيرة النبي في كتب عديدة سميت « كتب المغازي » وفيها اعماله وغزواته [٢] ، فلم يجد الأصمعي خبراً لم يرو ، موثوقاً ، في هذا المجال لكي يرويه .

وكان مذهبه في جمع الأخبار وقبولها كمذهبه في اخذ اللغة والأدب والشعر ، فلا يقبل غير الصحيح الثابت ، ولا يركن الى رواية رجل

---

(١) قد يكون الأصمعي روى البعض من المعلقات السبع ، ولا نجزم بأنه رواها كلها .

(٢) من اشهر كتب المغازي التي الفت قبل ظهور الأصمعي في علم الأخبار كتابان، هما « كتاب المغازي لابن مسلم الزهري » المتوفى عام ١٢٤ هجري ، و « كتاب المغازي لموسى بن عقبة » المتوفى عام ١٤١ هجري . وقد ضاع معظم هذه الكتب بل كلها الا كتاب موسى بن عقبة ، فقد وجدت منه نسخة في مكتبة (برلين) جمعها يوسف بن محمد ابن عمر . وقد طبع احد المستشرقين قطعة منتخبة من هذا الكتاب سنة ١٩٠٤ م

مطعون بصدقه ، أو معروف بضعف ذاكرته ، ولا يتأثر بالمغلوط الشائع بين الناس ولكنه يسير على مذهبه في التحقيق والتمحيص والاستقصاء حتى يرد الحقيقة التي يطمئن لها ، غير عابىء ـ بعد ذلك ـ في ان تأتي روايته مخالفة للمألوف الشائع او مناقضة لروايات الآخرين .. كان الناس ـ مثلاً ـ في عهده يتناقلون اشعار « قيس بن الملوح » المعروف بمجنون بني عامر ويتحدثون عن هيامه وتدلهه بابنة عمه « ليلى » ، ولكن الأصمعي ينكر وجود هذا العاشق المشهور ويقول : « في بني عامر عدة مجانين في الحب ، صنعتهم أخيلة الرواة والشعراء ، منهم قيس بن الملوح » ؛ ويروي عدة روايات تدل على صحة قوله[1] .

وهو ـ رغم كثرة ما روى من الأخبار على الشكل الذي بينا ـ لم يؤلف كتاباً في هذا العلم مما يدل على انه لم يعن بعلم التاريخ والسير عنايته بالأدب واللغة وغيرها . ولكن فضله على التاريخ كبير بضخامة ما انتج من مادته وبصدق رواياته التي اعتمد الكثير من المؤرخين عليها في النقل .

ولم يكن مقصراً في « علم الأنساب » ايضاً ؛ اذ كانت صلته الوثيقة بالقبائل وعنايته القصوى بجمع اخبارها وأشعارها وآدابها تقودانه الى معرفة انسابها .. وكان علم الأنساب هذا رائجاً عند العرب الجاهليين وقد نبغ فيهم عدد كبير من النسابة . وبقي الحال كذلك في صدر الاسلام ، فكان ابو بكر الصديق مثلاً من أعرف الناس بأنساب العرب ؛ ثم احتاج المسلمون الى هذا العلم لأجل العطاء على الأنساب حسب « ديوان عمر بن الخطاب » ، فوسعوه وثبتوه ودونوه .

---

(١) نزهة الألباء : ١٣٧ .

وقد نبغ في العصر الأول العباسي جماعة من علماء النسب ، اختصوا به وألفوا فيه أمثال « هشام بن محمد » المعروف بابن الكلبي ، وغيره . ولكن الأصمعي لم ينصرف بكله الى هذا العلم ولم يكن في طليعة القوم به ؛ لذلك كانوا اذا ذكروا علماء الأنساب قدموا غيره عليه وان لم يؤخروه كثيراً عن باقي علماء الأدب والأخبار فيه . وله روايات معروفة في انساب العرب الأقدمين ومن جاء بعدهم ، وحتى في انساب عتاق الخيل المعروفة بالعدو السريع .

وقد رأينا في قائمة أسماء مؤلفاته « كتاب النسب » ولكنه من الكتب الضائعة فلم نستطع الجزم في لفظة هذه الكلمة ، أبفتح النون أم بكسرها . ولكننا وجدنا أثناء بحثنا عن أخبار الأصمعي كتاباً في المكتبة الوطنية في « باريس » مخطوطاً بالكوفي على ورق من الجلد باسم « العرب من أبناء هود » يبحث في أنساب ملوك وأمراء اليمن الاقدمين وأخبارهم ؛ وقد كتب في مقدمته : ان ابا حاتم السجستاني قد نقله عن استاذه الأصمعي من محاضرات كان القاها في بغداد .

عدا ذلك ، كان الأصمعي ـ كما قلنا ـ اختص بقراءة « نافع ، وأبي عمرو بن العلاء » وانه كان يلقي دروساً في هاتين القراءتين من القراءات القرآنية السبع . وهو ـ كما علمنا ـ من حفظة القرآن ، ومن اعرف الناس بمعانيه ولكنه لم يفسره تجنباً للخطأ وتخوفاً من الأثم .. ولم يرو من الأحاديث غير النزر اليسير ، ولم يفسرها تديناً ايضاً ، ولكنه كان ـ لا شك ـ يحفظ الكثير منها ، وان لم يروه ، بحكم قوة حافظته وكثرة ما يتردد على سمعه من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام . وكل ما رواه منها فهو صحيح بشهادة الأئمة الكبار ورجال الحديث في صدقه .

وكان ملماً بعلوم أخرى كانت تتصل بفروع اختصاصه كعلم الجغرافيا . وله روايات فيها ، يتعلق بعضها بذكر مساحات قسم من البلاد الاسلامية وحدودها وطبيعتها وانهارها ومناخها والممالك المجاورة لها ؛ ولكن بشكل بدائي بسيط لا ينطبق انطباقاً صحيحاً والمقاييس الجغرافية الحالية ؛ وله مؤلفات في ذلك منها كتاب « مياه العرب » و « جزيرة العرب » و « الدارات » وهي مصنفات تدل عناوينها على انها تبحث في بعض المسائل الجغرافية مع شيء من اللغة والأدب . والكتابان الأولان مفقودان ، الا كتاب « الدارات » الذي سنتحدث عنه في مكان آخر .

من هذا كله نفهم بأن جل اختصاص الأصمعي كان في « اللغة والنحو والأدب والشعر والأخبار » وقد نبغ فيها نبوغاً فائقاً فعد في طليعة علماء العرب بها . كما أنه ألمّ إلماماً واسعاً بباقي العلوم الأخرى التي تتصل بها ـ في ذلك العهد ـ اتصالاً وثيقاً ، قبل ان تكتمل وتصبح علوماً مستقلة بنفسها . . وكان الغالب على مذاهبه في كل هذه العلوم قاعدتان : اولاهما ، تضييق دائرة الأخذ ، وثانيهما التمسك بالنصوص والتقيد بها والابتعاد عن الاجتهاد والقياس توخياً للصدق .

*

بقي علينا ان نعلم ما اذا كان الأصمعي يحسن اللغة الفارسية ويتكلم بها أم لا ، وقد وجدناه في بعض ابحاثه اللغوية يرجع مصادر الكلمات المستعربة الى اصلها الفارسي ، او يقارن بعض الكلمات العربية بما يشابهها من الكلمات الفارسية في المعنى [1] ؟ ؟ !

في الواقع اننا لم نجد في الأخبار ما يفيد بأنه عني بدراسة هذه اللغة

---

(١) ادب الكاتب : ١٤٩ .

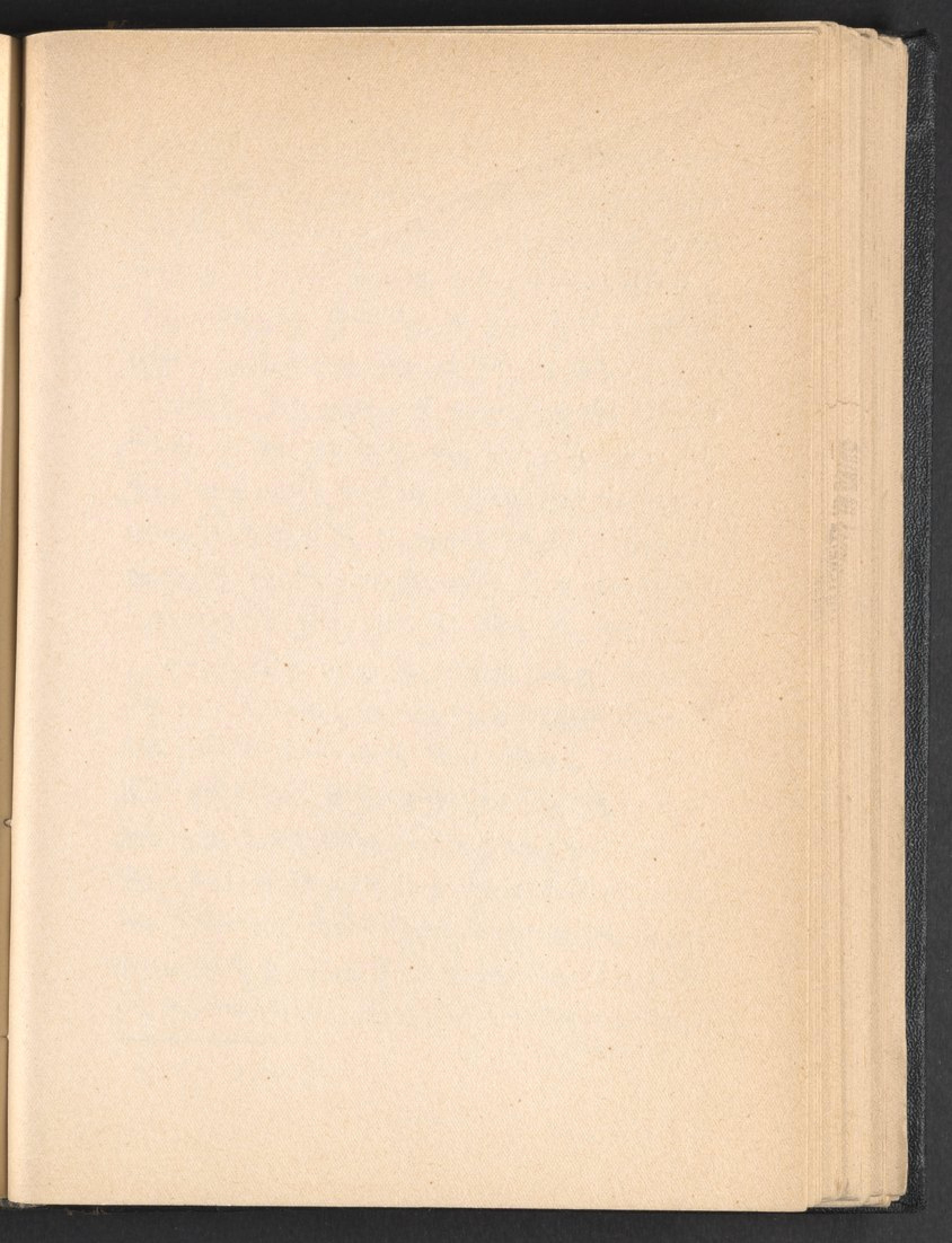
عناية خاصة في وقت ما . ولكننا لو رجعنا الى المحيط الذي وجد فيه الأصمعي وخالطه طوال حياته لرأينا بأن اللغة الفارسية كانت في متناول يده لكثرة الأسر الفارسية المستوطنة في البصرة ، ولقرب هذه المدينة من تخوم فارس . وقد دلت الروايات المتواترة على ان القسم الأعظم من هؤلاء الفرس كانوا يتكلمون لغتهم الأصلية القومية فيما بينهم ، في الأسواق والأزقة والمجتمعات ، وحتى في مسجد البصرة بين الطلاب من الموالي .

والفارسية ، كما هو معروف ، لغة عريقة بالأدب والعلم والحضارة الفكرية . وفي البصرة عدد كبير من فحول الشعراء وكبار العلماء من اصل فارسي ؛ وفيهم من يتكلم الفارسية بين زملائه وبني عنصره على الدوام .. وبديهي ايضاً ان يجد الاصمعي من بين رجال الفكر الذين يخالطهم ويحتك بهم من ينشد الشعر الفارسي حين يجد في الشعر العربي معنى مشابهاً له ، او عند مقارنة فكرة بفكرة ، او ما شابه ذلك في كل مناسبة سانحة .

وهذا يدل على ان الأصمعي كان محاطاً بمن يتكلم هذه اللغة في كل مكان ، وانه كان يسمعها في ليله ونهاره ، وحتى اثناء اتصاله ببلاط هارون الرشيد واحتكاكه بالبرامكة والعناصر الفارسية الاخرى في بغداد . فاذا تذكرنا حافظة الأصمعي اللاقطة ، وحاجته احياناً الى التفاهم مع من لا يحسن العربية من هؤلاء الأعاجم الكثر في البصرة وبغداد ، غلب على ظننا انه قد ألم باللغة الفارسية الماماً واسعاً ، يجعله جديراً بأن يقارن بين بعض الكلمات العربية والكلمات الفارسية المشابهة لها في المعنى ، ويرجع المستعرب منها الى اصله الفارسي كما رأينا في بعض آثاره [1] . وربما كان يتكلم الفارسية عند الحاجة وان لم يكن ممن يألفها لكرهه الشديد للعنصر الفارسي .

---

(١) المزهر : ج ١ ص ١٦٥ .



القسم الرابع

في دار الخلافة

١٧٣هـ - ١٨٨هـ

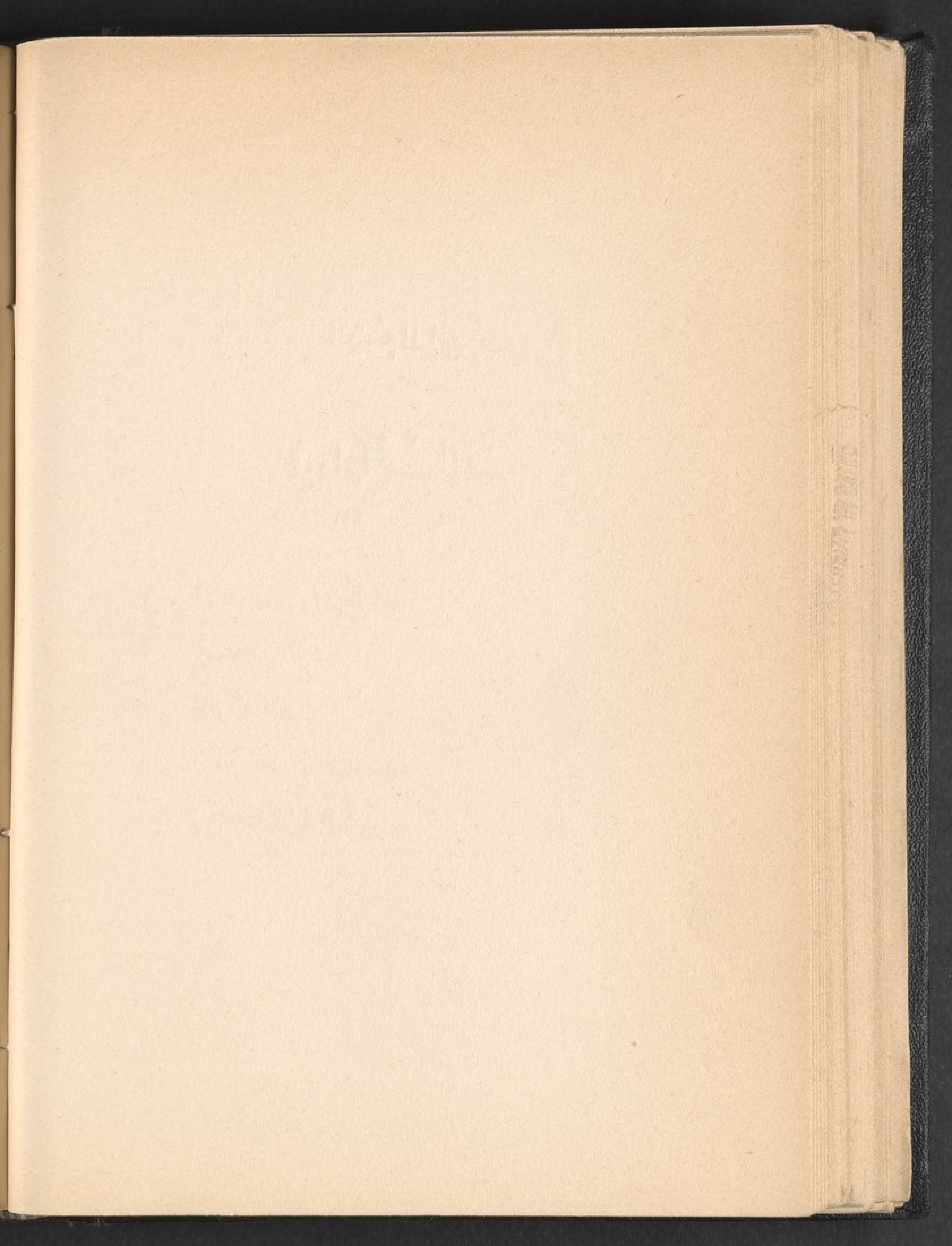
١ ـ الاتصال بهارون الرشيد

٢ ـ في مجالس الرشيد

٣ ـ الفوائد الثلاث

٤ ـ أثره في مصرع البرامكة

٥ ـ تركه بلاط الرشيد



الاتصال بهارون الرشيد

تولى الرشيد الخلافة عام (١٧٠ هـ - ٧٨٦ م) ولما يتجـاوز الثالثة والعشرين من العمر [١] . ولم يمض - يومئذ - على بناء مدينـة بغداد اكثر من ربع قرن ؛ ولكنها كانت - خلال هـذه الفترة القصيرة من الزمن - قـد مشت شوطاً بعيداً في مضمار التقـدم العمراني والاجتماعي والفكري بفضل كونها عاصمة الخلافة ، ومستودع بيت المال ، ومصدر الكسب والغنى .

والمعروف جيداً ان حركة بغـداد الفكرية كانت قبساً من نور تلك النهضة العلمية والأدبية في كل من مدينتي البصرة والكوفة ، لكثرة من نزح منهما اليها من حمـلة الأقلام وقادة الفكر وعباقرة الأدب والشعر ، فضلاً عن التجـار الموسرين وأرباب السيف ورجال الادارة ممن أشغلوا المناصب الخطيرة في بلاط بني العبـاس ودولتهم .. فكان طبيعياً ان تنتقل ، مـع بعض هؤلاء ، مؤلفات الكثيرين من الشيوخ البصريين والكوفيين وتنتشر في اجواء المتعلمين والمتأدبين من ابناء العاصمة الجديدة . وكان طبيعياً ايضاً ان تتسرب اخبار المجتمع الفكري في البصرة بين صفوف البغداديين ، فيتحدث المعنيون بشؤون تلك النهضـة عن المسجد الجامع والمربد ومجالس المناظرات والمناقشات وما ينـثر فيها من الطرائف والنوادر والأخبار ، وعن سير اولئك النوابغ الذين يبذلون الجهود الجبارة في سبيل جمع اللغـة وتركيز قواعد النحو ولم شتات الأدب والشعر القديم ، ويبنون قواعد النهضة العربية الاسلامية .

ولم يمض على استقرار هارون الرشيد في احضان خلافته اكثر من

---

(١) ولد هارون الرشيد بن محمد المهدي في مدينة الري عام (١٤٨ هجري) .

عامين او ثلاثة حتى استقرت الأحوال وانتظمت الأمور وازدهرت الحياة في البلاد ، بفضل من ساهم في تسيير دفة الحكم من رجال الدولة وفي مقدمتهم « يحيى بن خالد البرمكي » الذي شغل منصب الوزارة وأدار مقاليد الأمور بيد قادرة حازمة (١) .. وبدأ جو بلاط الخلافة يصفو ويروق ويتضخم بأكبر الشخصيات المنتقاة من شيوخ العلم والأدب والرأي بشكل يدعو الى الاعجاب والتقدير . فكان ممن اريد ضمه الى هذه المجموعة النادرة فيه واحد من مشاهير علماء البصرة ورواة الادب والشعر يكون نداً لعلي بن حمزة « الكسائي » معلم الرشيد وأحد مشايخ الكوفة البارزين . فاستقر الرأي على استقدام كل من الأصمعي وابي عبيدة ليختار الرشيد أحدهما ؛ وأودع تنفيذ امر احضارهما الى « الفضل بن الربيع » الحاجب (٢) .

وقدم الاثنان الى بغداد في وقت واحد ـ عام ١٧٣ هـ على وجه التقريب (٣) ـ فنزل الأصمعي ضيفاً على صديقه الأمير « سعيد بن سلم الباهلي » الذي كان ـ يومئذ ـ مقرباً في بلاط الخليفة ؛ ونزل ابو عبيدة عند شخص آخر من اصحابه . فاهتم المجتمع العلمي البغدادي بمقدمهما اي اهتمام ، وتبودلت الزيارات والحفاوة بهما ، واجريت المناظرات

---

(١) كان يحيى بن خالد البرمكي من عباقرة الرأي والفكر . وقد رضع الرشيد ثدي احدى نسائه فصار له اباً في الرضاعة ؛ وهو الذي عني بتربيته وتأديبه منذ الصغر وبقي بجانبه حتى تولى الخلافة فصار وزيراً له .

(٢) كان الحاجب « الفضل بن الربيع » هو الذي يعنى بحاشية الرشيد ، ويستقدم من يريد مواجهته ، وينظم اوقات زيارة الوفود ومقابلتهم للخليفة .

(٣) نعتقد بأن الاصمعي وابا عبيدة قدما بغداد في هذا التاريخ لأن الرشيد اختار الفضل بن الربيع حاجباً له في عام ١٧٣ هجري ، وفي هذه الفترة كان وزير الرشيد « الفضل بن يحيى البرمكي » بجانب ابيه ، وسنرى الأصمعي يقابل الرشيد بوجود هذا الوزير معه .

بينهما وبين علماء بغداد واساتذتها ، وانشغل الجو الفكري والادبي بهما عدة أيام . ثم انقسم الناس بينهما الى جانبين ، كل جانب منهما يفضل صاحبه ويريده للمنصب الجليل الذي قدما من أجله .

والظاهر ان أخبار المنافسة والصراع العنصري بين الأصمعي وصاحبه في البصرة كانت قد سبقت وصولهما بغداد . فلما ورداها وجدا نفسيهما في جو يشبه جو البصرة ، لا يختلف عنه في شيء ؛ فهنا جماعة من العرب تريد النجاح للأصمعي وتشيد بذكر محاسنه ودماثة خلقه وتعدد مثالب خصمه ؛ وهناك جمهرة من الموالي والشعوبيين تفضل ابا عبيدة وتنوه بغزارة علمه وتظهر عيوب منافسه . ومما قاله الشاعر ابو نواس في تلك الفترة : « انهم لو امكنوا ابا عبيدة لقرأ عليهم اخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعي فليس غير بلبل يطربهم بنغماته » .. اما رجال البلاط ، فانهم وقفوا صامتين أمام هذه الضجة ، تاركين الخيار للخليفة هارون الرشيد .

ولكن الذي نلمسه من سير الحوادث ان البرامكة كانوا يتمنون في سريرتهم ان يكون المقدم لهذا المنصب ابا عبيدة لأنه فارسي ؛ غير انهم يعرفون ما فيه من سوء الطبع وسلاطة اللسان وحدة تطرفه بشعوبيته ، مما قد يثير لهم المشاكل التي هم في غنى عنها ؛ فوقفوا موقف المحايد من الأمر ولم يعيروه كثير التفات ، واكتفوا بأن اقاموا مأدبة فخمة للرجلين ، مظهرين لهما جانب الود والاعجاب على حد سواء .. وكان الفضل بن الربيع يعرف اخلاق الرجلين حق المعرفة ، ويعتقد بأن الأصمعي أصلح لمجالسة الخليفة من صاحبه ، ويؤيده في ذلك عدد من رجال البلاط ، منهم صديقه سعيد بن سلم الباهلي . ثم ان الفضل بن الربيع كان في

خصومة صامتة مع البرامكة لأسباب يطول شرحها [1] ، فليس من رغبته ان يزيد في حاشية البلاط شخصاً من الفرس الشعوبيين ليكون عوناً للبرامكة عليه .

وانتهت المشكلة بأن قرر ابن الربيع الحاجب تقديم الأصمعي قبل صاحبه الى الرشيد ، وهو واثق بأنه سيرضيه ويعجبه بغزارة علمه وأدبه في اول مقابلة تكون معه ؛ فإذا اختاره ورضي عنه انسد الطريق امام ابي عبيدة ، وانحلت الأزمة . وفي الحال أوعز للأصمعي ان يتأهب لمواجهة امير المؤمنين في مجلسه عند اول فرصة ، فأصلح هيئته ، ولبس اجمل ثيابه ، وقصد « قصر الخلد » حيث يقيم الرشيد ؛ ومكث في جناح الانتظار يترقب الساعة الموعودة .

كان هارون الرشيد ـ يومئذ ـ في السادسة والعشرين من عمره ، فتى في ريعان الشباب ، ابيض اللون طويل القامة ، في جبهة بيضاء ناصعة ، وعينين كبيرتين دعجاوين ، وشعر اسود كثيف يتجعد حول قلنسوة سوداء ملتاثة بعمامة رقيقة من الخز الأسود ، حاد الذكاء جميل نبرات الصوت ؛ يحب العلم ويجل العلماء ، ويتذوق الأدب بوجه خاص ، ويحفظ الكثير من الشعر ، وله سليقة في نظمه ، وبراعة في نقده . وكان تقياً يصلي في اليوم مائة ركعة ويتصدق كل صباح بألف درهم ، ويبكي للموعظة ولا يحب المراء والجدل في الدين ؛ ولكنه حاد المزاج سريع الغضب والنقمة

---

(١) كان يحيى بن خالد البرمكي يكره الفضل بن الربيع لأنه شديد الاعتداد بنفسه ، ذكي طموح ، وكان ابن الربيع يكره البرامكة ايضاً منذ كان هو حاجباً ووزيراً للخليفة الهادي الذي أراد خلع هارون الرشيد من ولاية العهد . فلما تولى الرشيد الخلافة تمكن يحيى البرمكي من اقصاء الفضل بن الربيع عن المناصب مدة ثلاثة اعوام (انظر الطبري سنة ١٧٣ هـ) .

اذا استثير ، سريع العفو والرضى اذا استرضي بلباقة ؛ مرهف العاطفة والشعور ، ندي الكف الى أبعد حدود الندى ؛ وهو بحكم شبابه وحيويته يسرف باللذة الى أقصى ما يبيحه الشرع للمسلم .. وله عدا ذلك صفات اخرى ليس هذا موضعها (١) .

أما الأصمعي فكان قد ناهز الخمسين ، ولم يكن الشيب قد وخط عارضه بعد ، متماسك الجسم ، متدفق النشاط ؛ في روح مرحة تتوقد حيوية وظرفاً ، وذاكرة ما زالت في قوتها تلتقط وتجمع وتذكر ما كنزت وادخرت؛ ورغبة جامحة نحو الكسب ، وطموح الى الشهرة والمجد .. وقد حدثنا هو عن شعوره المضطرب ساعة وصوله قصر الخلد ، وكيف كانت الآمال تملأ جوانب صدره ، والأحلام تبشره بتحقيقها (٢) .

وطال به الانتظار يومين او ثلاثة ، وهو في ضيافة حرس القصر ، يحدثهم ويسامرهم بنوادره وطرائفه حتى ألفوه فأحبوه وأكرموه ورغبوا في نجاحه وتوفيقه . ثم كانت ساعة اللقاء فخرج عليهم الخادم في ليلة كان الرشيد يسمر فيها مع وزيره الفضل بن يحيى البرمكي ، فقال : هل بالحضرة أحد يحسن الشعر ؟؟ قالوا : هذا الأصمعي . فقام اليه ، وهو يقول في نفسه « انا صاحبك الذي طلب فأدمن وحفظ فاتقن » (٣). فأخذ الخادم بيده نحو البهو الذي يجلس فيه الرشيد ، وقال له : ادخل ، عسى الله ان يختم لك بالاحسان لديه .

روى لنا صاحب كتاب « العقد الفريد » (٤) عن لسان الأصمعي

---

(١) اختلف المؤرخون في وصف اخلاق الرشيد والأصح هو ما ذكرنا .

(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٥ .

(٣) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٦ .

(٤) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٥ .

نفسه ، وصفاً مسهباً جداً لتلك المقابلة ، وما دار بينه وبين الخليفة ووزيره الشابين من أحاديث أدبية طريفة ومساجلات فكرية دقيقة ، تعطينا صورة واضحة عن اجواء السمو في قصر الرشيد التي لبث فيها صاحبنا - بعد ذلك - خمسة عشر عاماً أو يزيد .

ملخص ذلك أن الأصمعي دخل البهو المزين بالالوان والذهب والفرش النادرة ، فوجد الخليفة في ابهى زينته جالساً في الصدر ، وبجانبه وزيره البرمكي ، وحولهما الشموع المضيئة على قضب المناور والخدم وقوف على مقربة منهما ؛ فأحس في نفسه شيئاً من الروعة ، ولكنه تقدم الى حيث يسمعان صوته؛ ثم سلم ، فردا عليه السلام ، وأمره الرشيد بالجلوس ريثما تسكن نفسه ، فجلس قليلاً ، ثم بدأ بالكلام مخاطباً الرشيد : « يا أمير المؤمنين .. اضاءة كرمك ، وبهاء مجدك مجيران لمن نظر اليهما من غير اعتراض اذية له . اتسألني فأجيب أم ابتدىء فأصيب ، بيمن امير المؤمنين .. وفضله ؟؟ » (١) .

فتبسم الفضل ، ثم قال للرشيد : ما أحسن ما استدعى الاختيار ، ولقد استسهل الفاتحة ، وأجدر به ان يكون محسنا . انه والله يا امير المؤمنين ، قدم مبرزاً محسناً في استشهاده ، على براءته من الحيرة ، وأرجو ان يكون ممتعاً .

قال الرشيد : أرجو ذلك ؛ ثم قال للأصمعي : أدن .. أشاعر أم راوية ؟؟ قال : راوية يا امير المؤمنين . قال : لمن ؟؟ قال : لذي جد وهزل بعد ان يكون محسناً . قال : ما رأيت ادعى للعلم ، ولا اخبر

---

(١) اراد الأصمعي بكلمة و« فضله » تورية بين الافضال وبين وجود الوزير الفضل وهي التفاتة جميلة اعجبت - لا شك - الفضل بن يحيى البرمكي .

بمحاسن بيان فتقته الأذهان منك ، ولئن صدرت حامداً اثرك لتعرفن الفضل موجهاً اليك سريعاً ..

سأله الرشيد عن ارجوزة للشاعر « رؤبة بن العجاج » يمدح فيها احد خلفاء بني امية ، فأنشده الأصمعي اولها حتى اذا وصل إلى مدح بني امية انتقل حالاً الى ارجوزة للشاعر نفسه في مدح جد الرشيد « ابي جعفر المنصور » فسر الرشيد الى هذه الالتفاتة البارعة .

ثم سأله عن قصيدة للشاعر « عدي بن الرقاع » في مدح « الوليد ابن يزيد الأموي » والتي مطلعها :

عرف الديار توهماً فاعتادها

فراح الأصمعي يجري في انشادها . فكان الرشيد يوقفه عند كل بيت منها ويقول له : ماذا قال الوليد عندما سمع هذا البيت ؟؟ فيجيبه الأصمعي ، وكأنه كان حاضراً في ذلك المجلس ، فيعجب الرشيد باجوبته وصحة روايته ، ويناقشه احياناً في قوله - وكان الرشيد قد درس اخبار هذه القصيدة - ثم يسأله عما قال الشعراء الحاضرون في ذلك المجلس حين انشادها ، فيجيبه الأصمعي بما كان قد جرى ، فيقول : احسنت .

ثم انتقل الخليفة الى شاعر آخر كان يحفظ اكثر شعره وهو « ذو الرمة » وقال له : هل رويت للشاعر ذي الرمة شيئاً ؟؟ قال الأصمعي : الأكثر يا امير المؤمنين .. قال الرشيد : والله لا اسألك سؤال امتحان ، ولا كان هذا عليك ، ولكني اجعله سبباً للمذاكرة ، فإن وقع عن عرفانك ، وإلا فلا ضيق عليك بذلك عندي .. ثم سأله معنى بيت غريب لهذا الشاعر ، فانطلق الأصمعي في تفسيره ، وأتى بالشواهد والأدلة والحجج ، وما زال كذلك حتى قال له الرشيد : اصبت .

ثم تحول بعد ذلك الى ذكر الشاعر « الشماخ بن مزرد » وسأله عن قصيدة من قصائده فأنشدها الأصمعي له .

وهكذا ظل الرشيد يسأل والأصمعي يجيب ، والفضل بن يحيى يصغي ، ويعلق احياناً على أقوال هؤلاء الشعراء مداعباً الرشيد باعتراضات خفيفة تشير الى بداوة العرب وسذاجتهم ، فيرد عليه الرشيد مدافعاً عن الفكر العربى ومعرضاً بالقومية الفارسية .

ودام المجلس طويلاً حتى قال الرشيد للأصمعي : « أمسك ، واستغفر ربك ثلاثاً .. لقد وفيت ، وامتعت منشداً ، ووجدتك محسناً في ادبك ، معبراً عن سرائر حفظك » . ثم نهض ، فتبادر الخدم ، فأمسكوا بيده حتى نزل عن فراشه ، وقال : يا غلام ، علي بصالح الخادم ، فجاء صالح ، فقال له : يؤمر للأصمعي بتعجيل ثلاثين الف درهم في ليلته هذه . فقال الفضل بن يحيى : لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ، ولا يأمر فيه أحد مثله لدعوت له بمثل ما أمر به أمير المؤمنين .. ثم أمر له بتسعة وعشرين الف درهم .. فخرج صاحبنا وفي يده مبلغ من المال لم يحلم بمثله قبل ذلك (١) .

كانت هذه الجلسة أشبه بامتحان صعب خرج الاصمعي منه ناجحاً بجدارة وتفوق . وهي في الحقيقة مقابلة تاريخية بالنسبة له ، غيرت مجرى حياته ، وفتحت أمامه باباً واسعاً نحو عـــالم جديد معبدة طرقه ومسالكه نحو الشهرة والمجد والغنى .

وبعد أيام قليلة منها اجتمع أبو عبيدة والأصمعي عند الرشيد في مجلس عقد نهاراً ، فحادثهما بعض الأحاديث ؛ ثم قال لأبي عبيدة : يا معمر ، بلغني ان عندك كتاباً حسناً في صفة الخيل ، قال : نعم ؛ فقال الأصمعي : ان

---

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٨ .

يسمح أمير المؤمنين ان يحضر فرساً فيقوم كل واحد منا و يضع يـده على أعضائه واحداً واحداً و يسميه و ينشد ما قيل فيه .. فأمر الرشيد باحضار فرس فأحضر ؛ فقال الأصمعي لأبي عبيدة : قم فسم لنا أعضاءه ؛ فقـال أبو عبيدة : أنا لست بيطاراً ، وانما هي لغة أخذتها عن العرب . فقام الأصمعي ، وصار يضع يده على كل عضو منه ، و يقول اسمه ، و ينشد ما قالت الشعراء فيه ، حتى اتمه . فقال الرشيد لأبي عبيدة : ما تقول فـيما قال ؟؟ قال : قد أصاب في بعض وأخطأ في بعض . والذي أصاب فيـه شيء نعلمه ، والذي أخطأ فيه لا ندري من أين جـاء به [1] .. وفي رواية : أن الرشيد قال للأصمعي حين انتهى من ذلك : « خذ الفرس لك » [2] .

وقبل ان يعود ابو عبيدة الى البصرة ، دعاه الفضـل بن الربيع الى مجلسه وأكرمه من ماله الخاص ؛ ثم استحصل له من عند الخليفة منحـة كبيرة ترضيه وتخفف عنه وقع تلك النتيجة على نفسه . فعاد الى البصرة ، وبقي الأصمعي في بغداد ليكون بجانب امير المؤمنين [3] .

في مجالس الرشيد

كان الرشيد من أشـد الخلفاء عناية بتنظيم مجالسه والمحافظة على نظمها وآدابها ، رغم كثرتها وتنوعها واختلاف القواعــــد في عقدها .. اهمها وأخطرها « مجلس الأسرة » الذي ينظر في شؤون السياسة العليا المتعلقـة

---

(١) نزهة الألباء : ١٤٥ .

(٢) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٧ ــ رأينا هذه الرواية في عدة مصادر ، وقد زعم البعض ان هذا الحادث جرى في مجلس الفضل بن الربيع لا في مجلس الرشيد .

(٣) ابن خلكان : ج ٤ ص ٣٢٧ .

بأمر العرش والبيعة بولاية العهد وما شابه ذلك ؛ وهو مجلس استشاري لا يحضره غير الشخصيات الكبيرة من اسرة بني العباس ، ولا يعقد إلا في المناسبات الخطيرة القليلة الوقوع .

وهنالك « مجالس النظر » في شؤون الدولة العامة ، وهي كثيرة تعقد باستمرار للنظر في امر من امور سياسة الدولة ، كإرسال الجيوش للجهاد والفتوح ، او لاخماد ثورة في ناحية من نواحي المملكة ، او في تبديل اداري وتنقل بين الولاة والعمال ، او تعيين اشخاص جدد في مناصب خطيرة ، الى آخر ذلك . ولا يحضر هذه المجالس غير وزير التفويض – ويكون عادة من البرامكة – ومن يطلب حضوره من ذوي الاختصاص في الأمر الذي عقد المجلس من اجله ، للمشورة وأخذ الرأي .

ثم المجالس الخاصة وتدعى « مجالس الرشيد » التي تعقد له في أوقات فراغه ، وهي على انواع : منها ما يكون خاصاً بالفقهاء والعلماء ، ومنها ما يكون للأدباء والشعراء ؛ و بعضها يكون خاصاً بالولاة ورجال الادارة وقواد الجيوش . وهي أشبه بمجالس ثقافية علمية لا تخلو من ثمرات يفيد منها الرشيد علماً او رأياً او خبراً . وليس لها وقت معين تنعقد فيه ، ولكنها تجتمع له بالمناسبات بين فترة وأخرى كلما سمح وقته بذلك .

ولكل طبقة من طبقات هذه المجالس الخاصة لباس معين يتحلى به عند الحضور . ويكون الرشيد رئيس ذلك المجلس المنعقد ، والمدير لدفة المباحثات والكلام فيه ، فلا يتحدث احد من الحاضرين إلا بإذن منه ، ولا تجري المناظرات الا بموافقته و بعد سؤال يلقيه هو بنفسه على احد الحاضرين ، او على جماعة منهم ، او عليهم جميعاً . ولا يسمح لأحد ان يتجاوز حدود الآداب المسنونة ، ومن يخطىء يعاتب او يعنف او يطرد

من المجلس .

تكلم الأصمعي مرة في أحد هذه المجالس ولم يراع قواعد الآداب فقال له الرشيد ـ بعد انفضاض المجلس ـ : « يا عبد الملك ، انت أحفظ منا ، ونحن أعقل منك . لا تعلمنا في الملا ، ولا تسرع الى تذكيرنا في الخلا ، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال ، فإذا بلغت بالجواب قدر استحقاقه فلا تزد . واياك والبدار الى تصديقنا وشدة التعجب مما يكون منا . وعلمنا من العلم ما نحتاج اليه على عتبات المنابر وفي اعطاف الخطب وفواصل المخاطبات . ودعنا من مخاطبة حوشي الكلام وغرائب الأشعار ؛ واياك واطالة الحديث الا ان نستدعي ذاك منك . ومتى رأيتنا صادفين عن الحق فأرجعنا اليه ما استطعت من غير تقرير بالخطأ ولا اضجار بطول التردد . » فقال الأصمعي : يا امير المؤمنين ، اني الى حفظ هذا الكلام أحوج مني الى كثير من البر [1] .

ومن مجالسه ايضاً ما يسمى « مجلس المصاحبة » او المؤانسة ، وهو مجلس يعقد احياناً في النهار في الساعة التي يحس بها الخليفة بتعب نفسي أو ملل فكري ؛ فيدعو اليه من يأنس بمجالسته وترتاح اليه نفسه من أحد الأمراء المقربين أو العلماء البارزين أو الأدباء الظرفاء أو الشعراء أو غيرهم . ويتكون هذا المجلس عادة من شخص واحد أو شخصين أو بضعة أنفار . ولا يشترط في هذا المجلس لباس خاص ، ولا تفترض فيه قيود شديدة للمجالسة . وهو أشبه بمجالس « السمر والمنادمة » التي تعقد عادة في الليل وتكون فيها حرية الكلام والتندر والملح واسعة كل السعة . وكان الرشيد قد خصص لهذا اللون من المجالس بيت مال خاص سماه « بيت مال

(١) المقريزي : ٥٩ .

السرور » لتقديم المنح والأعطيات الى هؤلاء السمار والندماء المقربين كلما ارتاحت نفسه .

أما مجالس اللهو والغناء والمضحكين واللعب بالشطرنج وغيرها فلها طابع آخر وحديث يطول شرحه ولا حاجة هنا الى ذكره .. بيد ان الذي يستحق الذكر هنا ، هو أن الرشيد كان من أسعد الخلفاء حظاً في كثرة من اجتمع في بلاطه من نوابغ عصره ومؤسسي تلك الحضارة الاسلامية المجيدة . يقول الجاحظ : « اجتمع له أقطاب الجد والهزل ، فكان وزيره داهية السياسة والتدبير يحيى بن خالد وابناه الفضل وجعفر اللذان لم يرَ مثلهما سخاءً وسروراً ؛ وكان قاضيه أبو يوسف القاضي صاحب الفتاوى وفقيه زمانه ومؤلف كتاب (الخراج) النادر في نوعه ؛ ونديمه عم أبيه العباس بن محمد الهاشمي ، ومن قواده يزيد بن مزيد الشيباني وهرثمة بن اعين ، ومن جلاسه الأصمعي عبد الملك بن قريب صاحب النوادر والاخبار وأعذب من تحدث وحكى ؛ وحاجبه الفضل بن الربيع وهو أتيه الناس وأشدهم تعاظماً ؛ ومن أطبائه جبريل بن بختيشوع ، ومن شعرائه ابو العتاهية ومروان بن ابي حفصة وأبو نواس ، وهم أمراء الشعر في عصره ، ومن مغنيه ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق ؛ وضاربه زلزل ،وزامره برصوم ، ومضحكه ومؤنسه ابن أبي مريم المدني » (١) وغير هؤلاء آخرون كثيرون وقد حدثتنا الأخبار عن اسماء عشرات من الفقهاء والعلماء والأدباء ورجال السيف والرأي والأدارة .

ولا نبتعد عن الواقع اذا شبهنا بلاط الرشيد هذا ببلاط « لويس الرابع عشر ملك فرنسا وأكبر عاهل في اوروبا بين عامي ١٦٤٣-

---

(١) تاريخ بغداد : ج ١٤ ص ١١

١٧١٥ م) وان كان الرشيد قد سبقه بألف سنة تقريباً . فقد اجتمع لكل منهما في بلاطه عباقرة العصر وقادة الفكر . فوزير لويس الرابع عشر « مزران » داهية اوربا السياسي والاداري اشبه بيحيى بن خالد في زمانه في معظم الوجوه ؛ وشعراؤه « راسين ، ولافونتين ، و بوالو » كأبي العتاهية ، ومروان بن ابي حفصة ، وابي نواس في حكمهم وغزلهم وانتاجهم ؛ وادباؤه في نقد فن الشعر « روشفوكو ، ولابروير ، وفليشيه » اشبه بالكسائي ، ويحيى بن المبارك اليزيدي ، وعمرو بن كلثوم العتابي ، وجليسه « موليير » في مسرحياته الفكهة الظريفة قريب الشبه بالأصمعي في رواياته ونوادره عن الاعراب .. وقد اطلق الفرنسيون على عصر لويس اسم « عصر الشمس والنور » كما اطلق العرب اسم « العروس » على ايام هارون الرشيد لجمالها و بهجتها ورقي العلم والأدب والفن فيها . على ان ما اجتمع في بلاط الرشيد من العباقرة والقواد اكثر مما اجتمع في قصر لويس رغم الفارق في الزمن .

بدأ الأصمعي في أول عهد اتصاله ببلاط الرشيد يحضر مجالس العلم والأدب مع غيره من زملائه ؛ ثم صار يشترك في المناظرات والجدل حول الموضوعات التي يجيدها ، كلما سنحت الفرص . وكان كعادته ، لا يناقش الا فيما يعلم علم اليقين ، ولا يصر على رأي الا بعد الوثوق من صحته ، فكان التوفيق حليفه في اكثر المواقف ؛ فاتجهت اليه الأنظار وصار يحسب له في هذه الاجتماعات حساب . ثم بدأ الرشيد ، شيئاً فشيئاً ، يدرك قيمة الأصمعي النابغ ، ويلتفت اليه حين يبدي رأيه ، ويصغي بكله الى سحر انشاده للشعر ، و يعبأ بمناقشاته مع الآخرين ، حتى صار يعجب كل الأعجاب بلباقته ومنطقه و بغزارة علمه وخفة روحه وسرعة بديهته .. قيل :

سأل الرشيد يوماً عن كلمة « محرم » في بيت الشاعر « الراعي » :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً ودعا فلم أرَ مثله مخذولا

فقال الكسائي : كان محرماً بالحج ؛ قال الأصمعي : هذا خطأ ؛ فأصر الكسائي على رأيه ؛ فقال الأصمعي : فقولهم :

قتلوا كسرى بليل محرماً تركوه لم يمتع بكفن

هل كان كسرى محرماً بالحج وهو غير مسلم ؟؟ قال الكسائي : فما معنى (محرماً) هنا اذاً ؟؟ قال : معناه لم يحل من نفسه ما يوجب القتل. فاقتنع الكسائي وقال له الرشيد : « ما تطاق في الشعر ، يا أصمعي » ؛ ثم التفت الى الحاضرين وقال لهم : « لا تعرضوا له في الشعر » (١) .

وفي مجلس آخر ، قال الرشيد : انشدونا ما قيل في وصف العقاب ؛ فسكت القوم ، ولم يأتوا بشيء ، فقال الأصمعي : احسن ما قيل فيها :

باتت يؤرقها في وكرها سغب وناهض يخلس الأقوات من فيها

وقول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

فقال له الرشيد : « ما بعل (احتار) القوم في شيء الا وجدت عندك فيه شيئاً » (٢) .

وانشد احدهم ابياتاً حتى وصل الى :

وذات هدم عار نواشرها تصمت بالماء تولباً جذعا

فقال له الأصمعي : صحفت ، انما هو (جدعا) بالدال لا بالذال ومعناه « سيىء الغذاء » واصر المنشد على قراءته ، فقال الأصمعي : هو كما

---

(١) السيرافي : ٥٩ – تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١٦ .

(٢) ديوان المعاني : ج ٢ ص ١٤٢ .

قلت لك ولو نفخت بألف شبور . ثم احتكما فكان الصواب فيما قال الأصمعي . فقال له الرشيد : « انت شيطان الشعر » (١)

وانشد الكسائي في حضرة الرشيد ابياتاً للشاعر « افنون التغلبي » حتى وصل الى قوله :

ام كيف ينفع ما تعطى العلوق به ريحان انف اذا ما ضن باللبن ؟؟

قرأها (ريحان) بفتح النون فقال الأصمعي هي بضم النون ؛ وتجادلا في ذلك ، فحكم من كان في المجلس بصحة قول الأصمعي (٢) .

ودار الحديث مرة حول معنى بيت غريب فاختلف الجالسون في تفسيره ، وجاء دور الأصمعي في الكلام ففسره بغير ما فسره الآخرون وأتى بمعنى جديد في تفسير كلماته ، وأوضح ذلك بمرادفات ألفاظه ، وروى الأشعار التي جاءت فيها تلك الألفاظ حتى أتم المطلوب . فلم يخف الرشيد اعجابه بعلمه وقال له : « ان الغريب عندك ليس بغريب » قال الأصمعي : ألا اكون كذلك يا امير المؤمنين ، وقد حفظت للحجر سبعين اسماً ؟؟ » (٣)

ويقول الأصمعي : كنا عند الرشيد ، وبحضرته ابو يوسف القاضي ؛ وكان الحديث عن صلة اللغة بالاجتهاد الفقهي ، فسألت ابا يوسف عن الفرق بين « عقلت القتيل » و « عقلت عنه » فلم يفهم ، فقلت له : (عقلت القتيل) اذا اديت ديته ، و (عقلت عنه) اذا ألزمته دية فأديتها عنه .. فاستحسن ذلك (٤) .

ما كان الأصمعي مجهولاً بين زملائه رجال العلم والأدب قبل ان يحضر مجالس

---

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢٢٨.
(٢) كتاب المجالس : ٧٢ .
(٣) المزهر : ج ١ ص ١٨٩ ـ الصناعتين : ٢٥٧ .
(٤) نزهة الألباء : ١٦٥ .

الرشيد معهم . ولكنهم ما كانوا يعرفون فيه تلك الكفاءة واللباقة التي بدت منه اخيراً بينهم ، وقد استعان هو بكل ما لديه من هبات طبيعية لجلب انظارهم اليه . فلم يمض طويل وقت عليه حتى برزت شخصيته بينهم ، فأحبوه وقربوه ، وأكرموه في حضوره ، وتفقدوه في غيابه ، وربما احتاجوه فأرسلوا اليه من يدعوه ، أو بعثوا له بمشكلة استعصت عليهم ليجيب فيها . . قيل إن الرشيد سأل يوماً عن صدر البيت الذي عجزه :

« ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟؟ »

فلم يجب أحد من حاضري مجلسه ؛ فقال : أين الأصمعي ؟؟ قالوا : مريض في بيته ، قال : احملوا اليه ألف دينار لنفقته وسد حاجته واكتبوا بهذا اليه . فحمل الرسول المال والسؤال ، وأتى دار الأصمعي بهما ، فرد الجواب على الرقعة يقول : انشدنا خلف الأحمر لأبي النشناش الأعرابي :

وداوية تيهاء يُخشى بها الردى   سرت بأبي النشناش فيها ركائبه

ليدرك ثأراً أو ليكسب مغنما   جزيلاً وهذا الدهر جم عجائبه

وسائلة أين الرحيل وسائل   ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟

وروى القصيدة كلها [1] .

وازداد اعجاب الرشيد به على مدى الأيام ، حتى صار يعتب عليه اذا تغيب عن مجلسه وقتاً ما ، ويشير اليه بالجلوس اذا نهض القوم وانفضوا ، ليخلو به ويتحدث معه ؛ ويسامحه اذا زل ، ولا يغضب عليه . . يقول : دخلت على الرشيد ومجلسه حافل ـ وكنت قد غبت عنه زمناً فقال : ما اغفلك عنا يا أصمعي وأجفاك لحضرتنا !! قلت : والله يا أمير المؤمنين ، ما

---

(١) المزهر : ج ١ ص ١٠١ .

« لاقتني » بلاد بعدك حتى أتيتك ؛ فأمرني بالجلوس ، وسكت عني . فلما خلا المجلس نهضت ، فأشار الي بالبقاء حتى لم يبق غيري ، ثم قال : يا أبا سعيد ، ما معنى قولك « لاقتني » ؟؟ قلت : امسكتني ، وانشدت :

كفاك كف مـا تليق درهماً جوداً واخرى تعطي بالسيف دما

قال : « هـذا حسن ، وهكذا فكن ؛ وقرنا في الملا وعلمنا في الخلا ؛ فانه يقبح بالسلطان ان لا يكون عالماً . فأما ان أسكت فيعلم الناس اني لم افهم اذا لم أجب ، وأما ان أجيب بغير الجواب فيعلم من حولي أني لم أفهم ما قلت » (١) .

ولكن هذه المكانة في بلاط الرشيد ، وتلك الحظوة عنده ، لم ترضيا الأصمعي كل الرضا ، فقد كانت نفسه تحس بشيء من وطـأة القيود المفروضة على الحاضرين في آداب هذه المجالس العلمية ، والتقيد بقواعد الكلام فيها ، والتحفظ من الوقوع في الخطأ أمام هـذا الخليفة الأنيق بألفاظه ، السريع الالتفاتة الى هفوات محدثيه ، ولكل لسان هفوة اذا طال حديثه . . سأله مرة عن مسألة يعرفها فقال ساهياً : « على الخبير سقطت ، يا أمير المؤمنين » فأجابه فوراً : « اسقطك الله على رأسك » فخجل الأصمعي من غلطته (٢) .

ثم ان الأصمعي ـ كما رأينا ـ اشبه بالطائر المغرد ، قلما يغني حبيساً في قفصه كما يغرد طليقاً في ارجاء روضه ؛ فلم يستطع في مجالس الرشيد هذه المقيدة ان ينطلق على سجيته ، ويتنقل كما تشتهي نفسه من لون الى لون في الأدب ؛ حتى فتحت له ابواب مجالس الصحبة والسمر والمؤانسة ، حيث

---

(١) تاريخ بغداد : ج ١٤ ص ٩ .
(٢) محاضرات الأدباء : ج ١ ص ١١٧ .

تتسع الحرية وتنعدم التكاليف وترفع القيود وتغدق المنح والهبات من « بيت مال السرور » ؛ فأقبل على دنيا الرشيد مرح النفس مرتاح الفكر، يتألق بمواهبه ، ويملأ اجواء قصر الخلد بنوادره ورواياته وملحه وانشاده الشعر الجميل ، وكل ما كان يدخره لنفسه ويبخل به على الغير ، حتى تمكن من قلب الرشيد ونال اعجابه الى حد قوله له : « لا حسن لدنيا لا يكون فيها مثلك ، يا أصمعي »[1] .

قيل انه كان يفتنّ في إلقاء نوادره في مجالس الرشيد هذه ، ويتأنق بجمال صوته وحسن القائه فتهفو اليه الأسماع . فاذا نسب نادرة منها الى قبيلة معينة تكلم بلهجتها كأنه واحد منها او اعرابي من بنيها ؛ واذا عزاها الى اعرابي مجهول ، ألبسها ثوب البداوة ، وأضفى عليها خشونة الصحراء بألفاظه وعباراته ووصفه للأشياء ، واذا رواها عن بعض اهل الحضر كساها لوناً من ألوان الحضارة وترف المدينة ، واستعمل اصطلاحات ذلك البلد الذي يروي الحكاية على لسان اهله . واذا انشد شعراً اختار المناسبة له ، ثم يلقيه فكأنه يغنيه بذلك الصوت الساحر . وهو من أمهر الناس في خلق المناسبات لما يريد ان يقول او ينشد ، ومن أبرعهم في تغيير شجون الحديث الى ما يريد عرضه على سامعيه من رأي او فكر .. قال عنه الجاحظ : « .. الأصمعي أعذب من تحدث وحكى » وزامله اسحاق الموصلي في بلاط الرشيد اعواماً فقال : « عجائب الدنيا معروفة ، منها الأصمعي »[2] .

ويكاد يجزم الباحث المدقق في سيرة كل من هارون الرشيد والأصمعي

---

(١) ديوان المعاني : ج ١ ص ٣٠٤ .

(٢) المزهر : ج ٢ ص ١٢٧ .

بأنهما شخصان خلق كل منهما لاتمام سعادة صاحبه الروحية . فالأصمعي الغني بعلمه وأدبه تطمح روحه كل الطموح الى بلوغ الشهرة والمجد والتخلص من الحاجة والفقر والوصول الى الثراء والغنى ، وقد وجد في شخص الرشيد ومجالسه وسخاء يده ضالته .. والرشيد صاحب المجد والسلطان والمال ، يتعشق الشعر ويفهمه ، ويطرب للنادرة ويقدرها حق قدرها ، ويستمتع بالملحة ويضحك لها بروح فتية وذكاء متيقظ وقاد ؛ وقد وجد في الأصمعي جليساً نادر المثال في تقواه ونظافة لسانه ، وغزارة علمه وأدبه ، ووفرة روايته وتضلعه في الشعر والنوادر والأخبار ؛ فاصطفاه وأحبه ، وقربه منه وغمره بجوده وعطائه ؛ وسمح له بمقابلته متى أراد وفي أي وقت شاء ؛ ولم يعامل أحداً من زملائه العلماء بمثل هذا غير أستاذه ومؤدبه منذ الصغر « علي بن حمزة الكسائي » . وربما أنس بالأصمعي أكثر منه .

ولم يجحد الأصمعي هذا اللطف والأحسان من قبل الرشيد ، فأحبه بكل قلبه ، واخلص الصحبة والوفاء حقاً ، ولم يحجم عن زيارته ومنادمته و بذل ما لديه امامه من رأي وعلم وأدب . وقد رأيناه يدخل اليه أحياناً في وقت طعامه ، وأثناء مرضه ، وساعة حزنه وتفكيره ، ويمتحن له الجواري اللاتي يريد تسريهن أو شراءهن للخدمة . ثم رأيناه يطلع على بعض اسراره الخاصة ، ويفتي بينه و بين أقرب الناس اليه ؛ ويقيم معه اذا أقام ، ويرحل اذا رحل ، ويحج اذا حج ، ولا يفارقه ولا يبتعد عنه الا في فترات متقطعة تقتضيها الضرورات والظروف الملزمة . . كل ذلك مع الاحتفاظ بآداب المجالسة ، والاحترام لمقام الخلافة .

وللأصمعي روايات كثيرة لا تحصى ، حدثنا فيها عن صلاته بالرشيد في مجلسه ببغداد والرقة ، وفي أسفاره الى جوانب دولته ، عدا الغزوات والحروب ،

فان الأصمعي لم يكن من رجالها .. وفيما يأتي بعض تلك الروايات التي لا تخلو من تأييد لرأينا هذا ووصف للصلة التي ارتبطت بين الرجلين :

قال : دخلت على الرشيد مرة وهو يأكل الفالوذج ، فقال : ايه يا أصمعي ، ماذا قال الأعراب في هذا ؟؟ قلت : يا أمير المؤمنين وأين للأعراب مثل هذا ؟؟ وكان أطيب طعامهم ما وصفه « مزرد بن ضرار » :

ولما مضت أمي تزور عيالها ... هجمت على العكم الذي كان تمنع

خلطت بصاعي حنطة صاع تمرة ... الى صاع سمن فوقها يتريع

وذيلت أمثال الأثافي كأنها ... رؤوس رجال قطعت لا تجمع

وقلت لبطني ابشري اليوم انه ... حمى آمن مما تخاف وتفزع

فان كنت مصفوراً فهذا دواؤه ... وأن كنت غرثاناً فذا يوم تشبع

فضحك ودفع الصحن الي وقال : كل يا أصمعي ، فذا يوم تشبع [1] .

ودخلت عليه يوماً ، وهو محموم ، فقال : انشدني شعراً مليحاً . فقلت : أرصيناً فحلاً يريده أمير المؤمنين ، أم شجياً سهلاً ؟؟ قال : غزلاً بين السهل والفحل . فأنشدته للعديل بن الفرخ العجلي :

صحا عن طلاب البيض قبل مشيبه ... وراجع غض الطرف فهو خفيض

كأني لم ارع الصبا ويروقني ... من الحي احوى المقلتين غضيض

دعاني له يوماً هوى فأجابه ... فؤاد اذا يلقى المراض مريض

لمستأنسات بالحديث كأنه ... تهلل غرٌّ برقهن وميض

فقال لي : أعدها ، فما زلت اعيدها عليه حتى حفظها .

واستأذنت بالدخول عليه مرة ، فوجدته يقرأ ورقة ويبكي . فلما رآ

---

(١) العقد الفريد: ج ٣ ص ٣٨٥ .

(٢) الأغاني : ج ٢٠ ص ١٩ .

قال : اجلس ، فجلست ، فقال : أرأيتني ابكي ؟ قلت : نعم ، قال : اما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا ؛ ثم رمى الي القرطاس وقال : اقرأ ، فاذا فيه شعر لأبي العتاهية يقول :

هل انت معتبر بمن خليت منه غداة مضى دساكره ؟؟
وبمن اذل الموت مصرعه فتبرأت منـه عشائره ؟؟
اين الملوك وأين غـيرهم صاروا مصيراً انت صائره
نل ما بدا لك ان تنال من الدنيا فان الموت آخره

ثم قال : يا اصمعي ، كأني والله أُخاطب بذلك دون الناس ـ وكان الرشيد غزير الدمع عند الموعظة (١) .

وفي ذات يوم ، أمطرت السماء بعد انحباس ، فاستبشر النـــاس ، وكنت اسامر الرشيد وحدي . فقال : اعندك شيء بمناسبة نزول المطر بعد انحباسه ؟؟ قلت : عندي ما اقوله ، وأخشى ان يسمعه جعفر بن يحيى ؛ قال : ما هو ؟؟ قلت : حدثني اعرابي قال : اصابتنا سنة مجدبة ، وعندنا رجل غني وله كلب ؛ فجعل الكلب يعوي جوعاً ، فأنشد صاحبه يقول :

تشكى اليّ الكلب شدة جوعه وبي مثل ما بالكلب او بي اكثر
فقلت لعـل الله يأتي بغيثـه فيضحي كلانا قاعداً يتـأمر
كأني امير المؤمنين من الغنى وأنت من النعمى كأنك جعفر

فأغرق في الضحك وقال : قاتله الله من اعرابي (٢) .

ودخلت الى مجلسه انا ومحمد بن علي المعروف بأبي حفص الشطرنجي ، فلم نجده ، فجلسنا ننتظره حتى خرج علينا وهو كالمتغير النفس ، فجلس

(١) المسعودي : ج ٦ ص ٣٥٩ .
(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ٣٠٤ .

وقال : ايكما قال بيتاً وأصاب المعنى الذي في نفسي فله مني عشرة آلاف درهم ؛ فقال ابو حفص :

مجلس يألف السرور اليه لمحب ريحانه ذكراك
كلما دارت الزجاجة زادته حنيناً ولوعة فبكاك

قال : احسنت ، فقلت :

لم ينلك المنى بأن تحضريني وتجافت امنيتي عن سواك

قال : احسنت ، ثم قال هو :

فتمنيت ان يغشيني الله نعاساً لعل عيني تراك

قلنا : يا امير المؤمنين انت اشعر منا فجوائزنا لك ، فضحك وقال : لا ، انما جوائزكما لكما [1] .

واختلف الرشيد يوماً مع عيسى بن جعفر العباسي في اي الرطب اطيب ، فقال الرشيد : هو رطب (القريتا) وقال عيسى : هو (السكري) ، وقررا الاحتكام إلي ، وأرسلا رسولهما ينشدني ، فجئت ؛ ولكني قبل ان ادخل عليهما سألت الرسول عن سبب دعوتي فأخبرني بالأمر ، فدخلت ، فقصا علي المسألة وطلبا الجواب فقلت : ان (القريتا) أجود من السكري ، وقد كنا في البصرة صبياناً نلعب بالنوى فنجعل نوى القريتا دنانير ونوى السكري دراهم فنعطي نواة من القريتا ونأخذ عشرين من سائر النوى ، فضحك الرشيد لهذا الحكم المعلل بالأدلة [2] .

وبعث الي الرشيد من الرقة وأنا في بغداد ، فتوجهت اليه بأمر من

---

(١) تاريخ بغداد : ج ١٤ ص ٩ – كان ابو حفص لاعب شطرنج ماهر وهو مولى المهدي بن المنصور – وقيل ان اسمه عمر بن عبد العزيز .
(٢) محاضرات الأدباء : ج ١ ص ٣٨٣ .

ابنه الأمين ، فلما دخلت عليـــه ، قال : قد اشتقت اليك ، وعندي جاريتان اهديتا الي ، فأريدك ان تمتحنهما ؛ فامتحنتهما وفضلت احداهما على الأخرى ؛ ثم حدثته طويلاً وسليته و بقيت بجانبه ونلت منه عطاءً جزيلا (١) .

ودخلت عليه يوماً ، وكنت قد انقطعت عنه بالبصرة حولاً كاملاً ، فسلمت عليه بالخلافة ، فأومأ الي بالجلوس قريباً منه ، فجلست قليلاً ثم نهضت ، فأومأ الي ان أجلس ، فجلست حتى خف الناس ؛ ثم قـال : يا أصمعي ، الا تحب ان ترى ولدي محمداً وعبد الله ؟؟ قلت : بلى يا امير المؤمنين ؛ فدعا بهما ، فاقبلا صبيين صغيرين ، وهما يومئذ وليـا عهدٍ له ، فسلما على أبيهما بالخلافة وجلسا ، فأمرني بمطارحتهما الأدب ففعلت ؛ فقال : كيف ترى أدبهما ؟؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت مثلهما بذكائهما ؛ فضمهما الى صدره ، وامرهما بالذهاب ؛ ثم التفت اليّ وفي عينه عبرة وقال : يا أصمعي ، كيف بهما اذا ظهر تعاديهما ، و بدأ تباغضهما ، ووقع بأسهما بينهما حتى تسفك الدماء ، ويود كثير من الأحيـاء انهم كانوا موتى ؟؟ فسكت ولم أجب وعلمت ما في نفسه من هواجس نحوهما (٢) .

وأجرى الرشيد الخيل يوماً في الرقة ، فلما عـدت صار الى مجلسه في صدر الميدان حيث توافي اليه الخيل ، ووقف على أريكته حتى طلعت ، فاذا في أوائلها سوابق من أفراسه ، يقدمها فرسان في عنان واحد لا يقدم احدهما صاحبه ؛ فتأملهما فقال : فرسي والله ؛ ثم تبين الآخر ، فقـال : وفرس المأمون . وجاء الفرسان يحتنكان أمام الخيل ، وجاء فرسه السابق ، وفرس المأمون ثانيه ، فسر الرشيد بذلك سروراً عظيماً . ثم جاءت الخيل

---

(١) نزهة الألباء : ١٦٣ .

(٢) – الدميري : ج ١ ص ٦٤ – يقول الخليفة المأمون بعد موت ابيه ومقتل اخيه الأمين : ان ابي كان قد قال ذلك للأصمعي لأنه سمع من عيسى بن جعفر اخي زبيدة : اننا كنا نكره بعضنا انا والأمين .

بعدهما ؛ فطلبت الأذن بالوصول اليه ، فأذن لي ، وقال : ما عنـــدك يا أصمعي ؟؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، كنت أنت وابنك اليوم في فرسيكما كما قالت الخنساء :

جارى اباه فأقبلا سبقاً   يتقاربان تقارب الحصر
وهما كأنهما وقـد برزا   صقران قد حطا على وكر
برزت صحيفة خد والده   ومضى على غلوائه يجري
أولى فأولى أن يقاربه   لولا جلال السن والقـدر

فازداد سروراً على سروره ذاك (١) .

وقال الرشيد يوماً لزوجته زبيدة وهو يناديهـــا : « يا أم نهـر » وكانت كنيتها « أم جعفر » ، فاستغربت من هذا النداء وظنت انه قصد بذلك شيئاً لم تفهمه ، فأرسلت الي تسألني عن ذلك ، فقلت لرسولها : قل لها ان معنى « جعفر » في اللغة هو النهر الصغير وان أمـير المؤمنين اراد ذلك عن طريق المداعبة ؛ فذهب الرسول واخبرها بما قلت ، فأرسلت الي هدية ثمينة (٢) .

وتحدث الرشيد يوماً في اخبار بني امية ، فذكرت له ان « سـليمان ابن عبد الملك » كان شرهاً اكولاً نهماً ، يجلس ويحضر بين يديه الخراف المشوية ، وهي كما اخرجت من تنانيرها ، فيريد اخذ كلاها فتمنعه الحرارة ، فيجعل يديه على طرف حلتــــه ، ويدخلها في جوف الخروف فيأخـذ ما يريد . فقال الرشيد : قاتلك الله ، ما اعلمك بأخبارهم ؟؟ اذكر انه عرضت علي ذخائر بني امية ، فنظرت الى ثياب يمنية مذهبة ،

---

(١) مروج الذهب : ج ٦ ص ٣٤٨ .
(٢) كتاب المعارف : ٣٢٨ .

وأكمامها ودكة بالدهن ، فلم ادرك ذلك حتى حدثتني بالحديث ؛ ثم قال : عليّ بثياب سليمان ، فأتي بها ، فنظرنا الى تلك الآثار ظاهرة . فكساني منها حلة مذهبة (١) .

الفوائد الثلاث

ودامت صلة الأصمعي بدار الخلافة خمس عشرة سنة . بدأها حين استتب الأمن والاستقرار في دولة الرشيد عام ١٧٣ ﻫ ، وأنهاها على اثر حادث نكبة البرامكة في اوائل عام ١٨٨ ﻫ .. وهي أجمل فترة في تاريخ خلافة الرشيد ، وأزهى حقبة عبرت في ايام دولة بني العباس على الاطلاق. والتي يسمونها « العروس » لبهجتها وتألق نور الحضارة فيها .. عاش الأصمعي خلالها كأنعم ما يكون العيش ، وسعد فيها كألذ ما تكون السعادة : في بغداد على شاطىء دجلة حين يكون الرشيد في بغداد ، وفي الرقة على صفاف الفرات حين يصيف الخليفة فيها ، وأحياناً على اجنحة مواكب السفر في خراسان ، وفي البوادي العربية والمدن الحجازية التي كان يزورها الرشيد للحج في كل عامين مرة .. ولم تنقطع هذه الصلة إلا بعد ان افاد الأصمعي منها فوائد ثلاثاً « علمية ومادية واجتماعية » .

يقول « احمد بن يحيى » المعروف بـ « ثعلب » الذي كاد يعاصره (٢) : « قدم الأصمعي بغداد ، وأقام فيها مدة ، ثم خرج منها يوم خرج وهو أعلم منه حيث قدم بأضعاف مضاعفة » (٣) . ذلك لأنه اتصل بفضل

---

(١) ابن خلكان : ج ١ ص ٤١١ .

(٢) توفي ثعلب عام ١٩١ ﻫ ـ وهو احد علماء الكوفة وصاحب كتاب « مجالس ثعلب » المتداول في عهدنا .

(٣) تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١٧ .

مجالس الرشيد العلمية - بنوابغ عصره وآيات زمانه ، وكلهم اساتذة اجلاء لا يقل واحدهم عن الأصمعي نفسه ثقافة وادراكاً . وما كانت مجالس الرشيد التي انتظمت هؤلاء العباقرة غير اسواق علمية ادبية سامية لا يعرض فيها الا الجيد النادر من الانتاج الفكري ، ولا ينثر على بساطها غير الثمين من عصارة قرائح الشعراء والأدباء الذين نضجت عقولهم فجاؤوا قصر الخلافة ينتجعون الثراء والمجد .. فكان الأصمعي يلتقط تلك الدرر الفريدة من ألسنة هؤلاء بحافظته الجبارة ليدونها في دفاتره حال خروجه من حضرة الرشيد ، ويختزنها دون كد او عناء في سبيل البحث عنها وتنقيحها او تصحيحها كما يفعل بما يأخذه عن الأعراب .

يقول عمرو بن كلثوم العتابي[١] : سألني الأصمعي في دار الرشيد : اي الأنابيب للكتابة اصلح وعليها اصبر ؟؟ قلت : « ما نشف بالهجير ماؤه ، وستر عن تلويحه غشاؤه ، من التبزية القشور ، الدرية الظهور ، القصيبة الكسور » . قال : فأي نوع من البري اصوب وأكتب ؟؟ قلت : « البرية المستوية القطة ، التي عن يمين سنها برية ، يأمن معها المجة عند المدة والمطة .. في شقها فتيق ، وللريح في حرفها حريق ، والمداد في خرطومها دقيق » فبقي الأصمعي باهتاً ينظر الي ولا يحير جواباً [٢] .

وفي رواية للأصمعي : انه كان بحضرة الرشيد ، فجيء له بعبد الملك ابن صالح العباسي مكبلاً بالحديد ، لريبة كانت منه ، فعاتبه طويلاً وحدثه بما كان يحس به نحوه . وكان يحيى بن خالد حاضراً ، فقال لعبد الملك :

---

(١) العتابي هو احد الشعراء والخطباء الفصحاء ، وكان بدوي النزعة ، يرتاد مجلس الرشيد ويمدحه ، وله معه حوادث واخبار .

(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٥٣ .

بلغني انك حقود ! فقال عبد الملك : « اصلح الله الوزير ، ان يكن الحقد هو بقاء الخير والشر عندي ، فانهما لباقيان » فالتفت الرشيد الى الأصمعي وقال له : « حررها ، فوالله ما احتج احد للحقد بمثل ما احتج به هذا » [1] .

ولم تكن مجالس الرشيد تنعقد في قصر الخلد حين يكون في بغداد ، أو في قصر الخلافة حين يكون في الرقة فحسب ، ولكنها كانت تعقد له اينما سار وحيثما حل . فإذا ركب الى الصيد وعسكر في بادية من البوادي جاؤوا له بأعراب ينشدونه الشعر والأرجاز وحتى الحداء ، وربما قصوا له النوادر والأخبار . واذا دخل مدينة من المدن وكان فيها بعض العلماء أو الفقهاء ، عقدوا له المجالس ، وأجروا أمامه المناظرات في مسائل شتى . . قيل : انه دخل المدينة المنورة ذات مرة ، وسأل عمن فيها من الفقهاء والعلماء فذكروا له عدداً منهم وفي مقدمتهم الامام « مالك بن أنس » فاستدعاه مع بعض العلماء ، وطلب منه ان يقرأ له كتابه « الموطأ » فقرأه ، ثم اوعز الى قاضي قضاته ابي يوسف ان يناظره في مسألة فقهية فرفض « مالك » واوعز الى أحد العلماء فناظره بدلاً منه . . والأصمعي حاضر يستمع .

والذي يجب ان لا ننساه هنا بأن الأصمعي لم يغير شيئاً من عادته السابقة في عدم القاء ألواحه من يده حتى خلال هذه الفترة التي قضاها في صحبة هارون الرشيد ، الا في الساعة التي يكون فيها بحضرته . . يقول : خرجنا مع الرشيد الى الرقة فقال لي : هل حملت شيئاً معك من كتبك يا أصمعي ؟؟ قلت : نعم ، حملت منها ما خف حمله ، قال : كم حملت ؟؟ قلت : ثمانية عشر صندوقاً ، قال : هذا لما خففت ، فلو ثقلت كم كنت

---

(١) مروج الذهب : ج ٤ ص ٣٠٣ .

تحمل ؟؟ قلت : اضعافها يا أمير المؤمنين ، فجعل يعجب من عملي [١] .

وشيء آخر يجدر بالذكر ، هو ان الأصمعي لم يقطع صلته بالبصرة اثناء اتصاله بدار الخلافة ، ولكنه كان يغتنم الفرص السانحة كغزو الرشيد لبلاد الروم او تغيبه عن العاصمة في سبيل سفر بعيد يتعلق امره بشؤون الدولة ، فيعود هو الى البصرة ، ويدبر اموره وشؤونه الخاصة ؛ ويتصل بجو المسجد الجامع ويسلم على صحبه فيه وعلى طلابه ، وربما عقد معهم المجالس او ألقى ما لديه من محاضرات جديدة ؛ ثم يتوجه الى المربد ويتصل بأهله الذين كان يألفهم ، ويسألهم عما جد لديهم من الفوائد ؛ واذا وجد الوقت كافياً ركب ناقته وتوغل في البوادي الى القبائل التي ألف زيارتها فيما مضى وينزل في البيوت التي عاشر اهلها زمناً ، ويجمع منهم الفوائد اللغوية والأدبية الجديدة ؛ ثم يعود مسرعاً بعد ذلك الى البصرة ليشد راحلته منها الى بغداد حيث يكون الخليفة قد آب من سفره بعد غيبة طالت او قصرت ، حسب الظروف .

كان يفعل ذلك عن رغبة وشوق الى الاستمرار في الكسب العلمي الجديد والأدبي الطريف ليضيفه الى ثروته التي بين يديه ، ويقدم أثمنها واطرفها على بساط المجالس الفكرية في قصر الخلافة ، ويتجمل بها كشيء جديد له لذته الروحية وثمنه الأدبي .

ولما كانت ساعات اللقاء مع الرشيد في مجالس علمه او سمره محدودة خلال الأسبوع الواحد ؛ كان الأصمعي ينصرف في باقي اوقاته الى حضور مجالس بعض الامراء ووجوه الدولة في بغداد حيث يجتمع العلماء والأدباء والمفكرون ، فتجري البحوث والمناظرات في المسائل العلمية ؛ فكان اكثر

---

(١) الأغاني: ج ٥ ص ٦٨ .

ما يحضر من تلك الاندية مجلس صديقه الباهلي « سعيد بن سلم » الذي كان يقيم اكثر أشهر السنة في بغداد . كما انه كان يتردد أحياناً الى بعض المساجد هناك ، فيسمع المحاضرات في حلقات اكابر الشيوخ ، أو يلقي هو على الناس دروساً في فروع اختصاصه ، فيلتف حول حلقته جمع غفير من العلماء وطلاب العلم[1] .. وهكذا نجده لم ينقطع أبداً عن الدرس والتدريس والافادة والاستفادة حتى قيل : انه خرج من بغداد وهو أعلم منه حيث قدم باضعاف مضاعفة .

*

أما الفائدة المادية ، فقد كان الاصمعي ماهراً في استدرار كرم الرشيد وجوده ، لمعرفته بالنواحي التي يستطيع ادخال السرور منها الى قلبه ، ولبراعته في اختيار المناسبات السانحة في ذلك . ولكنه لم يكن وحده منفرداً في هذا الأمر ؛ بل كان عطاء الرشيد هدفاً لكل رجال الحاشية على الاطلاق ، سواء أكانوا من وزرائه البرامكة ، ام من امراء البيت العباسي ، ام من رجال السيف والادارة والفكر .. وكان الرشيد يغمر كل هؤلاء بفيض عطائه ، فتختلف ضخامة منحه لهم حسب شخصياتهم ومراتبهم ومهامهم وقربهم منه ؛ وفي مقدمتهم وزراؤه البرامكة الذين كانوا في اول أمرهم يتوخون عطاءه ، ثم شاركوه بعد ذلك في ملكه من وراء ستار ؛ ويأتي بعدهم امراء البيت العباسي الذين كان الرشيد يبرهم ويكرمهم ويقول : « هم أهلي وأعتز بهم » . ولم يكن الفضل بن الربيع بأقل من هؤلاء نصيباً من الفائدة ؛ واما ابو يوسف القاضي فكان حظه وافياً من هذا النوال ، وأوفر من باقي رجال العلم والأدب الذين كانت منحهم صغيرة ولكنها مستمرة حسب الفرص

---

(١) نزهة الألباء : ٢٢٦ .

والمناسبات .

ولم يزاحم الأصمعي في صيد الدراهم غير اسحاق الموصلي ، وهو وان لم يكن كالأصمعي في مواهبه وظرفه ، ولكنه كان زيادة على علمه وثقافته ينظم الشعر و يجيده و يلحنه احياناً و يغنيه للرشيد ، اذ كان ـ بعد أبيه ابراهيم الموصلي ـ رئيس مدرسة للغناء في عهد بني العباس . وكان الرشيد يأنس بجمع الأصمعي واسحاق في مجلس واحد للسمر فقط ، لا للغناء ، لأن الأصمعي لم يحضر مجالس الطرب .

يقول الأصمعي : دخلت انا واسحاق الموصلي على الرشيد ، فرأيناه تعيس النفس مهموماً ، فحادثناه وسرينا عنه ، وانشده اسحاق من نظمه قصيدة يقول فيها :

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري ... فذلك شيء ما اليه سبيل

أرى الناس خلان الكرام ولا أرى ... بخيلاً له حتى الممات خليل

فعالي فعال المكثرين تجملاً ... ومالي كما قد تعلمين قليل

وكيف اخاف الفقر او اعدم الغنى ... ورأي أمير المؤمنين جميل

قال الرشيد : لا تخف ان شاء الله ؛ ثم قال : لله در ابيات تأتينا بها ، ما اشد اصولها وأقل فصولها ؛ وأمر له بخمسين ألف درهم ، فقال له اسحاق : وصفك والله يا أمير المؤمنين لشعري أحسن منه ، فعلام آخذ الجائزة ؟؟ فضحك الرشيد ، وقال : اجعلوها لهذا القول مئة الف درهم . . قال الأصمعي : فعلمت ـ يومئذ ـ ان اسحاق احذق مني بصيد الدراهم [١].

وكان بين الأصمعي واسحاق صحبة طويلة ، بدأ تاريخها منذ قدوم الأصمعي الى بغداد ؛ ولكل واحد منهما مع صاحبه نوادر ونكات طريفة ،

---

(١) الأغاني : ج ٥ ص ٧٨ .

ومزاحمة خفية في التودد الى الرشيد . ولأسحاق كل يوم شأن مع الأصمعي ؛ فاذا رضي عنه مدحه واطنب في مدحه وقال فيه « عجائب الدنيا معروفة منها الأصمعي »[1] ، واذا غضب عليه نفر منه وسلقه بلسانه ، وهجاه بشعره . وكان الأصمعي يعبث به عبثاً بريئاً ، ويتربص الفرص ليوقع به وقعاً خفيفاً يكسفه ولا يشق عليه .. كان - مثلاً - يعطيه جزءاً من قصيدة طويلة ولا يعطيه بقيتها ؛ او ينشده ابياتاً رقيقة ولا يعلمه باسم صاحبها ؛ فيدخل هذا عند الرشيد وينشده ما اخذ عن الأصمعي فيطرب الرشيد ويسأله عن بقية الشعر او عن اسم الشاعر فيقول لا ادري ، ويكون الأصمعي حاضراً ، فيجيب على كل ما يسأل الرشيد ، فيخرج اسحاق وقد امتلأ غيظاً عليه .

وكان اسحاق يوماً غاضباً على الأصمعي ، فسمع ان « ابا ربيعة » احد الأمراء زاره في بيته ، فطلب الأصمعي منه ان يقرضه مالاً ويبعث له بهدية ، ففعل ذلك ؛ فأرسل اسحاق الى ابي ربيعة ابياتاً يقول فيها :

أليس من العجائب ان قرداً	اصيمع باهلياً يستطيل
ويزعم انه قد كان يفتي	ابا عمرو ويسأله الخليل
اذا ما قال : قال ابي ، عجبنا	لما يأتي به ولما يقول
وما ان كان يدري ما دبير	ابوه اذا سألت وما قبيل
وجلله « عطاء الملك » عاراً	تزول الراسيات ولا تزول
نصحت ابا ربيعة فيه جهدي	وبعض النصح احياناً ثقيل
فقل لأبي ربيعة اذ عصاني	وحاد به عن القصد السبيل

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢٥١ .

لقد ضاعت برودك فاحتسبها   وضاع الفص والسيف الصقيل [1]

وعلم الأصمعي بهذه الأبيات وما فيها من قسوة في الهجاء ، فأجابه بهذه الأبيات الرزينة الساخرة ، كعادته في مقابلة الخصوم :

أئن تغنيت للشرب الكرام : ألا   رد الخليط جمال الحي فافترقوا
وقيل : أحسنت ، فاستدعاك ذاك الى   ما قلت،ويحك لايذهب بك الخَرَق
وقيل : انت حِسان الناس كلهم   وابن الحسان ، فقد قالوا وما صدقوا
فما بهذا تقوم النادبات ولا   يثنى عليك اذا ما ضمك الخِرَق [2]

ومهما يكن من أمر ، فقد كان الأصمعي يشعر بأنه أمام معين لا ينضب من كرم الرشيد وبذله ؛ فكان شغوفاً متلهفاً الى ادخال السرور على قلبه ليفتح يديه له ، ولم يترك فرصة تفلت منه دون ان يغتنمها ويستدر ضرعها . وقد وصل به الحال الى ما وصفه لنا هو ، فقال : « سمعت بيتين من الشعر لم احفل بهما ؛ فقلت : حفظهما على كل حال خير من بقائهما في الدفاتر ، فحفظتهما . واني عند الرشيد يوماً ، وعنده عيسى بن جعفر العباسي ؛ فأقبل على « مسرور » الخادم وقال له : يا مسرور ، كم في بيت مال السرور ؟؟ قال : ما فيه شيء . فقال عيسى : هذا بيت الحزن ؛ فاغتم الرشيد لذلك ، وأقبل على عيسى ، وقال له : والله لتعطين الأصمعي سلفاً على بيت مال السرور الف دينار . . فاغتم عيسى وانكسر . فقلت في نفسي جاء موضع البيتين ، فأنشدتهما الرشيد :

اذا شئت ان تلقى اخاك معبِّساً   وجداه في الماضين كعب وحاتم
فكشفه عما في يديه فانما   تكشف أخبار الرجال الدراهم

---

(1) الأغاني : ج ٥ ص ١٠٨ .
(2) الأغاني : ج ٥ ص ١٠٧ .

فتجلى عن الرشـــيد ، وقال لمسرور : اعطه على بيت مال السرور الف دينار أخر .. فأخذت بالبيتين الفي دينار ، وما كان البيتان عندي يساويان درهمين (١) .

*

بجانب هاتين الفائدتين ـ العلمية والأدبية ـ افاد الأصمعي من صحبته الخليفة الرشيد « الشهرة والوجاهة » ؛ فكان يرى في مجالسه تلك منبراً عالياً يسمع منه صوته الى اقصى اجواء العلم والأدب في زوايا المملكة ، اذ كانت تنقل اليها أخبار المناظرات العلمية والأدبية والطرف والنوادر التي يطرب لها الرشيد ، عن طريق رجال الحاشية والمعنيين بشؤون الفكر . وكان الأصمعي يحسن اختيار رواياته وآرائه وطرائفه التي تناسب المقـام ، والتي يعلم بأنها تروج وتنتشر بسرعة بين الناس فتتناقلها الألسن في كل مكان .. وكان هذا اقصى ما يسره ويفرحه .

بذلك اصبح الأصمعي علماً معروفاً في انحاء المملكة الاسلامية ، بعـد ان كان ذكره لا يتعدى الدوائر المحدودة في البصرة وحدها . ومن هنـا جاءت الوجاهة التي كان يصبو اليها ، فعرفه العامة والخاصة ، وصار البصريون بوجه خاص ينظرون اليه باحترام واجلال كجليس للرشيد محبب لديه ، وصديق للبرامكة اصحاب الحل والعقد في الدولة ، وزميل لأبي يوسف قاضي القضاة ، وغيره .. والناس منذ القديم يعظمون صاحب السلطان او من كان من اخصائه ، فكيف وقد نال صاحبنا هذا المجد بجـدارة واستحقاق ؟؟

*

(١) الأمالي : ج ٣ ص ١٨٣ .

على ان الأصمعي وصل الى ما وصل اليه بالطرق المستقيمة ؛ ولم يخرج في محاولاته تلك عن حدود الرزانة وكرامة العلم ، ولم يعرض نفسه الى ما يشينها قطعاً في سبيل الحصول على هذه الثمرات التي اقتطفها من بلاط بني العباس طوال الأعوام الخمسة عشر التي لبثها فيه ؛ اللهم الا ما كان يغلب فيه احياناً على امره بقوة قاهرة .. وقلما حصل ذلك .

كان يتصيد عطاء الرشيد كما يفعل غيره من زملائه ، لا بطريق المراوغة و بيع الضمير ، بل بالعلم والأدب والنادرة والملحة ، وهذا امر لا يؤاخذ عليه البتة . ثم انه كان يقبل المنح والهدايا من امراء بني العباس والبرامكة في اول الأمر كما هو مألوف عند العلماء والشعراء في ذلك العهد .. وهو مع ذلك لم يكن في يوم من الأيام عرضة للعبث به ، بشهادة الرشيد الذي قال يوماً لأحد جلاسه حين اراد العبث به : « انه لا يحتمل العبث »(١) .

وكان ـ رغم طول صحبته للرشيد ـ لا يحضر مجالس الطرب والغناء ، سيراً على قاعدة رجال الدين من العلماء في ذلك الزمن ، وخشية ان يصيبه شيء من عبث تلك المجالس التي كان يحضرها المغنون والمضحكون الساخرون الذين يأتون احياناً بما لا يتفق ووقار العلم .. وأما صلته باسحاق الموصلي ـ وهو من المغنين ـ وحضورهما معاً بحضرة الرشيد ، فكان لأجل السمر الأدبي فحسب ، لأن اسحاق هذا كان من علماء زمانه في شتى فروع العلم والأدب(٢) ؛ ولم نجد في اخبار الأصمعي معه انه حضر يوماً مجلس غناء له مع ارباب العزف والضرب .

---

(١) الأغاني : ج ١٥ ص ١٤٣ .

(٢) ابن خلكان : ج ١ ص ١٨٣ ـ كان اسحاق الموصلي عالماً اديباً وله باع في الفقه ايضاً . قال عنه الخليفة المأمون : « لولا ما سبق لأسحق على ألسنة الناس ، واشتهر بالغناء لوليته القضاء ، فانه اولى واعف واكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة ... »

بيد ان بلوغ الأصمعي هذه المكانة عند الرشيد ، واسترساله معه برواياته الطريفة ، ونوادره الظريفة عن الأعراب ، وملحه الأدبية ، جعل خصومه وحساده وشانئيه ، من زملائه العلماء او الأدباء الذين لم يصلوا الى مكانته ، يتقولون فيه ويرشقونه بأسهمهم . فزعم بعضهم بأنه كان يتعدى حدود الوقار العلمي الى مذاهب الظرفاء في مجالس السلاطين ، لأضحاك الرشيد والأفادة من بذله ونائله . ونسبوا اليه حوادث واعمالا هو في الحقيقة براء منها ، وتحدثوا عن لسانه بما لم يقل ؛ فادعوا - مثلاً - بأنه روى عن نفسه ، قال : « دخلت على هارون الرشيد فوجدته منغمساً في الفرش ، فقال : ما ابطأك يا أصمعي ؟؟ قلت : احتجمت يا امير المومنين ، قال : فما أكلت عليها ؟؟ قلت : (سكباجة وطهباجة) ، قال : رميتها بحجرها ؛ ثم قال: اتشرب ؟؟ قلت : نعم ، وانشدت :

اسقني حتى تراني مائلاً وترى عمران ديني قد خرب (١)

هذا وامثاله شيء لا نعتقد بصحته بعد ان علمنا ما هو عليه الأصمعي من التقوى والصلاح والتمسك بالدين ، واحجامه عن كل ما يسبب الاثم والخطيئة ؛ فكيف يقول مثل هذا القول المزري بالدين كله ، والذي لا يصدر مثله الا عن الزنادقة والمارقين ؟؟. ولم يكن الأصمعي ممن يشرب النبيذ وان حلله بعض فقهاء العراق ، لأنه كان لا يقبل بالاجتهاد والقياس في مثل هذه الأمور ويتمسك بالنصوص على طريقة كبار المحدثين ، كما اسلفنا .

وقد وجدنا في بعض كتب المؤرخين من الشيعة ، بأنه كان ينال من آل

---

(١) العقد الفريد : ج ٤ ص ١٧٢ .

البيت العلوي ، في مجالس الرشيد ، ارضاءً له وتقرباً منه . (١) والحق اننا لم نجد في بحثنا عن سيرته ما يدل على صحة هذا الادعاء . وقد عرفناه عف اللسان عن اكثر الناس ، فكيف عن قوم لهم صلة نسب بالرسول الأعظم ؟؟ ولكن الذي وجدناه هو انه كان يجل زعماء العلويين ويحترمهم، غير انه لا يرى رأي الشيعة فيهم ، وربما كان يتظاهر بتقديم بني العباس عليهم في الحق بالخلافة ، وهو - كما نعلم - في عهد كثرت فيه انتفاضات العلويين وثوراتهم على سلطان بني العباس ، وفي خلافة الرشيد نفسه .. وليس في ابداء مثل هذا الرأي نيل من آل البيت .

وأياً كان الأمر ، فنحن لا نزعم بأن الأصمعي كان زعيماً دينياً ، ولا معصوماً من الخطأ ، زاهداً في دنياه منصرفاً الى عبادته وتقواه ؛ ولكنه - كما وصفناه - رجل دنيا وآخرة ؛ يحب المال ويجمعه بطرق مشروعة لا تمس دينه ولا تخرجه عن تقواه ؛ ويطلب الشهرة والمجد ولكن لا يفضلهما على آخرته .. ثم إننا لا نشك بأن اعمالاً كانت تجري في بلاط الرشيد ، وفي بعضها شيء من الانحراف قليلاً او كثيراً عن جادة الشرع لا يسلم المشتركون فيها من الأثم ؛ غير اننا نعتقد بأن الأصمعي كان ممن يحاول جهد طاقته الابتعاد عن خطئها .. وقد لا ينجح دائماً .

اثره في مصرع البرامكة

لا شك في ان مصرع البرامكة حادث تاريخي خطير . وقد ذهبت

---

(١) في رسالة لأبي بكر الخوارزمي « ان هارون الرشيد لا يعطي ولا يبذل نوالا الا لمن يشتم آل ابي طالب ، وينصر مذهب النواصب مثل مروان بن ابي حفصة والأصمعي .. » وليس الأمر في الحقيقة كذلك عند الرشيد ولا عند الأصمعي ، ولكن الأمر لا يتعدى حدود تقديم آل العباس على العلويين بالحق في الخلافة . — انظر ضحى الاسلام : ج ٣ ص ٢٩٧ .

آراء المؤرخين فيه مذاهب شتى ، ولعبت الاهواء والنزعات في تأويله وتفسيره أيما لعب ؛ خاصة وان الرشيد لم يخبر احداً بأسباب هذا الحادث حتى توفي .

والأصمعي عاصر حكم البرامكة هؤلاء من البداية حتى النهاية ؛ وكان قريباً منهم وصديقاً لهم في بادىء الأمر ، ثم تغير عليهم فخاصمهم مع من خاصمهم ، وعمل مع من عمل على ازاحتهم عن عاتق الحكم وايصالهم الى تلك المأساة الدامية .. فلا بد لنا من الاسهاب قليلاً في وصف تلك الحركة السياسية وذكر عواملها والملابسات التي حدثت فيها ، لكي نستطيع فهمها بوضوح ، وليتبين لنا الدور الذي لعبه الأصمعي فيها .

كان الرشيد - يوم مبايعته بالخلافة - قد أعطى يحيى بن خالد البرمكي خاتم الوزارة ، وقال له كلمته المشهورة : « يا ابتي : انت اجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، واخرجته من عنقي اليك . فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، واسقط من رأيت فإني ، غير ناظر معك في شيء [1] . »

فأخذ يحيى بيده تلك السلطة المطلقة ، وتصرف في شؤون الدولة بقدر ما أوتي من حزم وتدبير ، ولم يستشر أحداً فيما يصنع غير « الخيزران » أم الرشيد ، التي كان يحلو لها ان تتدخل في الشؤون العامة ، والتي كانت تثق بيحيى ثقة تامة ، وقد ساعدته ، في الماضي القريب على ايصال ابنها هارون الرشيد الى كرسي الخلافة ليكون هو وزيره المطلق في تصريف مقدرات البلاد .

فكان أول شيء فعله في ادارته ، ابعاد اولئك الرجال الذين اعانوا الخليفة السابق « موسى الهادي » في خصومته ضد أخيه الرشيد ، ومحاولته

---

(١) الطبري : ج ٣ ص ٤٠٣ .

انتزاع ولاية العهد منه ؛ ومن بينهم الفضل بن الربيع حاجب الهادي ووزيره ، وسعيد بن سلم الباهلي أحد أركان حاشيته ، وعلي بن عيسى بن ماهان أحد رجال دولته ، وغيرهم .. ثم توفيت الخيزران عام ١٧٣ هـ ساعد يحيى الأيمن في شؤون القصر ، فحلت محلها « زبيدة بنت جعفر » زوجة الرشيد ؛ وكانت تعطف على الفضل بن الربيع ، فعملت على اعادته حاجباً للرشيد ؛ ثم عاد الآخرون شيئاً فشيئاً الى حاشية البلاط [١].

وكان الرشيد يحب اخويه بالرضاعة ، « الفضل وجعفر » ، ولدي يحيى ابن خالد البرمكي حباً صادقاً ، ويقربهما منه ولا يفترق عنهما او عن احدهما الا نادراً . فأراد ابوهما ان يدفع بهما الى الحكم بجانبه ؛ فنقل خاتم الوزارة في اول الأمر الى ابنه الفضل وبقي هو المستشار الأعلى بين الرشيد ووزيره الجديد ؛ ثم نقل الخاتم من يد الفضل الى يد اخيه جعفر ، فتقرب هذا من قلب الرشيد اكثر من قبل حتى صار يجلس على العرش بجانبه ويضرب النقد باسمه .

وبقي الوزراء البرامكة الثلاثة يتناقلون بينهم الخاتم في فترات مختلفة ، ويديرون شؤون الدولة بالتعاون والتشاور ، محتفظين بأسرار الدولة وادارتها لأنفسهم ؛ والرشيد معهم في غاية الثقة والاطمئنان والرضا ، بحيث لم يلتفت الى اعمالهم الا بمقدار ما يهمه بعضها ؛ منصرفاً الى غزوه وحجه وأسفاره ومجالسه ولذائذه .

ولم يكن البرامكة في بداية حكمهم ينحرفون الى ما يسيء سمعتهم او يبعث الشك في تصرفاتهم ويدعو الألسن الى التقول فيهم . فسارت سفينة

---

(١) الطبري : ج ٣ ص ٤٠٨ ـ كانت زبيدة يتيمة في حضن جدها المنصور ، وكان الربيع بن يونس وزيره ، يخدمها هو وابنه الفضل وينفذان رغائبها وهي طفلة ، فحفظت للفضل بن الربيع تلك اليد البيضاء .

الدولة على احسن ما يرام مدة خمسة اعوام ، حتى اثيرت مشكلة ولاية العهد بين ولدي الرشيد « عبد الله المأمون ومحمد الأمين »[1] .. وخلاصة ذلك ان الرشيد ، حين توليه الخلافة لم يكن له ولي عهد . فأراد ان يأخذ البيعة لأحد هذين الولدين ، خوفاً من موت فجائي يداهمه وليس له ولي عهد يجمع الشمل بعده ، ويبعد احتمال وقوع انشقاق وتمزيق في الدولة .

وفكر بأخذ البيعة لعبد الله المأمون باعتباره اكبر من اخيه الأمين ببضعة اشهر . ولكن ام الأمين زبيدة وقفت دون ذلك ، وأصرت على زوجها ان يختار ابنها للأمر ، زاعمة بأنه ابن هاشمية حرة لا جارية مملوكة . فوقف جعفر بن يحيى البرمكي في وجه زبيدة ، يدافع عن حق المأمون ، مدعياً بأنه هو الأكبر ، ولكنه كان يخفي في نفسه سبباً آخر ، هو ان ام المأمون « مراجل » جارية فارسية من عنصره .

فانقسم جو البلاط الى معسكرين : هذا يؤيد فكرة زبيدة ، ويتكون من اكثرية امراء بني العباس ومعهم الفضل بن الربيع وشخصيات اخرى تكره البرامكة ؛ وذاك يؤازر جعفراً بن يحيى ، ويتكون من عناصر فارسية وغير فارسية من صنائع آل برمك .. وكان الفضل بن يحيى - يومئذ - بجانب الأمين لأنه كان يشرف على تربيته ، كما كان جعفر يشرف على تأديب المأمون وتثقيفه .

ولكن الأزمة لم تطل ، إذ دعا الرشيد يحيى بن خالد - وكان قد وقف موقف الحياد من الأمر - فاستشاره وتحادث معه طويلاً ، فأشار عليه بإعطاء ولاية العهد للأمين بن زبيدة ، وينتظر حتى يكبر الصغيران

---

(١) لقب عبد الله بالمأمون ، ومحمد بالأمين بعد اخذ البيعة لهما بولايتي العهد .

وعمر كل منهما يومئذ لا يزيد عن خمس سنوات – وتظهر الفوارق ، بينهما فيختار الأصلح لها (١) . وانتهى الأمر بأن بويع الأمين ؛ فهدأت العاصفة على أثر ذلك سبعة أعوام أخرى ، حتى استثيرت من جديد .

وبقي جو البلاط – خلال تلك الفترة – هادئاً الى حد ما ؛ وليس فيه الا ما كانت تجمجم به زبيدة احياناً ضد جعفر البرمكي وحده ، وما كان يهمس به الفضل بن الربيع في آذان خلصائه من كلمات تشير الى تذمره من استبداد البرامكة بشؤون الدولة .. والظاهر ان هؤلاء الوزراء الثلاثة بدأوا يستبدون في الأمر شيئاً فشيئاً حتى ملكوا القصور والثراء الطائل والضياع العامرة ، وأسرفوا في الدعاوة لأنفسهم ببذلهم واعطائهم الأموال الطائلة على حساب بيت المال طبعاً ، فمدحهم الشعراء بما لم يمدح به الخليفة نفسه ، ورسخت اقدامهم في سلطان المملكة وامتدت جذورهم فيها الى حد بعيد ، فقربوا صنائعهم ، وعينوا أعوانهم في المناصب ، وانشأوا تكتلات مسلحة في خراسان تأتمر بأمرهم تحت اسم الدفاع عن الحدود الشرقية للدولة (٢) . فبدأ الساهرون على مصلحة الدولة يتهامسون بينهم عما وصل اليه هؤلاء من منزلة خطيرة ؛ ولكن الرشيد لم ينتبه الى ذلك ، ولم يقبل من أحد مهما كان ناصحاً وقريباً لديه ان يقول كلمة سيئة على وزرائه هؤلاء .

قلنا – فيما مضى – ان الأصمعي قدم بغداد (عام ١٧٣ هـ) اي قبل تأزم هذه المشكلة بعامين ؛ وكان قد ناهز الخمسين يومئذ ، وقد اكتملت عقليته ونضج تفكيره ؛ فلم يقحم نفسه في تيارها حين تأزمت اول

---

(١) المختار : ٥٩ .

(٢) انظر كتاب الطبري سنة ١٧٨ هـ وما بعدها .

مرة ، فبقيت صلته بالبرامكة على اتم ما يكون ، حافظاً لهم حفاوتهم به حين قدومه الى بغداد (١) ؛ ذاكراً مساعدة الفضل بن يحيى له في اول مقابلته مع الرشيد في تلك الليلة التاريخية - كما أسلفنا - . وأحبهم فأحبوه ، واختلف الى مجالسهم يزورهم ويزورونه ؛ وأغدقوا عليه من جزيل كرمهم فشاد هو بذكرهم ، ومدح جعفراً بن يحيى ببيتين من الشعر ولم يكن قد مدح قبل ذلك أحداً من الناس :

اذا قيل من للندى والعلى من الناس ؟ قيل الفتى جعفر
وما ان مدحت فتى قبله ولكن بني برمك جوهر (٢)

وألف كتابه « النوادر » وأهداه له ، على نمط ما كان يفعل بعض العلماء والأدباء في ذلك العهد ، فأكرمه جعفر بمال وعطاء وفير .. ولم تكن صلته بيحيى بن خالد أضعف منها بولديه هذين .

هكذا كان الأصمعي في وئام تام مع البرامكة في الأعوام الأولى من وجوده في بلاط الرشيد ، يوم كان هؤلاء يعملون باخلاص في ادارة شؤون البلاد . ولم يشعر نحوهم بأي فتور رغم كرهه للعنصر الفارسي ، ومقته للشعوبيين الذين كانوا يحتمون بهم وينالون من العنصر العربي احياناً في مجالسهم . فلما بدأوا ينحرفون في سيرتهم الى النحو الذي ذكرنا ، صار هو يتغير عليهم وينحرف عنهم شيئاً فشيئاً .. ولم يكن تغيره هذا بتأثير همسات الفضل بن الربيع وسعيد بن سلم الباهلي وغيرهما فحسب ، بل بدافع شعوره القومي ايضاً وحبه للرشيد الذي اخلص الود

---

(١) اقام الفضل بن يحيى مأدبة فخمة للأصمعي حين قدم بغداد حضرها عدد كبير من العلماء ووجوه العاصمة — انظر نزهة الألباء : ١٤٠ .
(٢) طبقات النحاة : ٣١٣ .

والوفاء له ؛ وربما كان ايضاً بعامل الحرص على الصالح العام .

وبقي التذمر دفيناً في الصدور ، لا يستطيع احد ان يبوح به امام الخليفة الشاب المحاط بأعين البرامكة وآذانهم ، حتى كان عام (١٨٢ هـ) حين اثيرت مشكلة ولاية العهد من جديد . ولم يقل التاريخ كيف استثيرت بعد ان هدأت واستقرت بجانب الأمين ؛ ولكن سير الحوادث يدل على ان جعفراً البرمكي كان في خلواته مع الرشيد يشير له دائماً نحو الفارق بين الولدين في الذكاء وحفظ الدروس والأعمال والتصرفات التي تصدر عنهما ، ويفضل امامه المأمون المجتهد الهادىء على الأمين الذي كان يفسده دلال امه له وشفقتها عليه وتلبية رغباته في كل شيء . فساورت الرشيد فكرة انتزاع البيعة من الأمين واعطائها لأخيه [١] .

وسمعت زبيدة بالخبر فطار طائرها ، ووقفت على قدميها امام الرشيد تصيح في وجهه ، وتجمع جموعها لتحول دون تحقيق ما يريد ؛ وانتفضت المشكلة من جديد ولكن بصورة اشد وأعنف مما سبق ؛ وأسفر العداء بين أم الأمين سيدة القصر ، وجعفر بن يحيى وزير الرشيد وأكبر شخصية في الدولة بعده . وتألب كل فريق بحزبه ، فانحصر الرشيد بين ضغطين ، وراح يبحث عن مخرج لهذا المأزق العظيم الذي وقع فيه .

يقول الأصمعي : بينا انا ادخل على الرشيد ذات ليلة لأسامره ، اذ رأيته قلقاً يقعد مرة ويضطجع اخرى ، ويبكي ثم ينشد :

قلد امور عباد الله ذا ثقة   موحد الرأي لا نكساً ولا برما

فلما سمعت ذلك منه علمت بأنه يريد امراً عظيماً . ثم قال للخادم : عليّ بيحيى بن خالد ، فما لبث ان جاءه ؛ وجلسا يتحادثان ، فسأله الرشيد

---

(١) انظر الطبري ، سنة ١٨٧ هـ .

عن رأيه في فكرة انتزاع ولاية العهد من الأمين واعطائها للمأمون بعد أن ظهر صلاحه لها اكثر من أخيه ؟؟ فطلب يحيى ان يكون المجلس خالياً ليبدي رأيه ، فأشار لي الرشيد : فتنحيت جانباً بحيث اسمع كلامهما. فما زالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل ، وافترقا على أن يعقد الأمر للمأمون بعد الأمين (١) .. وبعد ذلك بأيام قليلة أخذت البيعة من الناس بولاية العهد الثانية للمأمون .

فكانت تلك فكرة خاطئة ، لم تذك نار الحقد والبغضاء بين الأخوين فقط ، بل أبقت الأحقاد والضغائن متلبدة في جو الخليفة بين المعسكرين اللذين يحلو لبعض المؤرخين ان يسموهما بالمعسكر العربي والمعسكر الفارسي أو الشعوبي ، وهما حزبا زبيدة ومن معها وحزب جعفر بن يحيى .. ولم يمض طويل وقت حتى انتعشت الوشايات والدسائس والأخبار بنوعيها صادقة وملفقة ، حول البرامكة وأعمالهم .

وكان أول من كاشف الرشيد في أمرهم زبيدة ، فلم يصغ لها أول الأمر ويعبأ بقولها ؛ فراحت تغتنم الفرص وتحذره منهم وتقول له : « انت غريق في بحر عميق من مودتهم والثقة بهم » ، وتشير بكل ما تسمع وما يصل الى اذنها عن اعمال هؤلاء وسعة نفوذهم وثرائهم وسيطرة صنائعهم على مناصب الدولة . ثم فتحت باب القصور للمؤامرات والاشاعات ، وراحت تساند مؤازريها من خصوم البرامكة المتكتلين بزعامة الفضل بن الربيع ، وجعفر بن موسى والشاعر ابي العتاهية وغيرهم (٢) .

وكان الأصمعي حتى ذلك العهد قد تغير عليهم وقاطعهم ، وتغيروا هم

---

(١) مروج الذهب : ج ٣ ص ٢٢٣ .

(٢) مصادر هذه الأخبار : الطبري وابن الأثير واليعقوبي وغيرهم .

ايضاً عليه وقاطعوه ، وأطلقوا ألسنة صنائعهم فيه ، فاتهموه بقلة الوفـــاء ونكران الجميل واخفاء النعمة [١] . فلما استثيرت قضية ولاية العهد للمرة الثانية هذه كان هو بجانب الأمين لعلمه بأن بيعة المأمون قوة لجعفر البرمكي وسند لنفوذ الفرس في البلاط العباسي . ولما توترت الأزمة بعد ذلك بين الجانبين مال الى ناحية الفضل بن الربيع وجاهر بكرهه للبرامكة وخاض ذلك الصراع السياسي الصامت الى الأذقان ، وقال فيهم على لسان الشائعات التي كانت تحيط بهم :

اذا ذكر الشرك في مجلس   اضاءت وجـوه بني برمـك
وان تليت آيـة عندهم   اتوا بالأحاديث عن (مزدك) [٢]

ونحن وان كنا نشك في ان يكون الأصمعي قد نظم هذين البيتـين ، لما فيهما من تهمة البرامكة بالشرك وهم من المسلمـين ، وتكفير المسلم حرام ما لم يكن باثبات شهود عدول ، وليس هذا من شأن الأصمعي قطعـاً ؛ غير ان الحوادث الآتية تدل على انه كان من ابغض الناس لهـذا النفوذ الفارسي المهدد لدولة الرشيد ، وانه كان من اكثر خلطاء الرشيد تحذيراً له من نفوذ البرامكة وتشجيعه على التخلص منهم ان وجد الى ذلك سبيلا .

تقول المصادر : بأن الرشيد بدأ يفتح عينيه ، ويصغي الى هذه الضجة التي تدور حوله همساً وايماء وتنويهاً ؛ ثم انه صار يحس ويومىء لبعض خاصته الى ما وصل اليه هؤلاء الوزراء الفرس من ثراء ونفوذ ، وبـدأ يتغير عليهم ولكنه لم يبادئهم بما يسيئهم او يخيفهم ، ثم صار يبث حولهم العيون والأرصاد ، فتأتيه الأخبار بما يسيئه .. قيل ان احدهم حـادث

---

(١) البخلاء : ١٧٣ .

(٢) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٨ — (ومزدك) هذا رئيس مذهب مجوسي من مذاهب الفرس ، يدعو الى الفوضى الخلقية — انظر كتاب الملل والنحل).

جعفر يوماً في امر القرى الكثيرة التي امتلكوها ، وطلب منه ان يمنح بعضها الى ولد الرشيد ، فقال جعفر : « .. والله ما أكل الرشيد الخبز الا بفضلنا ، فإن حدثته نفسه بأخذ بعض ما نملك ، فسيعود عليه الوبال سريعاً » .. وجاءه خبر آخر : ان جماعة من الفرس في مجلس جعفر ، كانوا يتحدثون عن ابي مسلم الخراساني وكيف قلب دولة بني امية فقال جعفر : « اي فخر لرجل يقلب دولة ويأتي بدولة اخرى بعد ان يسفك مئات الآلاف من الأرواح والأنفس ؟؟ ولكن الفخر لمن يفعل مثل ذلك بدون اراقة دم »[1] . الى آخر ذلك مما يطول شرحه .

وأخيراً عزم الرشيد في نفسه ، ودون ان يطلع احداً على عزمه ، التخلص من خطر البرامكة ، فترك بغداد وسكن الرقة .. وفي عام (١٨٧ هـ) بعد ان انهى كل ما يلزم للأمر[2] ، عزم على الحج ، وقرر ان يأخذ معه ولديه الأمين والمأمون فيكتب عليهما في مكة العهود بعدم تعدي احدهما على حقوق الآخر ؛ وأرسل الى ولاته في الأقاليم ان يوفدوا الى الحج وجوه بلادهم ليوافوه في مكة . ثم سار بموكبه من الرقة ونزل بجانب بغداد ولم يدخلها ، فالتحق به سائر البرامكة ورجال الدولة الا من بقي في مكانه لحفظ الأمن .

وبعد ان حج وكتب العهود على ولديه ، وبلغ ذلك سائر عمال الأقاليم في المملكة ، عاد ادراجه الى العراق . فلما وصل نهر الفرات ،

---

(١) الطبري : سنة ١٨٧ .

(٢) كان الرشيد قد ارسل احد عماله « علي بن عيسى بن ماهان » وهو خصم للبرامكة ، الى خراسان فشتت شمل القوى المسلحة التي كان البرامكة قد نظموها هناك . ثم انه ترك بغداد وسكن الرقة لوجود قطعة من الجيش فيها وجلهم من الفرس ، ويسمونهم « الكرنبيه » . وقام بأعمال اخرى ، يطول شرحها ، في تصفية حساب البرامكة قبل ان يوقع بهم .

نزل ناحية « العُمْر » قرب مدينة الأنبار وهي قريبة من بغداد ، ومعه وليا عهده وجميع البرامكة ورجال الحاشية ، وفيهم الأصمعي . و بعد أيام من اقامته هناك ، أرسل الى أحد رجاله المخلصين له « السندي بن شاهك » رئيس الحرس في بغداد ، فجاءه مسرعاً فأمره أن يذهب بمن معه من جنده ويحرس دور البرامكة في جانب الرصافة ، ولا يدع أحداً يخرج منها ؛ وأن يتأهب لكل طارىء يحدث ، حتى يأتيه أمره . فعاد السندي الى بغداد ونفذ الأمر . ثم دعا الرشيد في منتصف تلك الليلة خادمه العبد « مسرور » وقال له : كيف انت مني ؟؟ قال : لو أمرني أمير المؤمنين أن أدخل هذا السيف في بطني وأخرجه من ظهري لفعلت ؛ قال : فاذهب الآن ، بدون تردد ولا تأخير ، الى حيث ينزل جعفر بن يحيى ، فاقتله في الحال وجئني برأسه قبل أن ينزل عليك غضبي . فذهب مسرور مع بعض الجند ونفذ أمر سيده ، وحمل الرأس اليه ، فأمر بوضعه في اناء ، وغطاه . وأوعز الى أحد قواده فألقى القبض على سائر رجال آل برمك ، عدا محمد بن يحيى البرمكي الذي كان الرشيد يأمن جانبه ؛ وساقهم جميعاً الى سجن الرقة حيث قضوا نحبهم فيه بعد زمن طويل ؛ ولم يتعرض للنساء والأطفال .

يقول الأصمعي : « أرسل الي الرشيد في ساعة متأخرة من تلك الليلة ، فجئت وأنا لا أدري ما الخبر ، ودخلت عليه فوجدته يتحفز كالوحش المفترس . فلما رآني قال : اجلس ، فجلست ؛ ثم قال تقدم وارفع الغطاء عن هذا الوعاء ، فتقدمت ورفعته ، فوجدت فيه رأس جعفر ، فجاشت نفسي . فقال : يا اصمعي :

لو ان جعفر هاب أسباب الردى   لنجا بمهجته طِمَرٌّ مُلَجَّمُ

ولكان من حذر المنون بحيث لا يرجو اللحاق به العقاب القشعم

لكنه لما تقارب عهده لم يدفع الحدثان عنه منجم

فسكت ولم أتكلم ، فقال : « الحق بأهلك ، يا أصمعي » . . فخرجت وقد علمت بأنه دعاني في تلك الساعة لكي ينشدنى هذه الأبيات التي نظمها ، حتى أذيعها على لسانه [١] .

ونحن لا تقتنع بتعليل الأصمعي هذا ، اذ لا يعقل أن يكون الرشيد في تلك الساعة الدامية الخطيرة يهتم بإذاعة أبيات من الشعر قالها ، ولكننا نرى بأن الرشيد تذكر الأصمعي ، دون غيره من رجاله الذين كانوا معه في تلك الآونة الحاسمة ، لأسباب عديدة ، منها انه أراد أن يريه بأنه قد تخلص من كابوس البرامكة وخطرهم الذي كان الأصمعي يحذره منه ويشير اليه - في المناسبات الكثيرة - تنويهاً بوجوب اتخاذ الحزم تجاهه .

وتؤيد رأينا هذا روايات عديدة ، تقول احداها : ان الأصمعي ، بعد خروجه من عند الرشيد في تلك الليلة ، نظم أبياتاً يقول فيها :

ايها المغرور هل لك عبرة في آل برمك

غرهم عن قدر الله حساب (المشتمرك)

عبرة لما ترد أنت ولا قبل أبٌ لك [٢]

الى آخر ذلك مما يشير الى أنه كان شامتاً بحادث هؤلاء ، ذاكراً غرورهم ، خائفاً من طغيانهم على دولة الرشيد وعبثهم بمقدراتها .

تركه بلاط الرشيد

لم نعثر على خبر للأصمعي ، بعد نكبة البرامكة ، يفيد بأنه بقي بجانب

---

(١) السيرافي : ٦٦ .

(٢) السيرافي : ٦٦ — كلمة (المشتمرك) فارسية تقال لرقعة مخططة تحسب عليها دراهم بيت المال ، او كل دراهم اذا كانت كثيرة .

الرشيد . ولا نستطيع الجزم بأنه عاد الى البصرة بعد مقابلته له ليلة مقتل جعفر بن يحيى وقوله : « الحق بأهلك يا اصمعي » .. والأخبار التاريخية تحدثنا ان الرشيد سكن الرقة بعد ذلك الحادث وترك بغداد نهائياً ، ولم يعد اليها حتى توفي بعد ستة اعوام قضاها بالسهر على الأمن والاستقرار في جوانب دولته ؛ فحج وسافر وتنقل في البلاد ، وغزا الروم في شتاء بارد وفي اشق كلفة ، فاصيب بمرض في جوفه وانتابته « حمى الربع » فأنهكت جسده وصحته . وكان آخر امره ان نشبت ثورة « رافع بن الليث » في خراسان ، فأرسل لها الجيوش ، ولكنه لم يطمئن للنتيجة ، فزحف اليها بنفسه رغم وطأة مرضه ، فمات في الطريق عام (١٩٣ ﻫ) ، ودفن في قرية « سناباذ » احدى ضواحي مدينة « طوس » .

من ذلك نفهم بأن الرشيد كان في شغل شاغل عن عقد المجالس والسمر خلال هذه الأعوام الستة ، إلا قليلاً . وقد تبددت حاشيته ، اذ توفي ابو يوسف القاضي ، ومات الكسائي قبل مأساة البرامكة ، وتزهد الشاعر ابو العتاهية ، وهلك مروان بن ابي حفصة ، وانشغل الفضل بن الربيع في شؤون وزارته وادارة البلاد .. الى آخر ذلك .

ولكن رواية وردت في كتاب الأغاني تقول : « كان اسحاق الموصلي يأخذ عن الأصمعي ، ويكثر الرواية عنه ، ثم فسد ما بينهما ، فهجاه اسحاق وثلبه وكشف للرشيد معايبه ، وأخبره بقلة شكره وبخله وضعة نفسه وان الصنيعة لا تزكو عنده ؛ ووصف له معمراً بن المثنى - ابا عبيدة - بالثقة والصدق والسماحة والعلم ؛ وفعل مثل ذلك عند الفضل بن الربيع ، واستعان به ؛ ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمعي وأسقطه عندهم ، وأنفذوا

الى ابي عبيدة من اقدمه »[١] . وقيل ايضاً ان اسحاق هذا أرسل الى الفضل بن الربيع ابياتاً يحرضه فيها على الأصمعي ويشجعه على استقدام ابي عبيدة ، وفيها يقول :

عليك ابا عبيدة فاصطنعه　　فإن العلم عند ابي عبيده
وآثره وقدمه عليه　　ودع عنك القريد بن القريده[٢]

فاذا صحت الرواية هذه ، يكون الأصمعي قد بقي بجانب الرشيد زمناً بعد تلك النكبة . . وفي كتاب « نزهة الألباء » للأنباري : « ان ابا عبيدة ورد الى بغداد عام (١٨٨ هـ) ثم عاد الى البصرة[٣] » ، وهذا يعني خلال السنة التي قتل فيها جعفر البرمكي . فيكون بقاء الأصمعي بجانب هارون الرشيد لم يتجاوز الأشهر القليلة أو الأيام المعدودات بعد محنة البرامكة .

ولكننا لا نعتقد بأن اسحاق الموصلي كان السبب الوحيد والمباشر في تغيير الرشيد على الأصمعي ، واستقدام ابي عبيدة مكانه ـ كما تخبرنا الرواية المذكورة ـ اذ لم يكن الأمر على هذه الصورة من التراخي في شؤون الخليفة وخاصته . . بيد أن سير الحوادث يدلنا على أن الأصمعي بعد اشتراكه في ذلك الصراع السياسي ضد البرامكة ، أحاطته الدسائس والوشايات والنميمة عند الرشيد ، من قبل البرامكة أنفسهم ومن صنائعهم ومؤازريهم فضلاً عن خصومه وحاسديه أمثال اسحاق الموصلي ويحيى بن المبارك اليزيدي ـ مؤدب أولاد الرشيد ـ والشاعر أبي نواس الذي كان قد اتصل أخيراً بالخليفة وسبح بحمده .

والظاهر أن الرشيد ما كان يصغي الى أقوال هؤلاء في الأصمعي ،

---

(١) الأغاني : ج ٥ ص ١٤١ .
(٢) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٩ .
(٣) نزهة الألباء : ١٤١ .

لانشغاله ـ يومئذ ـ بما هو أخطر من ذلك ؛ فلما انتهى من تصفية حساب وزرائه وانغمر في شؤون مملكته والسهر على الأمن فيها ، صار لا يلتفت الى امثال الأصمعي ومجالسه ؛ وربما شعر بأن وجوده بجانبه يذكره بتلك الأيام البغيضة المتعبة التي امتلأت بالقيل والقال قبيل حادث البرامكة .

ثم ان الأصمعي نفسه كان قد بلغ الخامسة والستين من عمره ، ونال من الجاه والثراء ما صار يغنيه عن الاستمرار في طلب الكسب . . فلما حدثت مأساة البرامكة بذلك الشكل الدامي الذي لم يكن يتوقعه ، وتعطلت مجالس الرشيد وزالت عنها المسرات ، أحس بأن مهمته قد انتهت ؛ وان نفسه بدأت تنازعه نحو الراحة والاستقرار والابتعاد عن ذلك الجو الذي غمرته الكآبة بعد المرح ؛ فودع صاحبه الرشيد وعاد الى البصرة .

وقد بحثنا في سيرة أبي عبيدة ، فلم نجد له أثراً يذكر في مجلس الرشيد بعد عودة الأصمعي ، مما يدلنا على ان الرجل ، قدم (الرقة) ولكنه لم يلتق بالخليفة أو لم يترك أثراً عنده ، ولم تطل اقامته بجانبه .

القسم الخامس

المرحلة الأخيرة

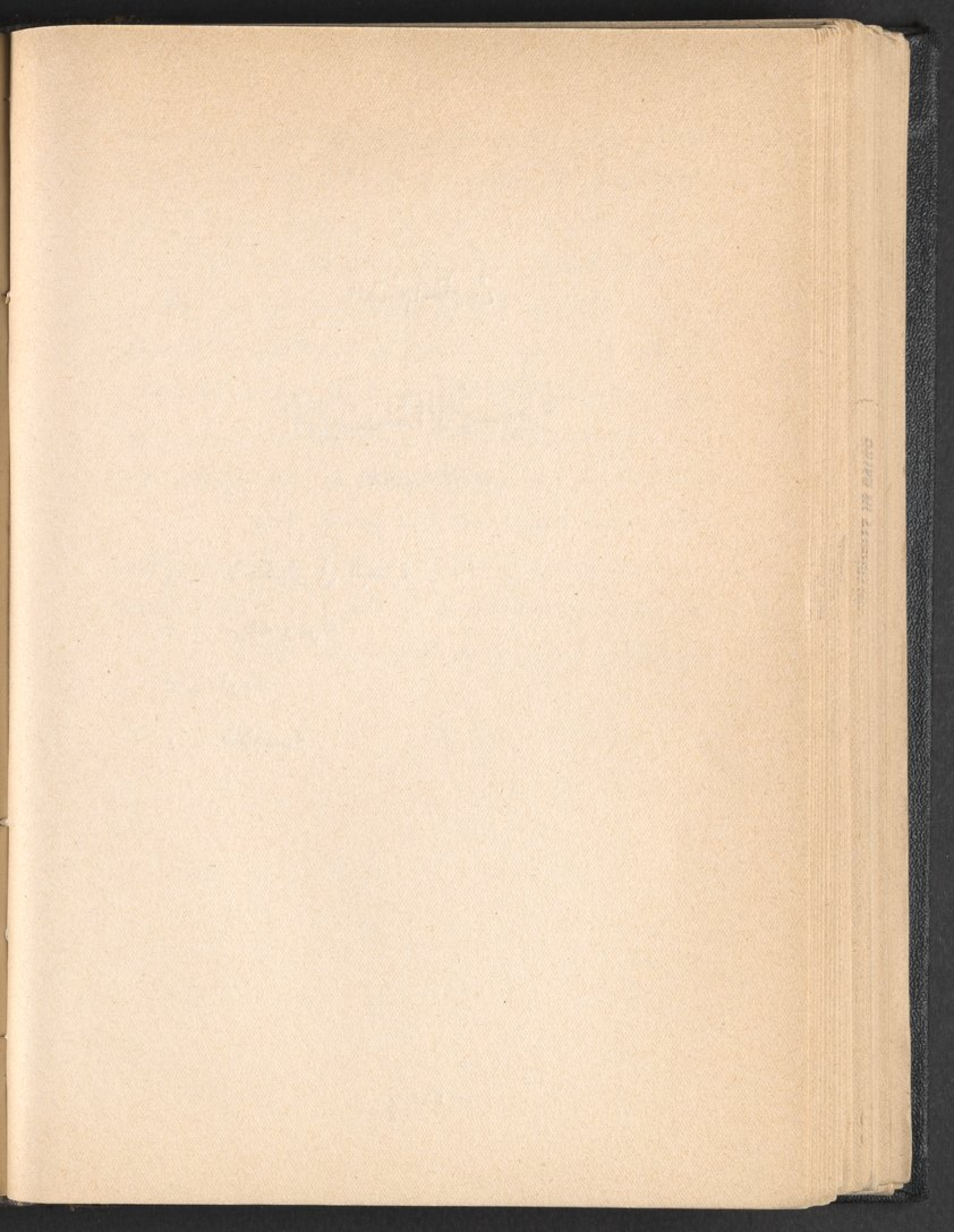
١٨٨هـ - ٢١٧هـ

١ ـ الاستقرار في البصرة

٢ - مرضه وموته

٣ ـ ذريته

٤ ـ طلابه



الاستقرار في البصرة

ألقى الأصمعي اخيراً عصاه في البصرة بعد ان تعب من صخب حياة البلاط وضوضائها ، وما فيها من اخذ ورد وقيود وتحفظات ، ووشايات ودسائس ؛ وآلى بعد ذلك ان لا يبارح مكانه الا لضرورة ملحّة ، منصرفاً الى حياته الأولى في الدرس والتحصيل و إلقاء المحاضرات في المسجد الجامع .. ولكن الحوادث كانت تلاحقه ، والأخبار المحزنة تصم آذانه وتحزنه :

فقد مات الرشيد ، وتولى الخلافة بعده ولي عهده محمد الأمين . ولم تمض حقبة من الزمن قصيرة حتى نشبت بينه و بين اخيه المأمون خلافات حادة نكثت فيها العهود ، وتمزقت الأرحام ، وتطورت الى حرب دامية قتل فيها الأمين عام ١٩٨ هـ بسيوف الأعاجم من جيوش اخيه .. و بقيت امور البلاد مضطربة بين المأمون الذي بويع بالخلافة في خراسان و بين عمه « ابراهيم بن المهدي » الذي بويع في بغداد .

ثم انتهى الأمر اخيراً بانتصار المأمون بعد تنازل عمه له عن الخلافة ؛ واستتبت الامور ، واجتمع الشمل في بغداد من جديد . فاراد الخليفة الشاب ان يعيد عهد ابيه الرشيد في عنايته بالشؤون الفكرية واهتمامه في اختيار حاشيته ورجال بلاطه ؛ فجمع حوله من اراد من نوابغ العلماء وفحول الشعراء ورواة الأدب . ثم ارسل الى الاصمعي يطلبه للمجالسة ويشجعه على القدوم اليه ؛ ولكن الاصمعي ، الذي عزف عن بلاط الرشيد نفسه في اواخر عهده ، اعتذر للمأمون محتجاً بشيخوخته وضعف صحته (١) . غير ان المأمون ـ العالم الاديب ـ عز عليه ان لا يكون الاصمعي بجانبه ، فالح

---

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٧ .

عليه بالطلب ، ووعده ومناه ؛ فأصر الأصمعي على الاعتذار ، وكتب اليه يقول : « ... اصبحت لا اصلح لمنادمة الخلفاء » واخبره بأنه على استعداد للأجابة على المشاكل اللغوية والأدبية اذا ارسلت اليه وهو مقيم في بلده البصرة . فقبل المأمون عذره ، وصار اذا تعقدت مشكلة في مجلسه ارسلها اليه واستلم الجواب منه [١] .

لقد كان للأصمعي في اعتذاره عن مجالسة المأمون اسباب اخرى غير التي ذكرها له : منها أنه كان في عهد الرشيد - كما اوضحنا مع الجانب المناوىء لجعفر البرمكي واشياعه الذين آزروا المأمون بحقه في ولاية العهد ضد أخيه الأمين ؛ والآن وقد انتصر ذلك المعسكر الشعوبي ، وبرز في جو البلاط وجوه فارسية جديدة كانت في ذلك الصراع عوناً للبرامكة على العرب بما فيهم الأصمعي ؛ فكيف يأمن الأصمعي جانبها ويضمن صداقة المأمون زمناً طويلاً ؟

وهذا اسحاق الموصلي صاحب الوشايات عليه عند الرشيد بالامس عاد الآن نديماً للخليفة الجديد ، ومقرباً لديه كما كان مقرباً عند ابيه ، فكيف يعود الاصمعي الى تجديد الخصومات معه بعد ان اكتوى بنارها قبلاً ؟؟ واي شيء في بغداد يسره بعد ان تغير وجهها عن ذي قبل ، وجرحتها المآسي والاحزان ، ودمرت جوانبها الحروب الطويلة وقتلت الكثير من اعيانها ، وتركتها نهباً بأيدي اشرارها وعياريها زمناً غير قصير ؟؟ واين يكون موضع الأصمعي لو عاد اليها وقد اصبح كل شيء فيها يوحي لنفسه ذكريات قاتمة ثقيلة بعد موت الرشيد ، ومقتل الامين ، وانزواء زبيدة الأيم الثكلي ، وموت الفضل بن الربيع ، واعتزال الامير سعيد بن سلم الباهلي في داره

---

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٨ .

بالبصره ؟؟ لم يكن امام الاصمعي - في الحقيقة - غير الاعتذار .. فاعتذر ، واقام في البصرة ، ولم يبارحها الا الى الحجاز مرة او مرتين في سبيل الحج وتجديد الذكريات مع صحبه ومعارفه من علماء مكة والمدينة والطائف .

كان عمره عند مغادرته بلاط الرشيد خمساً وستين سنة ، وقد وخط الشيب جوانب لحيته ورأسه (١) ، ولكنه في نشاط الكهولة المتماسكة ، ولم تكن ذاكرته النادرة قد اصابها شيء من الوهن او التعب بعد .. يقول « احمد ابن بكير النحوي » : لما قدم الحسن بن سهل « وزير المأمون » العراق - وقصد البصرة - قال : احب أن أجمع قوماً من أهل الأدب فيخرجون بحضرتي في ذلك ؛ فحضر ابو عبيدة والأصمعي ونصر بن علي الجهضمي وحضرت معهم . فابتدأ الحسن فنظر في رقاع كانت بين يديه للناس في حاجاتهم ، ووقع عليها ، فكانت خمسين رقعة ، ثم أمر فدفعت للخازن ، ثم أقبل علينا فقال : قد فعلنا خيراً ونظرنا في بعض ما نرجو نفعه من أمور الناس والرعية ، فنأخذ الآن فيما نحتاج اليه . فأفضنا في ذكر الحفاظ فذكرنا جماعة منهم « قتادة السدوسي ، والزهري » وغيرهما ؛ ومررنا بالحديث ، فالتفت أبو عبيدة فقال : ما الغرض أيها الأمير في ذكر من مضى وترك من هو حاضر ؟؟ ها هنا من يقول انه ما قرأ كتاباً قط فاحتاج الى ان يعود فيه ، ولا دخل قلبه شيء فخرج عنه !! فالتفت الأصمعي فقال : انما يريدني بهذا القول أيها الأمير ، والأمر في ذلك على ما قال ، وأنا أقرب عليه : قد نظر الأمير فيما نظر فيه من الرقاع ، وأنا أعيد الآن ما فيها وما وقع به الأمير على كل رقعة على توالي الرقاع . فأمر الحسن بن سهل ، فأحضر الخازن وأحضرت الرقاع ؛ واذا الخازن قد

---

(١) يقول السيوطي في كتابه « طبقات اللغويين » : ٣١٣ « لم يبلغ الشيب لحيته الا لما بلغ الستين » .

شكها على توالي نظر الحسن فيها . فقال الأصمعي : سأل صاحب الرقعة الأولى كذا واسمه كذا فوقع له بكذا .. والرقعة الثانية والثالثة ، حتى مر في نيف واربعين رقعة ، فالتفت اليه نصر بن علي فقال : ايها الرجل ، ابق على نفسك من العين .. فكف الاصمعي (١) .

ولم يكن الجو الفكري في مسجد البصرة قد تغير كثيراً ، في هذه الفترة ، عن ذي قبل بنشاطه ومرحه وطلابه ومرتاديه ، الا عدداً من كبار شيوخه كانو قد اعتزلوا التدريس بسبب الشيخوخة او الموت . كما ان جيلاً صاعداً من الشباب وطلاب العلم لم يعرفهم الأصمعي قد احتلوا اماكنهم في حلقات المسجد . فلما عاد الأصمعي الى حلقته عاد اليه طلابه السابقون والتفوا حوله ، وتضخم مجلسه اكثر من ذي قبل بفضل اتساع شهرته وارتفاع منزلته العلمية ومكانته الاجتماعية . وقصده طالبو الفوائد الفكرية من كل مكان ، وصارت تنهال عليه الأسئلة في المشاكل اللغوية والأدبية من انحاء البلاد ، بما فيها المسائل التي يرسلها اليه امير المؤمنين المأمون بن الرشيد .. وبدأ الزمن يعيد دورته من جديد ، كأن لم يحدث من قبل شيئاً .

وطال استقرار الأصمعي الأخير في البصرة زهاء ثلاثين سنة اخرى ، استطاع خلالها ان يتم رسالته العلمية في حلقته ، منصرفاً الساعات الطوال من يومه الى التأليف والتصنيف ، في بيته ، وجمع ما ادخر في ألواحه ودفاتره من لغة ونحو وأدب وأخبار ، حتى تم له تأليف العشرات من الكتب التي سنتحدث عنها في مكان آخر . وكان يساعده في ذلك شباب من اسرته درسوا عليه وأفادوا من علمه ، منهم ابن اخيه « عبد الرحمن الأصمعي » وابن اخته « احمد بن حاتم الباهلي » اللذان كانا يكتبان بين يديه .

---

(١) تاريخ بغداد : ج ١٠ ص ٤١٥ .

ولم يترك الدرس والتحصيل رغم ما وصل اليه من العلم الغزير والأدب الجم .. يقول صاحب كتاب « مجالس ثعلب » : قيل للأصمعي : « كيف حفظت ونسي اصحابك ؟؟ قال : درست وتركوا »(١) . كما لم يترك التدريس في حلقته والتأليف في بيته حتى أثقلت الشيخوخة كاهله .. يقول « التوزي » احد طلابه : خرجت الى بغداد فحضرت حلقة « الفراء » ، فلما انس بي قال : ما فعل ابو زيد الأنصاري ؟؟ قلت : ملازم لبيته وحلقته في المسجد وقد اسن ؛ قال : ذاك أعلم الناس باللغة وأحفظهم لها . ثم قال : وما فعل ابو عبيدة ؟؟ قلت : ملازم لبيته ومسجده على سوء خلقه ، قال : اما انه اكمل القوم وأعلمهم بأيام العرب ومذاهبها . ثم قال : وما فعل الأصمعي ؟؟ قلت : ملازم لبيته ومسجده ، قال : ذاك أعلمهم بالشعر وأتقنهم للغة وأحضرهم حفظاً(٢) .

هذا ما كان من امر نشاطه في الناحية الفكرية خلال هذه الفترة الأخيرة من ايامه . وأما الجانب الشخصي فيها فلم يختلف عن ذي قبل الا في امرين : اولهما ، انه بعد ان بلغت سمعته جوانب البلاد الاسلامية وأجواء العلم والأدب العربي فيها ، بفضل المكانة التي كان قد وصل اليها في قصر الرشيد ، لم يعد بحاجة الى منافسة احد من الناس في هذا المجال ، وخفت وطأة الحرص عنده في سبيل ان لا يغلب في مناظرة او مناقشة علمية أو أدبية ؛ وصار ولاة البصرة وأمثالهم يخطبون وده وصحبته وينشدون ارضاءه ، لبقاء صلته الأدبية بشخص الخليفة المأمون . ولم يأت البصرة وزير أو أمير الا رغب في زيارته ومقابلته ، وتشوق الى سماع حديثه

(١) المزهر : ج ٢ ص ١٩٣ .
(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٥١ .

وشيء من ذكرياته مع الرشيد ؛ وقلما ورد البصرة عالم او اديب الا قصد المسجد وجلس في حلقته الضخمة لأخذ شيء من الفائدة عنه ، وربما عد ذلك كسباً ادبياً له ، ليقول غداً : سمعت الأصمعي ، وجلست الى الأصمعي [1] ...

والأمر الثاني ، هو انه لم يعد فقيراً معدماً كما كان ، ولكنه اصبح في نعمة من الثراء يحسده عليها الكثير من علماء ذلك العهد ؛ وبات في غنى عن عطاء احد من الناس اذا جاء ذلك العطاء بمنة وفضل ؛ وفي منأى عن ارضاء سراة البصرة ووجوهها ومداجاتهم في سبيل الحصول على وسائل العيش التي توفرت لديه بغزارة .. وقد جاء في بعض الأخبار انه بات يتاجر بالفواكه والأثمار في صفقات كبيرة ، وربما كانت تلك الاثمار والفواكه من حاصلات مقاطعاته الزراعية [2] . وقيل انه صار يقتني الخيل والابل ويتاجر بها بمساعدة نفر من بني أصمع ، الذين مارسوا هذه المهنة منذ زمن بعيد ومهروا فيها [3] .

ولكنه ظل بخيلاً رغم سعة حاله ، فلم يترك الاستقصاء والمساومة في معاملاته ، وربما زاد بخله وامساكه بتقدمه في السن جرياً مع الطبيعة « اذا شاخ البخيل زاد حبه للمال » .. ولم يبدل منزله المتواضع في حي بني اصمع ؛ وعاد الى سابق عهده في اهمال مظهره وأثاثه البيتي . وصار يركب الحمير في ازقة البصرة بعد براذين الخلفاء يوم كان في حاشية الخليفة هارون الرشيد .. قيل له يوماً وهو راكب على حمار رخيص : ابعد براذين الخلفاء صرت تركب هذا الحمار ؟؟ فابتسم وانشد :

---

(١) كان من دواعي الفخر ، عند العلماء ممن عاصروه وعاشوا بعده ، ان يقول احدهم حدثني الأصمعي ، او يروي عن لسانه فكرة او لغة او نادرة . وفي كتب اللغة والأدب امثلة كثيرة على ذلك .

(٢) كتاب البخلاء : ٨٧ .

(٣) نزهة الألباء : ١٢٨ .

ولما ابت الا طراقاً بوردهـــا وتكديرها الشرب الذي كان صافيا
شربت برنق من هواها مكدر وليس يعاف الرنق من كان صاديا

ثم قال وهو يسوق حماره : « هذا واملك ديني احب اليّ من ذاك مع فقده [١] »

ولم يكن جوابه هذا من قبيل تلك الأجوبة التي اعتاد سابقاً ان يدرع بها لاخفاء بخله واهماله ، ولكنه كان في الواقـع قد تزهد عند عودته الى البصرة وازداد ورعه وتقلصت رغبته في حب الدنيا ، وصار يتجنب كل مكروه او منهي عنه من قبل الدين . . يقول ابو حاتم السجستاني : اتيت الأصمعي بهدية ـ اناء من فضة ـ قد اتقن صنعه وعني بنقشه ، فاستحسنه وصار يطيل النظر اليه و يعجب بصنعه ، فقلت له : انه من الفضة ، فدفعه الي ، وقال : اعفني من قبوله ، لأني سمعت النبي عليه السلام قـد نهى عن الشرب بالفضة ! ولم يقبله [٢] .

مرضه وموته

كان الأصمعي سليم الصحة متماسك الجسم في كهولته وفي شيخوختـه . وما رأيناه يوماً شكا علة مزمنة في جسده ، إلا بعض العوارض المرضيـة الطارئة كالحمى التي اعتادها سكان البصرة منذ تأسيسها ؛ وربما كانت هي الحمى المنتشرة اليوم لوجود المستنقعات و (الأهوار) القريبة من هذه المدينة .

وقد يكون السر في تماسكه الصحي ومتانته هو تكوينه الجسماني قبل كل شيء ، فقد كان نحيفاً غير بدين ولا مفرط في السمنة ، ولم يعرف بشره

---

(١) ابن خلـكان : ج ٢ ص ٣٤٧ ـ البيتان للشاعر المعروف بأبي حيه .
(٢) كتاب الصناعتين : ج ١ ص ٦٥ .

في الأكل ، ولم يكن ذواقاً للطعام محباً لألوانه الطيبة ، وربما قلد الأعراب في اسفاره وتنقلاته مكتفياً بشيء من التمر والسويق . ثم انه كان نشيطاً دائم الحركة - كما رأينا - كثير التنقل بين موارد العلم والأدب ومصادرهما ، في البصرة واطرافها وفي البوادي البعيدة ؛ وفي غدوه ورواحه واسفاره بين بغداد والرقة والكوفة والحجاز على ظهور الابل وصهوات الخيل والحمير ؛ وتلك رياضة تكسب الجسم قوة وتدخر له المتانة والمقاومة . والأسفار في البوادي والنجود والسهول تريح النفس ، وتبدل الأجواء ، وتبعث الحيوية والنشاط .. ولا ننسى ايضاً بأن المرح الدائم ، ومجالسة الظرفاء ، وتبادل النوادر والطرائف والملح هي من أمتع الأغذية للروح ، وأبعد للهم ، وأنفى للقلق والاضطراب النفسي المحطم للأعصاب .

مارس الأصمعي كل هذا في شبابه وكهولته حتى المراحل الاولى من شيخوخته . وقد رأيناه يحج حجته الأخيرة وهو قد ناهز السبعين ، ولا نعتقد بأنه حج بعد ذلك لأن السفر الى الحجاز يحتاج الى قطع الصحراء عرضاً من البصرة الى مكة ، وفي ذلك ما فيه من متاعب ومشاق تحتاج الى جهود مضنية في ذلك العهد . ولكنه لم ينقطع عن المربد ومنازل الأعراب المجاورة للبصرة حتى تعدى عتبة الثمانين ، وصار يحس بثقل الأعوام المتراكمة على كتفيه .

رآه احد اصحابه يوماً وقد اتعبه السير في زيارته لصديق ، فقال له : كيف حال الأصمعي ؟؟ قال : « حال من صحب الدنيا حتى اتعبته » .

وجلس يوماً بين طلابه ، فشكا لهم مرضاً خفيفاً كان قد اعتراه ، فقالوا له : طارىء زائل وعافية نرجوها لك ، فقال منشداً :

اذا الرجال ولدت اولادها

واضطربت من كبر اعضادها

وجعلت اسقامها تعتادها

فهي زروع قد دنا حصادها (١)

وكان يسير يوماً في ازقة البصرة وبجانبه احد طلابه ، يسير معه ، وصار الناس يمرون به ويسلمون عليهما ، وبعضهم يقف ويسأله قائلاً : كيف الأصمعي ؟ ؟ فالتفت الى صاحبه الذي معه ، وانشد بيت لبيد ابن ربيعة :

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ولما قارب التسعين ، تقلص نشاطه ، وقلت زياراته لمجالس اصحابه ، واقتصر على بيته ومسجده ، ومجلس صديقه القديم الأمير سعيد بن سلم الباهلي في بعض الأحيان . وبدأ يذكر الموت ويتخوف منه ويكرر قوله : « ربي ، خفف حسابي بين يديك » ؛ ثم صار اذا تذكر امراً سيئاً صنعه في ماضيه استغفر ربه ، وحاول اصلاحه اذا كان مما يمكن تلافيه .. قيل ان احدهم انشد امامه قصيدة الأعشى التي يقول في مطلعها :

بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا   واحتلت الغور والجدين فالفرعا

فقال لحاضريه : اعترف لكم باني كنت قد اضفت على هذه القصيدة بيتاً من عندي ، وهو :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فاحذفوه منها لأنه دخيل عليها (٢) .

ويقول ابو حاتم السجستاني : قات للأصمعي في اواخر ايامه : في

---

(١) الأمالي : ج ٢ ص ١٨٧ .

(٢) الأغاني : ج ١٦ ص ١٩ - وفي رواية اخرى ان الذي اضاف هذا البيت على القصيدة هو ابو عمرو بن العلاء .

نفسي شيء اريد ان اسألك عنه ، قال : سل ، قلت : اريد ان تحدثني بما جرى بينك و بين سيبويه من المناظرة التي اشتهر خبرها بين الناس ؛ فحدثني عنها بالتفصيل ، ثم اعترف بأن سيبويه كان على حق ، وقال : « والله ، يا ابا حاتم ، لقد نزل بي في تلك الساعة شيء من سيبويه وددت ان لم اتكلم في شيء من العلم ، لأنه كان أصوب مني رأياً في المسألة وقد غلبته بلساني (١) . »

ونحن لا نعلم بالدقة متى ترك الأصمعي حلقته في المسجد . ولكن الذي يغلب على الظن انه تركها قبل وفاته بعدة اعوام ، اي قبيل بلوغه التسعين ؛ وكان يومئذ قد توفي صاحباه ابو زيد الأنصاري وأبو عبيدة . وصار يشعر بالضعف يدب في ذاكرته شيئاً فشيئاً ، ويحس بوهن في عزيمته فلا يقدر على ادارة مجلس علمي كبر طلابه فيه ، ونبغ شبابه ونضجت ثقافتهم .

وقيل انه عند بلوغه التسعين انقطع عن الناس ، فصار اصحابه ومحبوه وطلابه يزورونه في داره . ثم طمست ذاكرته ، وأصبح لا يستطيع ان يتذكر ما يريد قوله في المناسبات الا بعد لأي وجهد ؛ ومن حق تلك الذاكرة ان تستريح بعد ذلك الاجهاد والانهاك .. وقيل ايضاً انه اصيب في اواخر ايامه بنوع من الهذيان ، فصار يتلفظ بكلمات لا يفهم معناها ، ولكنه شفي من ذلك بعد قليل (٢) . وفي العام الرابع والتسعين من عمره انتابه مرض شديد أقعده في فراشه ؛ ثم ثقل عليه فانصرف عن عواده الى ذكر الله والاستغفار .

---

(١) معجم الأدباء : ج ١٦ ص ١٢٥ .

(٢) عيون الأخبار : ج ٢ ص ٢١١ .

وفي ليلة من عام (٢١٧ هـ) الموافق لعـــام (٨٣٢ م) اغمض ابو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي جفنيه ، وصعدت روحه الى بارئها ، فانطفأ بموته مشعل من اكبر مشاعل الحضارة الاسلامية ،ومات أحد« الأئمة الثلاثة الذين أخذ عنهم جل ما في ايدي الناس من اللغة والشعر القديم .. بل كله » .

وفي صباح تلك الليلة أشيع خبر وفاته ، فخرجت البصرة وراء نعشه تودع نابغة من نوابغ أبنائها ، وعلماً من أعلام نهضتها ، خدم اللغـــة والأدب سبعين سنة بدون وهن ولا انقطاع ، وملأ جوها – مع من ملأ – ظرفاً وملحاً ونوادر وطرائف بقيت حية خالدة بعـده .. وقيل لم يبق في البصرة عالم أو متعلم أو أديب إلا مشى – يومئذ – في جنـازته ، حتى خصومه الذين ابغضوه في حياته .

والغريب في أمر جنازته انها كانت اشبه بمظاهرة علمية وأدبية بـين تلك الجماهير الزاخرة من المشيعين من رجال الفكر . والأغرب من ذلك ان يختلف فيها أصدقاء الأصمعي وخصومه حول فضله وأدبه وآرائه كما كانوا يختلفون حول ذلك ايام حياته ، رغم جلال الموقف ورهبة الموت وحزن الأقربين .. فقد روى « ابو العيناء » قال : كنت أسير وراء الجنـازة ، والناس بين حزين وآسف ومطرق خاشع ، وشاعر يتمتم برثائه له ، وتلميذ يذكر فضله ، فمر بي الشاعر ابو العالية « الحسن بن مـالك الدمشقي » وهمس في أذني ابياتاً يقول فيها :

لا در در نبات الأرض اذ فجعت	بالأصمعي فقد أبقت لنـا اسفاً
عش مابدا لك في الدنيا فلست ترى	في الناس منه ولا من علمه خلفا

ثم مضى في سيره ؛ وجاءني بعده الشاعر ابو قــلابة « حُبيش بن

عبد الرحمن » ـ وكان شيعي المذهب ـ فأنشدني همساً :

لعن الله اعظماً حملوها　　نحو دار البلى على خشبات
اعظماً تكره النبي وآل البيت　　والطيبين والطيبات

فعجبت من اختلافهما فيه بالرأي (١) .

وفي رواية أخرى : ان عددا من أقرباء الأصمعي كانوا يتقدمون الصفوف وراء جنازته ، وفيهم ابن أخيه « عبد الرحمن » ـ وكان يعتبر من الثقلاء ـ فسمعه بعضهم يقول : « انا لله وإنا اليه من الراجعين » ولم يقلها كما انزلت « .. وانا اليه راجعون » فقال أحد السامعين لأصحابه : « ما على هذا لو استرجع كما علمه الله ؟؟ » (٢) .

ثم اجتاز المشيعون بالنعش ازقة البصرة نحو « جبانة بني أصمع » حتى وصلوها وهناك وضع الجثمان بجانب القبر ، وصلى عليه الناس وراء امامهم « الفضل بن اسحاق العباسي » ، ثم انزل الى مثواه الأخير ، ووري فوقه التراب ، وابنه عدد من كبار طلابه ومحبيه ، ورثاه الشعراء من منصفيه ، فقال محمد بن ابي العتاهية :

اسفت لفقد الأصمعي لقد مضى　　حميداً له في كل صالحة سهم
تقضت بشاشات المجالس بعده　　وودعنا اذ ودع الأنس والعلم

---

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٨ . في رأينا ـ اذا صحت رواية ابي العيناء هذه ـ ان الشاعر حبيش بن عبدالرحمن هذا لم ينصف الأصمعي في ذلك الموقف ، ولم يقل الحق فيه ، لأن بغض النبي خروج عن الاسلام ، ورجل كالأصمعي يعرف ذلك وهو على ما هو عليه من التدين والتقوى !! ثم اذا كان حبيش هذا يعتقد بأن الميت كان يبغض النبي فلماذا خرج في تشييع جنازته ، ان لم يكن منافقاً ؟؟ الحق ان هذا الشاعر اعطانا مثلا من اولئك الخصوم الذين كانوا يفترون على الأصمعي ولا يتورعون في اكاذيبهم عليه .

(٢) الدميري : ٥٥ .

وقد كان نجم العلم فينا حياته   فلما انقضت أيامه أفل النجم (١)

ذريته

تتواتر الأخبار والروايات على ان الأصمعي كان قد تزوج وأنجب ، ولكننا لم نعثر على اثر لأولاده ، هل كانوا بناتاً وبنين ام من البنات فقط . وقد علمنا بأنه كان يكنى بأبي سعيد ، فهل كان له ولد بهذا الاسم ، ام هي كنية مجردة اطلقها على نفسه او اطلقها الناس عليه بدون وجود المكنى به كما هي العادة عند العرب في كل زمان ؟؟ ولم يخبرنا احد عن اسم زوجته او عن نسبها ، والأغلب انها كانت باهلية ان لم تكن اصمعية في الصميم .. وهل تزوج واحدة ام اكثر من واحدة ؟؟

اما انه قد تزوج وأنجب اولاداً ، فقد روى ابو حاتم السجستاني قال : قال لي الأصمعي في كبره : « كنت شاباً مقتبلاً ، فتزوجت ، فولد لي ، وولد لأولادي وأنا حي .. » (٢) وفي كتاب الفهرست : « انه ترك عقباً بعده .. » (٣) . والظاهر ان عقبه هذا كان من البنات وليس فيهم بنون ، فأهمل التاريخ ذكرهن كعادته في اهمال ذكر النساء غير الشهيرات .

ولو كان للأصمعي اولاد من البنين لشاد بذكرهم في رواياته او تحدث عنهم ونوه بأسمائهم ، ولعني بتربيتهم وتثقيفهم فكان لهم شأن يذكر كما كان لابن اخيه « عبد الرحمن الأصمعي » وابن اخته « احمد بن حاتم الباهلي » .. وأكثر من ذلك ما رواه صاحب كتاب معجم الأدباء ،

---

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص٣٤٨ ـ وقيل ان ناظم هذه الابيات هو ابو العتاهية نفسه والاصح هو ابنه لان الشاعر ابا العتاهية توفي قبل الأصمعي بعدة سنوات .

(٢) الأمالي : ج ٢ ص ١٨٧ .

(٣) الفهرست : ٥٥ ـ المعارف : ١٨٤ .

قال : بأن آثار الأصمعي من كتب ومؤلفات انتقلت بعد موته الى يد ابن اخته ابي نصر « احمد بن حاتم » الذي صار يتكسب بها ـ على الشكل الذي سنذكره فيما بعد ـ فلو كان للأصمعي ابن ذو شأن لما ترك ثروة ابيه الضخمة بيد غيره .

ودليل آخر لا يخلو من قيمة ، هو ان الأصمعي كان من كبار العلماء الخالدين الذين تركوا وراءهم ذكراً حسناً ومجداً يصلح للمباهاة والفخر بين الناس . ومع ذلك لم نجد ، في العصور التي اعقبت عصره ، احداً من العلماء او الأدباء او غيرهم ادعى بأن نسبه يتصل بشخص الأصمعي عن طريق ابنائه ، ولم يقدم احد على ذلك لانه ـ على ما يظهر ـ لم ينجب ولداً ذكرا .

والذي يقرب الى الواقع انه كان قد تزوج بامرأة واحدة لا اكثر ، وذلك لقوله :

يا امة الله ألا تسمعي ما قال عبد الملك الأصمعي
واحدة اعضلني امرها فكيف لو قمت على اربع

ويبدو لنا ان هذه الزوجة قد توفيت في سن مبكرة بعد ان تركت منه عدة بنات ، فلم يتزوج بعدها ، واهتم بتربية صغيراتها حتى كبرن وتزوجن وأنجبن . والدليل على ذلك تلك القصة التي مر ذكرها وتواترت فيها الروايات وهي انه « دخل ذات يوم على جعفر بن يحيى البرمكي ، فقال له : هل لك زوجة يا اصمعي ؟؟ قال : لا ، قال : فجارية ؟؟ قال : جارية للمهنة ـ اي للخدمة ـ ، فقال جعفر : هل تحب ان اهديك جارية نظيفة ؟؟ .. » الى آخر القصة ، وتنتهي بعدم اهداء الجارية له ، وتعويضه منها بألف دينار . وقد علمنا بأن الأصمعي لم يتصل بالبرامكة

إلا بعد مجيئه الى بغداد واتصاله ببلاط الرشيد ، وعمره ـ يوم ذاك ـ خمسون سنة ؛ كما علمنا ايضاً بأن نشاطه الجنسي انقطع في كبره (١) ؛ فلا يستبعد ان يكون قد بقي على ترمله حتى النهاية .

طلابه

ليس في الامكان احصاء عدد طلابه ، لكثرة من لازم حلقته في مسجد البصرة خلال ستين سنة ؛ ولكثرة ما تنقل هو في البلاد والفيافي ، فعلم وتعلم ، وأفاد واستفاد ؛ ولم يترك موضعاً طرقه ومكث فيه طويلاً أو قليلاً الا ترك وراءه فيه استاذاً أو تلميذا في وقت واحد . وليس من الصواب ان نعتبر كل قائل في كتب اللغة والادب : « حدثني الأصمعي » او « سمعت الأصمعي » تلميذاً له ؛ ولكننا عرفنا بعض هؤلاء الذين لازموا مجلسه في مسجد البصرة ، او درسوا عليه حقاً في اماكن أخرى ، فأصبحوا فيما بعد من مشاهير علماء اللغة أو النحو أو الأدب او الأخبار.. نذكر منهم :

ابو حاتم السجستاني (٢) « سهل بن محمد » ، وهو عربي من جشم ؛ وكان اماماً في اللغة والأدب والأخبار ، يتقن العروض واخراج المعمى منه ! وله شعر رصين جيد . وقد ذكر ابن خلكان عدداً يبلغ الثلاثين من مؤلفاته ، وجلها في اللغة من باب (المعاني المجتمعة في أصل مشترك) مثل كتاب الوحوش والسيوف والجراد وغيرها ؛ ومنها ما يبحث في التاريخ والسير مثل كتاب « المعمرين » ويشتمل على اخبار مائة وعشرة من مشاهير المعمرين في الجاهلية والاسلام (٣) .

---

(١) البصائر والذخائر : ٥٦ .

(٢) توفي ابو حاتم عام ٢٤٨ هـ .

(٣) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٣٧ .

لازم ابو حاتم حلقة الاصمعي زمناً طويلاً وأخذ عنه معظم علومه . وكان أطول من لازمه وعاشره من بين طلابه ، واكثر من روى عنه ، ولم يفارقه حتى توفي ؛ فكان بالنسبة الى الأصمعي وقرب منزلته منه اشبه بالأصمعي من استاذه ابي عمرو بن العلاء . وله أخبار وروايات تنم على صحبة وصداقة متينة لم تنفصم عراها قط حتى فرق الموت بينهما . وقد اخبرنا بأنه كان يجلس بجانب سرير مرضه في أيامه الأخيرة ، فيحادثه ويسأله عن كل شيء فيجيبه الأصمعي على كل ما يسأل ولم يستثقله حتى في مرض موته .

ولم يشد ابو حاتم حلقته في مسجد البصرة الا بعد وفاة استاذه . وهو من أصح وأوثق من روى وتحدث عن الاصمعي وآرائه ؛ وقد ألف كتباً كثيرة جمعها من محاضراته وما أخذ عنه . فكانت صحبته الطويلة هذه للأصمعي سبباً من اسباب شهرته وتضخم حلقته والتفاف طلاب العلم حوله لاعتبارهم اياه اشبه بمتمم لرسالة ذلك الأصمعي العظيم . وقد نبغ على يد ابي حاتم عدد من اجلة علماء عصرهم في اللغة والأدب امثال « محمد بن يزيد المبرد » و « ابن دريد » وغيرهما .

والرياشي « العباس بن الفرج » (١) . وكان من علماء اللغة والنحو ، كثير الاطلاع في اخبار العرب وتاريخهم . لازم الأصمعي طويلاً وأخذ عنه سائر العلوم ، وروى الأدب والأخبار . وكان اختصاصه اكثر ما يكون في اللغة ثم النحو والاخبار . وتخرج على يده عدد من شخصيات ذلك العهد مثل « ابراهيم الحراني » المعروف في بلاط الخليفة الهادي ، « وابن ابي الدنيا » وغيرهما .

---

(١) توفي الرياشي عام ٢٥٧ ـ قتل في معركة الزنج .

وابو عمرو الهروي « شمر بن حمدويه » (١) . وكان لغوياً أيضاً ، حافظاً للغريب من الشعر . درس على الاصمعي وأخذ عنه اللغة التي اختص بها فيما بعد ، وأخذ النحو والادب . وله مصنفات كثيرة في اللغة ، اهمها معجم في اللغة بدأ به بحرف الجيم ، على ترتيب كتاب العين للخليل بن أحمد . ولم يسبقه أحد الى مثل هذا المعجم ، ولكنه ضاع وبقي خبره فقط .

ابو هفان « عبد الله بن احمد بن حرب » (٢) . وكان لغوياً شاعراً ، ومقتراً ضيق الحال . أخذ اللغـة عن الاصمعي ودرس الادب عليه . وله كتاب « اخبار الشعراء » وكتاب « صناعة الشعر » واشعار كثيرة نجدها في كتاب معجم الادباء (٣) . وأخذ عنه « يموت بن المزرع » و « احمد بن ابي طاهر » وغيرهما .

و « علي بن المغيرة » المعروف بالاثرم (٤) . وكان لغوياً ونحوياً . يشتغل وراقاً ينسخ كتب العلماء وهي مصححة . عينه اسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد لنسخ الكتب العلمية المصنفة من قبل علماء ذلك العصر والتي كانت تحفظ في قصر الخلافة . ولعليّ هذا اشعار كثيرة بقي بعضهـا حتى يومنا هـذا (٥) .

وأبو عمرو الجرمي « صالح بن اسحاق » (٦) . وكان فقيهاً عالمـاً بالنحو وباللغة . وهو من اهل البصرة ، أخذ النحو عن يونس النحوي واللغة والأدب عن الأصمعي ؛ ثم قدم بغداد فدرس النحو أيضاً على الأخفش .

---

(١) توفي ابو عمرو الهروي عام ٢٥٥ هـ .
(٢) توفي ابو هفان عام ١٩٥ هـ .
(٣) معجم الادباء : ج ١٢ ص ٥٤ .
(٤) توفي الأثرم عام ٢٢٣ هـ .
(٥) معجم الادباء : ج ١٦ ص ٧٧ .
(٦) توفي ابو عمرو الجرمي عام ٢٢٥ هـ .

ومن مؤلفاته في النحو كتاب جيد يدعى « الفرخ » ومعناه فرخ كتاب سيبويه المعروف باسمه . وله أيضاً كتاب مختصر في النحو و كتاب « الأبنية » في اللغة و كتاب « العروض » (١) . وكان متديناً ورعاً حسن المذهب . وقيل أنه درس ديوان الهذليين على الأصمعي وروى عنه الشيء الكثير . وتخرج على يده عدد من علماء ذلك الزمن .

وابو عثمان المازني « بكر بن محمد بن عثمان » (٢) . وهو من أشهر النحاة في عصره واليه انتهى علم النحو . وله مؤلفات كثيرة منها كتاب « الألف واللام » و كتاب « التصريف » و كتاب « العروض » وغيرها ، ولكن لم يصلنا منها شيء . درس على الأصمعي اللغة والنحو والأدب والأخبار ، ولازمه طويلاً وروى عنه الكثير . وعاصر المازني الخليفة العباسي « الواثق » و « المتوكل » وجالسهما . وعنه أخذ الكثير من نحاة ذلك العصر (٣) .

وابن السكيت « يعقوب بن اسحاق » (٤) وهو من نحاة الكوفة ، لقي الأصمعي وأخذ عنه اللغة والأدب . وله تآليف كثيرة أشهرها كتاب « اصلاح المنطق » و كتاب « تهذيب الألفاظ » وقد تخرج على يده علماء كثيرون في النحو واللغة والأدب والأخبار (٥) .

وأبو عمران « موسى بن عبد الملك » (٦) . وكان من جملة الرؤساء وأفاضل الكتاب وأعيانهم . خدم جماعة من الخلفاء وكتب لهم . وكان اليه (ديوان السواد) في عهد المتوكل . وله ديوان رسائل وأشعار

---

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ١٧٨ .

(٢) توفي المازني عام ٢٤٩ هـ .

(٣) ابن خلكان : ج ١ ص ٢٥٤ .

(٤) توفي ابن السكيت عام ٢٤٤ هـ .

(٥) السيرافي : ٨٥ .

(٦) توفي ابو عمران عام ٢٤٦ .

كثيرة لا تزال آثارها باقية في بعض كتب الأدب . أخذ عن الأصمعي ، وصاحبه في بغداد أيام كان هذا في بلاط الرشيد (١) .

والتوزي « عبد الله بن محمد » (٢) . وكان من كبار علماء النحو واللغة والأدب . ومن أعرفهم بأخبار العرب . أخذ اللغة وغيرها عن الأصمعي ، وقد لازمه طويلاً وتحدث عن أخباره (٣) .

« يحيى بن واقد الطائي : ولد ببغداد وانتقل الى البصرة فتوطنها ، وأخذ عن الأصمعي النحو واللغة . وكان ثقة صدوقاً اخذ عنه الشيوخ وتخرج عليه عدد كبير من الناس . وله مؤلفات لم نعثر عليها (٤) .

« ابراهيم بن سفيان » المعروف بالزيادي نسبة الى جده الأعلى زياد ابن ابيه : وكان نحوياً لغوياً راوية ، قرأ النحو على سيبويه ، وأخذ اللغة عن الأصمعي . وكان شاعراً ولا تزال آثاره الشعرية في بعض كتب الأدب . ومن تصانيفه كتاب « النقط والشكل » و « تنميق الأخبار » و « أسماء السحاب والرياح والأمطار » وغيرها (٥) .

وربما كان عدد من اخذ الأدب والشعر عن الأصمعي من الطلاب اكثر ممن اخذ عنه اللغة والعلم لما اشتهر به الأصمعي في ذلك الوقت من رواية غريب الشعر وتفسيره ونقده ، ومنهم :

« القاسم بن سلام » المكنى بأبي عبيد : كان ابوه عبداً رومياً من اهل (هرات) . اشتغل ابو عبيد بالحديث والأدب والفقه . وكان ديناً

---

(١) ابن خلكان : ج ٤ ص ٤١٩ .
(٢) نزهة الالباء : ٢٣٢ .
(٣) معجم الادباء : ج ٢٠ ص ٣٨ .
(٤) معجم الادباء : ج ١ ص ١٥٩ .

ورعاً متفنناً في اصناف علوم الاسلام والقراءات والفقه والعربية والأخبار . وهو يصح ان يعد من رجال الحديث لولا ان كتبه كان لها شأن لغوي . روى عن الأصمعي ، وألف بضعة وعشرين كتاباً ، وهو أول من ألف في غريب الحديث ولم يصلنا من كتبه غير كتاب « غريب الحديث » و « غريب المصنف » و « الأمثال » و « فضائل القرآن وأدبه » و « المواعظ » (١) .

« عمر بن شبه » ويكنى بأبي زيد ، ويدعى « ابن ريطة النميري » . نشأ بالبصرة شاعراً اخبارياً راوية صادق اللهجة ، وقد ألف ما يزيد على اثنين وعشرين كتاباً في وصف البصرة والكوفة ومكة وأمرائها وغير ذلك ، ضاعت كلها إلا كتاب « الجمهرة » وهو يشتمل على اخبار العرب العرباء وشيء من ايامهم وأشعارهم وحروبهم قبل الاسلام مع الفرس والروم واليمن وهو من قبيل القصص التاريخية (٢) .

« محمد بن سلام الجمحي » من اهل البصرة . كان عالماً بالشعر والأخبار . ألف كتاباً في طبقات الشعراء الجاهليين وطبقات الشعراء في الاسلام . وهذا الكتاب اقدم ما وصل الينا من كتب الطبقات ، وظل مرجع طلاب الشعر الى عهد غير بعيد . وقد اخذ منه صاحب كتاب الأغاني وأبو علي القالي في كتابه « الأمالي » والزجاج والسيوطي . وله كتب اخرى مفقودة ، منها كتاب « بيوتات العرب » و « ملح الأشعار » (٣) .

« هشام بن ابراهيم » المعروف بالكرنباني . جالس الاصمعي ، وكان

---

(١) ابن خلكان : ج ٣ ص ٢٢٤ – توفي القاسم بن سلام عام ٢٢٣ هـ .
(٢) ابن خلكان : ج ٣ ص ١٢٧ – توفي ابن شبه عام ٢٦٢ هـ .
(٣) جرجي زيدان : ج ٢ ص ١٠٨ – توفي ابن سلام عام ٢٣٢ هـ .

عالمًا باللغة وأيام العرب وأشعارها . روى عنه خلق كثير منهم « الفضل بن الحباب » . وله تصانيف عديدة أشهرها كتاب « الوحوش » و « النبات » و « الحشرات » ، « خلق الخيل » وله مجالس مع الشعراء والأدباء انتجت أشعاراً كثيرة [1] .

« احمد بن حاتم الباهلي » المعروف بأبي نصر ابن أُخت الأصمعي وأقرب الناس اليه ، وفيه يقول : « ما يصدق علي الا أبو نصر » . وكان أبو نصر يروي عن خاله كتبه كلها . اقام ببغداد ثم انتقل الى سامراء . . يقول « ابو العباس ثعلب » : دخلت على يعقوب بن السكيت وهو يعمل كتابه « اصلاح المنطق » فقال يا أبا العباس رغبت عن كتابي ؟؟ قلت له : كتابك كبير ، وأنا عملت الفصيح للصبيان ، فقال : سر معي الى أبي نصر صاحب الأصمعي ، فمضيت معه ؛ فلما كنا في الطريق ، قال : قد سألت أبا نصر عن بيت شعر فأجابني جواباً لم أرضه ، فهل أعيده عليه ؟؟ قلت : لا تفعل ، فان عنده أجوبة ، وقد أجابك ببعضها . فلما دخلنا عليه سأله عن البيت ، فقال له : يا مؤاجر ، انت وهذا وأنا قريبك حتى رموني بك ، عندي عشرون جواباً في هذا . فخجل من ذلك وخرجنا ، فقلت له : لا مقام لك ها هنا ، اخرج من « سر من رأى » واكتب الي بما تحتاج اليه لأسل عنه وأعرفك اياه . . ولأبي نصر من التآليف كتاب « الشجر والنبات » و « اللباء واللبن » و « الابل » و « ابيات المعاني » و « اشتقاق الأسماء » و « الزرع والنخل » و « كتاب الخيل » و « الطير »

---

(١) معجم الأدباء : ج ١٩ ص ٢٨٥ .

و « ما يلحن فيه العامة » و « الجراء » [1] .

(عبد الرحمن بن عبد الله الأصمعي) ابن اخي الأصمعي . كان من اللغويين الأدباء . وقد اشتهر في رواياته المأخوذة عن عمه . وكان يلازمه في حلقته ، ويصاحبه في بعض أسفاره حتى قيل أنه كان راويته الخاص به ويكاد لا يروي الا له بينما كان ابن عمته ابو نصر يروي لآخرين من العلماء عدا خاله . وعن عبد الرحمن أخذ عـــدد من العلماء كانوا يقصدونه لأخذ رواية عمه عنه ، لأنه كان ثقة . وقيل انه كان من الثقلاء . وله كتاب (معاني الشعر) ومن طلاب الأصمعي الذين اشتهروا اخيراً بالحديث والفقه :

« محمد بن عيسى » المعروف بالترمذي . وكان احد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث . صنف كتاب (الجامع والعلل) تصنيف رجل متقن . وبه كان يضرب المثل بالصدق ؛ وهو ضرير اعمى . يقول السيوطي انه درس على الأصمعي وأخذ عنه اللغة [2] .

« سليمان بن معبد » [3] المعروف بأبي داود السنجي المروزي . وكان محدثاً نحوياً دخل بغداد وأخذ عن الأصمعي وغيره ، ورحل في طلب العلم وجاب بلاداً كثيرة ؛ وكان ثقة وله معرفة تامة باللغة .

وقد سبق لنا ان ذكرنا في كتابنا هذا أسماء بعض من اخذوا عن الأصمعي كثيراً او قليلاً امثال الامام مالك والامام محمد بن ادريس الشافعي ، وعمرو بن بحر الجاحظ ، ومحمد بن القاسم المعروف بأبي العيناء

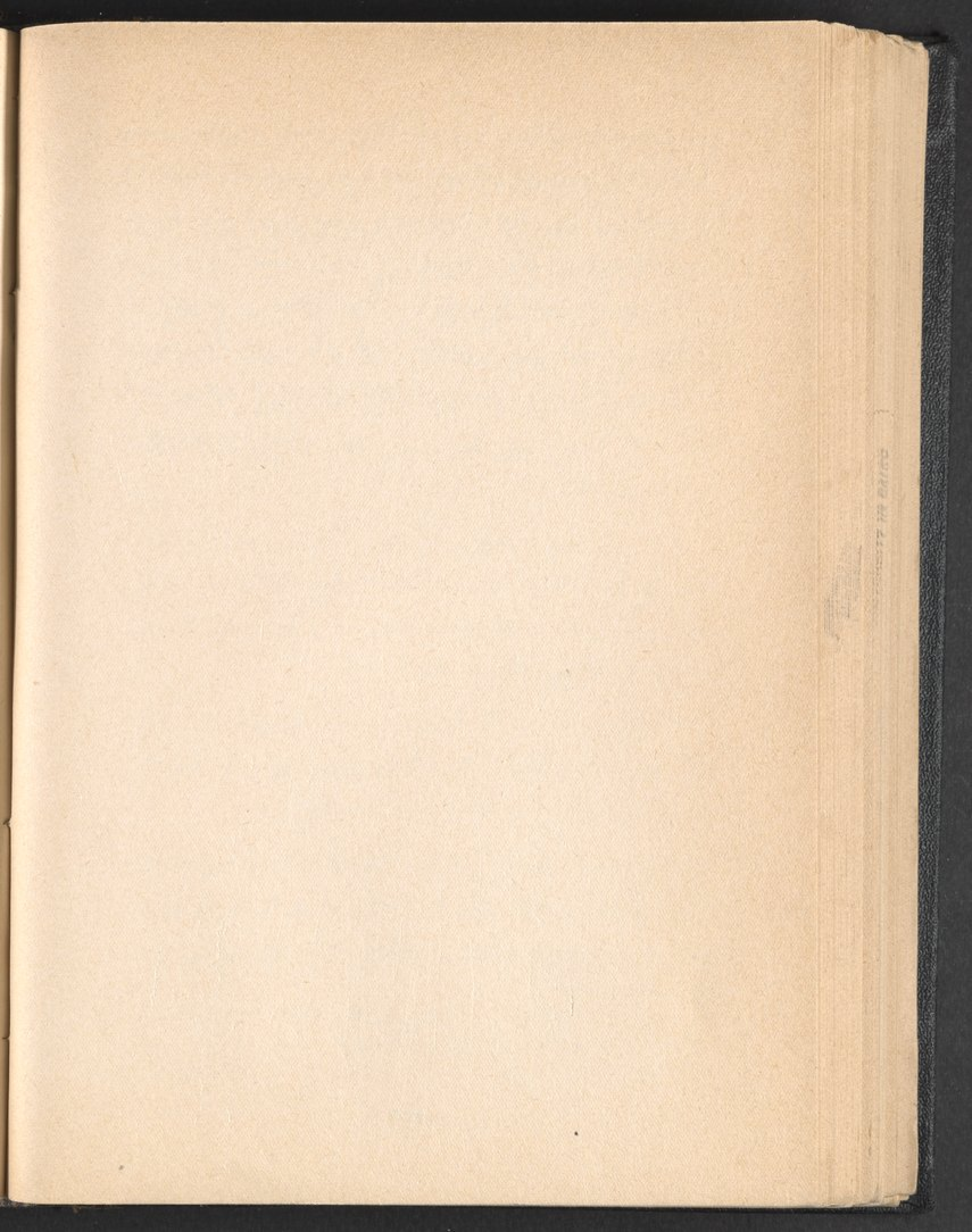
---

(١) معجم الأدباء : ج ٢ ص ٢٨٣ – توفي ابو نصر عام ٢٣١ هـ .

(٢) طبقات اللغويين للسيوطي : ٣١٣ – توفي الترمذي عام ٢٧٥ هـ .

(٣) توفي سليمان عام ٢٥٧ هـ .

واسحاق الموصلي ، والعباس بن الأحنف ، وأبي نواس وغـــيرهم .. واذا تفحصنا كتب السير وجدنا عدداً آخر كبيراً ممن درسوا عليه وأخذوا عنه امثـال : عمرو بن مسعدة وزير المأمون ، ونصر بن علي الجهضمي ، وأبي جعفر بن ناصح ، ورجـاء بن الجـارود ، ومحمد بن عبـد الملك بن زنجويه ، ومحمد بن اسحاق الصاغاني ، ويعقوب بن سفيان الفسوي ، وبشر ابن موسى الأسـدي ، وأبي العباس الكديمي ، وأبي عثمان بن نقيـة ، وأحمد بن محمـد اليزيدي ، والعباس بن رسـتم ... ولكل من هؤلاء تاريخ معروف .



هذا أجمل قسم في هذا الكتاب

القسم السادس

دراسة آثاره

١ ـ انتاجه :

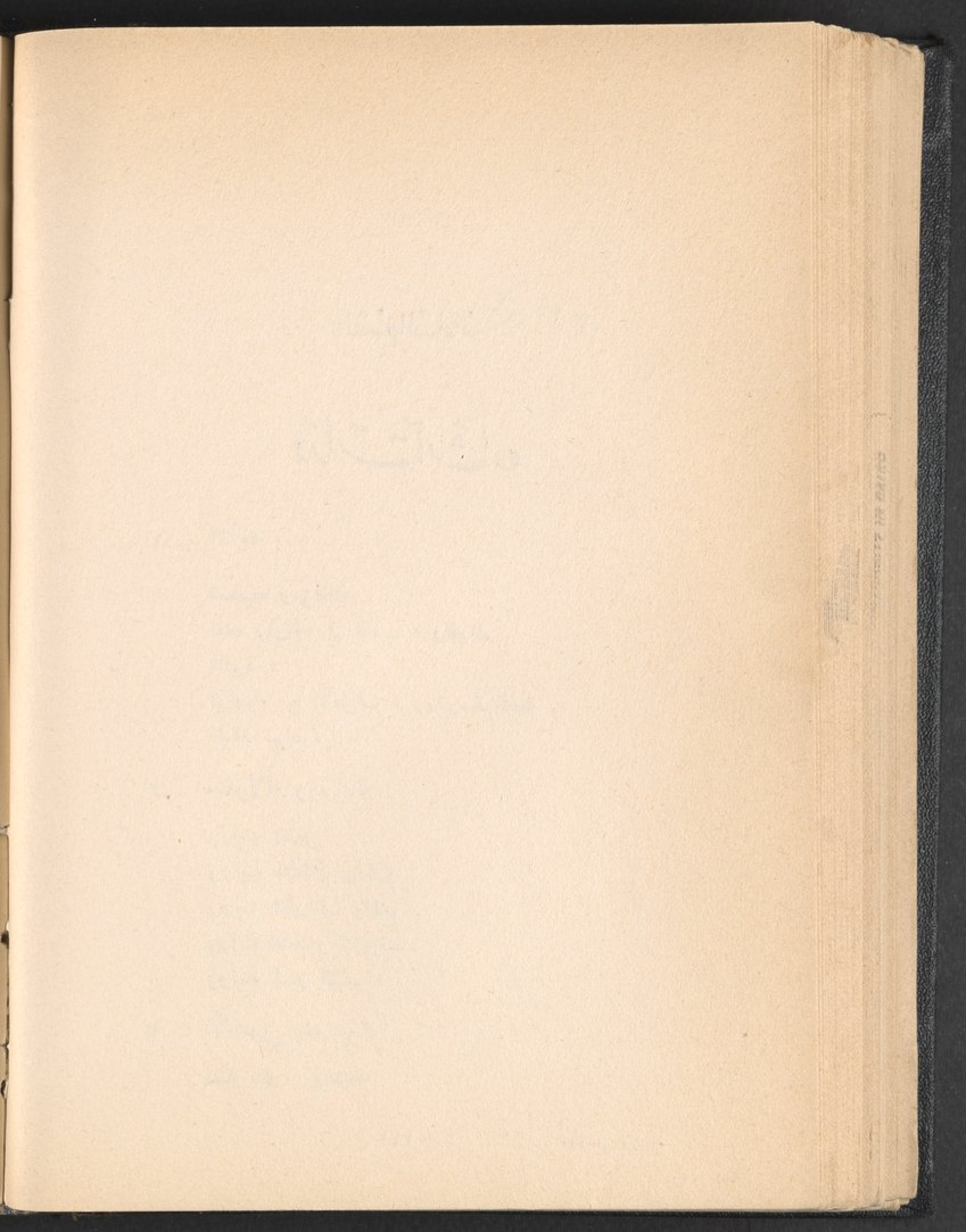
تصانيفه ومؤلفاته .
نقده وآراؤه في الأدب ، واقواله .
شعره .
نوادره عن الأعراب ، ومدرسة القصة .
الوان نوادره .

٢ ـ منقولاته ورواياته :

روايته للشعر .
روايته للأمثال والحكم .
روايته للطرائف والملح .
روايته للأخبار التاريخية .
روايته لسير الشعراء .

٣ ـ الأصمعي بعد موته .

قصة عنتر ، وغيرها .



مات الأصمعي ، وترك وراءه تراثاً ضخماً في العلوم التي اختص بها ؛ فكان ذلك عاملاً رئيسياً من عوامل خلوده . وهذا التراث على قسمين : منه ما كان من انتاجه كمؤلفاته ، وآرائه القيمة في الأدب والاجتماع ، وأشعاره التي نظمها في المناسبات . ومنها ما كان رواية عن الغير في اللغة والأدب والشعر والأخبار وغير ذلك مما كان من اختصاصه .

وليس بالمستطاع احصاء الكتب القديمة والحديثة ـ على اختلاف ابحاثها ـ التي نقلت واقتبست من تراثه هذا . ولا نغلو في القول اذا زعمنا بأنه يكاد لا يخلو مؤلف قديم ـ في اللغة او الأدب ـ من شيء من انتاجه أو رواياته ، سواء أذكر اسمه عليها أم لم يذكر .

يقول بعض العلماء : « لا عربية لمن لم يدرس الكتب الأربعة : البيان والتبيين للجاحظ ، والأغاني لابي الفرج الأصبهاني ، والأمالي لأبي علي القالي ، والعقد الفريد لابن عبد ربه » . وقد بحثنا في هذه الأسفار الأربعة بحثاً دقيقاً فوجدنا الجاحظ قد نقل عن الأصمعي في كتابه هذا نحواً من ستين رواية أو رأياً أو خبراً ، ووجدنا في الأغاني ما يقرب من مائة وخمسين مرة ذكر فيها اسم الأصمعي ؛ وأما كتاب الأمالي وكتاب العقد الفريد فيكاد لا يخلو فصل فيهما من رأي له أو رواية عنه ، حتى ليظن الباحث فيهما ان كلا من مؤلفيهما اعتمد اكثر ما اعتمد على تراث صاحبنا هذا .

وقل كذلك عن امهات كتب الأدب العربي الأخرى امثال « عيون الأخبار » و « أدب الكاتب » لابن قتيبة المتوفى في القرن الثالث الهجري ، و « ديوان المعاني » و « كتاب الصناعتين » لابي هلال العسكري في

القرن الرابع ، و « العمدة » لابن رشيق القيرواني في القرن الخامس ، و « نزهة الألباء » للأنباري في القرن السادس ؛ وغير هؤلاء في القرن السابع والثامن والتاسع ، وحتى علماء القرن العاشر أمثال السيوطي وغيره من أصحاب المؤلفات الكثيرة ، وكلهم قد ورد منهل الأصمعي وغرف منه .. هذا عدا المعاجم اللغوية القديمة الطافحة برواياته وآرائه ومذاهبه ، أو بآثار طلابه الذين لازموه طويلاً وأخذوا جل ما في مؤلفاتهم عنه .

من هذا كله نصل الى القول بأن الاحاطه بآثار الأصمعي الكثيرة ودراستها دراسة علمية ليس بالأمر الممكن ؛ لذا نكتفي هنا بالالمام ببعضها ، واعطاء صور منوعة منها ترينا ما بذله هذا النابغ العبقري من الجهود الجبارة في خدمة العلم والأدب ، في الناحيتين « : الانتاج » و « النقل والرواية » .

تصانيفه ومؤلفاته

بلغ عدد ما وصلنا حتى الآن من اسماء كتبه عن طريق المعاجم ومؤرخي سير العلماء والأدباء ، نيفاً وخمسين كتاباً ؛ وقد يكشف لنا المستقبل عن اسماء اخرى ما تزال مجهولة .. والمؤسف ان جل هذه المصنفات التي عرفنا اسماءها ضائع ، ولم يصل الى ايدينا منها غير النزر اليسير ، طبع البعض منها ، وبقي البعض الآخر في نسخ خطية تنتظر من يطبعها .

ذكر لنا (ابن خلكان) في كتابه (وفيات الأعيان) ما يأتي من هذه الأسماء (١) :

١ ـ كتاب خلق الانسان ٢ ـ كتاب الأجناس

---

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٣٤٩ .

٣ ـ كتاب الأنواء
٤ ـ « الهمز
٥ ـ « المقصور والممدود
٦ ـ « الفرق
٧ ـ « الصفات
٨ ـ « الأثواب
٩ ـ « الميسر والقداح
١٠ ـ « خلق الفرس
١١ ـ « الخيل
١٢ ـ « الابل
١٣ ـ « الشاء
١٤ ـ « الأخبية والبيوت
١٥ ـ « الوحش
١٦ ـ « فعل وافعل
١٧ ـ « الأمثال
١٨ ـ « الأضداد
١٩ ـ « الألفاظ
٢٠ ـ كتاب السلاح
٢١ ـ « اللغات
٢٢ ـ « مياه العرب
٢٣ ـ « النوادر
٢٤ ـ « اصول الكلام
٢٥ ـ « القلب والابدال
٢٦ ـ « جزيرة العرب
٢٧ ـ « الاشتقاق
٢٨ ـ « معاني الشعر
٢٩ ـ « المصادر
٣٠ ـ « الأراجيز
٣١ ـ « النحلة
٣٢ ـ « النبات والشجر
٣٣ ـ « ما اتفق لفظه واختلف معناه
٣٤ ـ « غريب الحديث
٣٥ ـ « نوادر الأعراب

وبعد أن ذكر ابن خلكان هذه الأسماء قال: « ... وغير ذلك » اعتقاداً منه بوجود غير هذه الكتب للأصمعي ولكن لم تصله اسماؤها، أو انه اكتفى بذكر هذا العدد خوف الاطالة. وقد جاء في كتاب « الفهرست » لابن النديم ما يؤيد هذه الأسماء، ويضيف اليها ما يأتي: [1]

(١) الفهرست: ٥٦.

٣٦ ـ كتاب الأوقات

٣٧ ـ » الدلو

٣٨ ـ » الرحل

٣٩ ـ » القصائد الست

٤٠ ـ » الخراج

٤١ ـ » السرج واللجام والشوي والعنال

٤٢ ـ » النسب

٤٣ ـ » الأصوات

٤٤ ـ » المؤنث والمذكر

٤٥ ـ » اسماء الخمر

٤٦ ـ » ما تكلم به العرب فكثر في افواه الناس

٤٧ ـ » الأصمعيات

والظاهر ان ابن النديم ايضاً لم يحص اسماء كل مؤلفاته . فقد وجدنا في بعض كتب الأدب واللغة اسماء اخرى تنسب الى الأصمعي ، مثلاً :

٤٨ ـ كتاب رجز العجاج ـ رواية الأصمعي ـ (١)

٤٩ ـ كتاب شرح ديوان رؤبة بن العجاج (٢)

٥٠ ـ كتاب شرح ديوان ذي الرمة

٥١ ـ كتاب الأبواب (٣)

وقد طبع اخيراً كتابان من روايـة ابي حاتم السجستاني عن استاذه

---

(١) خزانة الأدب : ج ١ ص ٨٤ .

(٢) جرجي زيدان : ج ٢ ص ١٠٢ .

(٣) الأمالي : ج ١ ص ٢٤٦ .

الأصمعي ، هما :

٥٢ ـ كتاب النخل

٥٣ ـ كتاب الكرم

وفي المكتبة الوطنية الفرنسية في « باريس » كتاب في نسخة خطية نقلت عن ابي حاتم السجستاني ايضاً ، وقد أخذه عن محاضرات القاها الأصمعي في بغداد ، وعنوانه :

٥٤ ـ العرب من ابناء هود .

وقد عثرنا ايضاً في بعض كتب اللغة والادب على مجموعات من الكلمات اللغوية ، مقتبسة من آثار الأصمعي ، منسقة متقاربة في المعنى ، فكأنها اخذت عن كتاب واحد عني بتصنيفه . ففي كتاب « المزهر » للسيوطي مثلاً نجد مجموعة من هذه الكلمات ، حول مادة (اللبن) واسمائه واوصافه منذ نزوله من الضرع حتى آخر ما يمكن ان يحصل فيه من تخمر وفساد ، تدل على احتمال وجود كتاب للأصمعي بعنوان « اللبن » ولكنه لم يذكر بين الاسماء التي عثرنا عليها (١) .

ومهما يكن الامر ، فان معظم كتب الأصمعي قد فقد واختفى ، وبقيت اسماء بعضها في ايدينا . وجل هذا الباقي الذي عثرنا على اسمائه لا نعرف طراز تصنيفه وما هي ابحاثه بالدقة ، اللهم الا ما كان قد اقتبس منه في مؤلفات بعض المتأخرين عن عهد الأصمعي . . فكتاب « الاجناس » مثلاً ، ضائع مفقود ، ولكن السيوطي اقتبس فصلاً صغيراً منه في كتابه المزهر ، فوجدنا فيه اربعة عشر معنى لكلمة « عين » وحدها ، فدلنا هذا على ان الكتاب

---

(١) المزهر : ج ١ ص ٢٦١ .

قد صنف على قاعدة « تعدد المعاني للكلمة الواحدة » (١) ؛ وهو اسلوب قريب جداً من أساليب المعاجم اللغوية الحالية عندنا . ويقول السيوطي : ان الأصمعي اول من اطلق كلمة « الاجنـــاس » على هذا النوع من التصنيف اللغوي . (٢)

ويقول الدميري في كتابه حياة الحيوان : « رأيت كتاب ـ غريب الحديث ـ للأصمعي في نحو مائتي ورقة ، مكتوباً بخط الحسن السكري » (٣) ولم يتحدث اكثر من ذلك عن هذا الكتاب . . وجاء في نزهة الالباء : ان كتاب « النوادر » صنعه الأصمعي واهداه الى جعفر بن يحيى البرمكي . ويجب ان لا نخلط بين كتاب « النوادر » هذا وكتاب « نوادر الأعراب » ، لأن الأول في اللغة ، والثاني مجموعة قصص صغيرة ذات معان اجتماعية مفيدة رواها الأصمعي عن الأعراب (٤) .

والظاهر ان كتاب « الخراج » مصنف في اللغة ، يبحث في اسماء الخراج وتوابعه ، ولا يبحث في الخراج من الناحية الفقهية التي عني بها ابو يوسف القاضي في كتابه المعروف . . وللأصمعي كتاب « شرح ديوان ذي الرمة » وهو كتاب ادب كما يدل عليه عنوانه ، ولا يستبعد ان يكون الأصمعي قد صنف هذا الكتاب وعني به ، وقدمه للخليفة هارون الرشيد الذي كان يتذوق اشعار هـذا الشاعر ويحفظ معظمها ـ كما ذكرنا سابقـاً ـ .

---

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢١٩ .
(٢) المزهر : ج ٢ ص ١٨٩ .
(٣) حياة الحيوان : ٧٣ .
(٤) نزهة الألباء : ١٠٥ ـ يقول الأنباري ان ابا محمد اليزيدي الف كتاباً باسم النوادر في اللغـة على مثال نوادر الأصمعي الذي عمله لجعفر البرمكي .

وفيما يأتي اسماء كتب الأصمعي التي وصلت ايدينا اليوم :

١ - **رجز العجاج** : رواية الأصمعي : ولا يزال الكتاب في نسخة خطية لم تطبع ، محفوظة بالمكتبة الخديوية بمصر [١] .

٢ - **كتاب الغريب** او « غريب الحديث » ونسخته الخطية لم تطبع ايضاً ، مودعة في مكتبة الأسكوريال في اسبانيا [٢] .

٣ - **كتاب الخيل** [٣] ويتحدث فيه الأصمعي عن اسماء اعضاء الخيل وأعمارها مع ذكر ما قيل في ذلك من اشعار . ثم يبحث عما يستحب من خلقة الفرس ، وما يكره منه ؛ وفي صفة مشي الخيل وعدوها وألوانها وشياتها - اي علاماتها من غرر وحجول - ؛ وفي أنساب الخيل العربية المعتقة المعروفة بالعدو والطرد . ويذكر بعض الحكايات عن ذلك .

٤ - **كتاب الشاء** [٤] : ويبدأ به عن حمل الشاة ، وتعدد اسمائها اثناء الحمل وبعد الولادة ، وعن عمر الشاة وتدرجها في السن ، ثم عن اسمائها عند الحلب ، وأنواع الحلب ، وخلقة الشاة وعيوبها ، وما يستحب منها ، وتركيب قرونها ، وأسماء قطعانها حسب العدد .. والكتاب صغير جداً .

٥ - **كتاب الفرق** [٥] : بفتح الفاء وتسكين القاف : وقد جاء فيه ما خالف الانسان فيه من البهائم . ويبدأ بالفم ، ثم الشفة ، ثم الأنف ، فالظفر ، فالرجل ، فالصدر ، فالثدي ، فالفرج ، ثم المخاط ، والبصاق ،

---

(١) جرجي زيدان : ج ٢ ص ٢٧٦ .
(٢) انظر جرجي زيدان : ج ٢ ص ٢١٩ .
(٣) طبع في « فينا » عام ١٨٨٨ ميلادي من قبل الدكتور « اوجوست هافنر » .
(٤) طبع في « فينا » عام ١٨٨٨ ميلادي من قبل الدكتور « اوجوست هافنر » .
(٥) طبع في « فينا » عام ١٨٨٨ ميلادي من قبل الدكتور « دافيد هنرخ » .

والعرق ، والجلوس ، والتغوط ، ثم الغلمة - اي البلوغ - والنكاح والحمل والولادة ، وأسماء الأولاد ، ثم اسماء جماعات الأشياء ، وأنواع اصوات الطير والبهائم والوحش .

٦ - **كتاب الدارات**(١) : وهو كتاب صغير نقله عن الأصمعي تلميذه ابو حاتم السجستاني . يذكر فيه اسماء خمس عشرة دارة مع انشاد بيت او بيتين لكل دارة . ولم يذكر هذا الكتاب في الأسماء التي عثرنا عليها بين كتب الأصمعي .

٧ - **كتاب الوحوش** (٢) : وفيه اسماء الوحوش وصفاتها . ويبدأ بأسماء الحمار الوحشي وصفاته وأعضائه . وأسماء البقر وصفاتها وأسماء اولادها مع ذكر ما قيل فيها من شعر او رجز ، وذكر اعضائها ولبنها وأسماء قطعانها ؛ ثم اسماء الظباء وصفاتها وأسماء اولادها ؛ وأسماء الوعول وصفاتها ، وأسماء النعام وصفاتها وصغارها ؛ والأسود وأسمائها وصفاتها ، والذئب وصفاته ، والضبع وأوصافها ، والثعلب وأسمائه ؛ والأرانب وصفاتها .

٨ - **كتاب النبات والشجر** (٣) : يتحدث في اول فصل عن النبات عموماً ، وأسماء بعض النبات الذي ينبت في جزيرة العرب . وكذلك عن النبت من الأحرار وغير الأحرار من بقول وأعشاب ، وفصل آخر في اسماء الذكور من النبات ، وآخر من غير الذكور ، وفصل في اسماء الحمض ، وفصل فيما ينبت في السهل ، وفصل فيما ينبت في الرمل من الشجر وغيره .

---

(١) طبع في بيروت عام ١٨٩٨ ميلادي باعتناء الاب لويس شيخو اليسوعي .
(٢) طبع في « فينا » عام ١٨٨٨ بواسطة الدكتور « رودولف جيير » .
(٣) طبع في بيروت عام ١٨٩٨ بواسطة الدكتور « اوجست هافنر » .

٩ _ **كتاب النخل** (١) : ويبدأ بصغار النخل وسعفه ، وحمل النخل وسقوطه وطلعه وادراك ثمره ، وتغير ثمره وفساده ، وصراحه اذا ألقح ، وطول النخيل ، وأجناسها ، وعذوقها ، واعرائها ورفع تمرها .

١٠ _ **كتاب الكرم** (٢) : وهو رواية ابي حاتم السجستاني . ويبدأ فيه بأسماء شجر العنب وضروب العنب ، وحوائطه ، وسقيه ، وجنيه ، ومراحل نضوجه ، وزرعه ، وغرسه ، ونموه ، وأنواع خدمته والاعتناء به في شجره ، وأسماء نوى العنب ، وعصره وأسماء خموره وألوانها ، وأسماء الخل الذي يعمل منه .

١١ _ **كتاب الأبل** (٣) : ويتحدث فيه عن حمل الناقة وتعدد اسمائها اثناء الحمل ، واسماء الحوار في مراحل نموه ، والممدوح من صفات الابل والمذموم .

١٢ _ **كتاب خلق الانسان** (٤) : وفيه اسماء اعضاء الانسان واعماره وزواجه وولادته .

١٣ _ **كتاب « الأصمعيات »** : (٥) وهو مجموعة قصائد تنسب روايتها الى الأصمعي ، وهي سبع وسبعون قصيدة . وقد روى بعضهم ان الأصمعي اراد ان يكمل « المفضليات » التي جمعها المفضل الضبي ، ويزيد عليها . كما ان بعضهم يروي بأن المفضليات هذه التي بين أيدينا لم تبلغ هذا المبلغ

---

(١) نسب هذا الكتاب الى الأصمعي الدكتور هافنر على وجه التغليب ، وربما كان لتلميذه ابي حاتم : انظر كتاب البلغة للأب شيخو اليسوعي .

(٢) طبع في بيروت عام ١٩١٤ بعناية الأب شيخو اليسوعي . وقد طبع قبلها عام ١٩٠٢

(٣) طبع في بيروت عام ١٣٢٢ هجري .

(٤) طبع في بيروت عام ١٣٢٢ هجري .

(٥) طبع في « ليبزك » عام ١٩٠٢ م بواسطة الاستاذ « ايلورت » .

من الكبر الا بزيادة الأصمعي فيها .. ويقول محمد بن الليث الاصبهاني : « املى علينا ابو عكرمة الضبي المفضليات ، وذكر انها كانت ثلاثين قصيدة فقط ، وكان جمعها لامير المؤمنين ـ المهدي ـ فقرئت بعد ذلك على الأصمعي فبلغ بها مائة وعشرين قصيدة » (١) . ويقول الدميري : انها ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غرابتها واختصار روايتها . (٢)

١٤ ـ **كتاب « ما اختلفت الفاظه واتفقت معانيه »** : وهو كتاب لغة يدل عليه عنوانه ؛ اخذه الرواة عن ابن اخيه عبد الرحمن ، ونقل عن نسخة مخطوطة في القرن التاسع الهجري ، ويشتمل على ثلاث واربعين صفحة طبع في دمشق عام ١٣٧٠ هـ .

نلاحظ في هذه الكتب المطبوعة ان بعضها اخذ عن تلميذه ابي حاتم السجستاني الذي كان من اقرب طلابه اليه واكثرهم ملازمة له ، وأخذ بعضها الآخر عن عبد الرحمن ابن اخي الأصمعي ، نقلاً عن خاله ؛ مما يدل على ان معظم تصانيفه التي عني بتأليفها بنفسه قد فقد بعد موته بقليل .. وقد أخبرنا صاحب « معجم الأدباء » قال : انتقلت مؤلفات الأصمعي بعد وفاته الى ابن اخته « احمد بن حاتم الباهلي » المعروف بأبي نصر ؛ فكان ينقلها معه ويتكسب بها . وفي ذات يوم دعا « الخصيب بن اسلم » ابا نصر الباهلي هذا الى مدينة « اصبهان » ليجالسه ويفيد من علمه ، فنقل ابو نصر معه مصنفات الأصمعي هذه التي كان يحتفظ بها ؛ واقام عند الخصيب في اصبهان مدة قصيرة من الزمن ثم عزم على الحج ، وتأهب لذلك ؛ ولكنه احتار عند من يودع هذه المصنفات حتى يعود ؛ فجاء الى عبد الله بن

---

(١) ضحى الاسلام : ج ٢ ص ٢٧٦ .
(٢) الفهرست : ٥٥ .

الحسن وطلب منه ان يدله على رجل امين يودعها عنده ، فقال له عبدالله : اودعها عند « محمد بن العباس » مؤدب اولادي ، فهو رجل مؤتمن لا يعرف بسوء ، فسلم ابو نصر الدفاتر اليه وخرج . ولكن محمد بن عبدالله ابن الحسن اعطاها لمن نسخها من الناس بدون علم استاذه ولا ابيه ؛ فلما قدم ابو نصر الباهلي من حجه وعرف الأمر قامت قيامته ؛ ودخل على عبدالله بن الحسن وذكر له ما فعل ابنه ، وما كان يأمل في دفاترة من التكسب بها - وكان ابو نصر هذا سليط اللسان - فجمع له عبدالله من اهل البلد عشرة آلاف درهم ، ووصله الخصيب بن أسلم بعشرين الفاً ، فتناولها ورجع الى البصرة [1] .

يبدو لنا ، من هذه الرواية ومما نعرفه عن بخل الأصمعي ومن حوله من اسرته ، بأن عوامل كثيرة تضافرت على اضاعة آثاره وتآليفه : منها أنه هو نفسه كان يضن بكتبه على الناس ، فلم يكن ممن يسمح للوراقين نسخها وتوزيعها على طلبة العلم حرصاً منه على الاحتفاظ بثروته العلمية التي كانت سر شهرته وثرائه ، وإن كان يسمح لطلابه تدوين ما يلقيه من نفائس محاضراته .. ومنها انتقال مؤلفاته بعد موته الى رجل محتاج الى التكسب بها من اجل العيش ، ومثل هذا يضن عادة بما لديه على الناس خوفاً من انقطاع المورد . فكان من جراء ذلك ان بقيت هذه المؤلفات نادرة بين طلاب العلم . فلما تمادت السنون ونشبت الفتن وتمزقت دولة بني العباس وحدث ما حدث من الحروب والغارات والتخريب على ايدي المغول ضاع اكثر تراث الحضارة الفكرية عند المسلمين ، ومن بينها آثار الأصمعي .

غير ان الذي عوض لنا بعض الشيء عن هذه الخسارة ، هو ان ذلك

---

(١) معجم الأدباء : ج ٢ ص ٢٨٥ .

العدد الكبير من الطلاب ، الذين لازموا الأصمعي اعواماً طويلة ، نقلوا عنه الشيء الكثير مما كان يلقيه في حلقته ويحاضر به في مجالسه ، من آراء وروايات ونوادر واشعار ، ودونوا قسما من كتبه اثناء اطلاعهم عليها ، ونقلوها في في الواحهم ودفاترهم وادخلوها في تصانيفهم ، فانتقلت بوساطتهم الى طلابهم ومن اتى بعدهم من العلماء ، فسجلوها هم ايضا في آثارهم اللغوية والأدبية فاندمجت بعدهم وتوزعت بين معاجم اللغة وكتب الأدب والشعر .. يقول السيوطي مثلاً : « .. واما القاسم بن سلام المكنى بأبي عبيد فأنه مصنف حسن التأليف ، الا انه قليل الرواية ، وقد اعتمد في كتابه ـ الغريب المصنف ـ على كتاب عمله رجل من بني هاشم جمعه لنفسه ، واخذ كتب الاصمعي فبوب ما فيها ، واضاف اليها شيئاً من علم ابي زيد وروايات عن الكوفيين .. وكان القاسم هذا ممن اخذ عن الأصمعي »(١) وهذه الرواية المقتضبة تعطينا صورة عن مصير آثار الأصمعي وكيف ذابت في حظيرة المجموعات اللغوية والادبية التي بين ايدينا اليوم .

ومهما يكن ، فان نظرة فاحصة على اسماء كتبه التي دوناها هنا تدل على ان القسم الكبير منها كان في اللغة ، وقد صنفت على طريقة « جمع الكلمات المتقاربة في المعنى » وهي الخطوة الثانية التي خطاها العرب حتى صنفوا المعاجم اللغوية على الشكل الذي بين أيدينا . فقد بدأ علماء اللغة في جمعها اول ما بدأوا على طريقة « جمع مفرداتها كيفما اتفق » ثم صاروا يجمعونها « متقاربة في المعنى » كما فعل معاصرو الأصمعي ، ثم تطورت بعد ذلك الى أسلوب المعاجم الحديثة في « جمع الكلمات حسب أحرفها الاولى ، واعطاء المعاني المختلفة لها » . على ان الأصمعي و بعض معاصريه

---

(٢) المزهر : ج ٢ ص ٢٥٧ .

امثال الخليل بن احمد وغيره بدأوا بالخطوة الثالثة هذه كما جاء في كتاب « العين » للخليل ، وكتاب « الاجناس » للأصمعي ، ولكن هذه الطريقة لم تكتمل الا في العصور التي تلت .

ولم يؤلف الأصمعي في النحو كما فعل غيره مثل « عيسى بن عمر الثقفي » و « سيبويه » وامثالهما ، ولكنه كان يتطرق الى القواعد النحوية اثناء تفسيره للشعر الغريب وتوغله في فقه اللغة . وفي اسماء كتبه الضائعة ما يدل على انه ألف في بعض جوانب النحو كتباً خاصة ، ولكنه لم يعمد الى التأليف فيه بوجه عام .

واما تآليفه في الادب فعددها أقل منها في اللغة ، وقد جاء في أسماء كتبه التي عرفت ، عدد منها ، ككتاب « معاني الشعر » و « شرح ديوان ذي الرمة » و « شرح ديوان رؤية بن العجاج » و « الأصمعيات » و « القصائد الست » و « رجز العجاج » وغيرها . وربما ألف في الادب اكثر مما ذكرنا ، ولكن اسماء كتبه هذه ضاعت مع الاسماء الاخرى . وقد رأيناه يؤلف في سائر الفروع العلمية الاخرى التي اختص بها او ألم بها إلماماً واسعاً .

نقده وآراؤه واقواله

وللأصمعي آراء خاصة كان يبديها اثناء تفقهه باللغة وبالأدب والشعر والمقارنة بين الشعراء ، واقوال خالدة تشبه الحكم او المواعظ او غيرها اثناء محاضراته في حلقته او احتكاكه بالناس في مجتمعه ومجالس اصحابه . وهي لقيمتها تستحق العناية والتسجيل لانها الوان من الانتاج الفكري . غير انها كثيرة لا يمكن حصرها بعد ان تبعثرت في بطون الكتب .

وتناقلها العلماء والادباء في مؤلفاتهم . وفيما يأتي صور من هذا الانتاج نقتبسه من بعض كتب الأدب القديمة :

يقول « التوزي » : سألت الأصمعي : من اشعر الناس ؟ قال : « من يأتي بالمعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً ، او الكبير فيجعله بلفظه خسيساً . وأشعرهم ايضاً من ينقضي كلامه قبل القافية ، فاذا احتاج الى القافية أفاد بها معنى » قلت : نحو من ؟؟ قال : قول ذي الرمة :

قف العيس في اطلال مية فاسأل ... رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل

فتم كلامه بالرداء ، فلما احتاج الى القافية جاء بكلمة المسلسل ، فزاد شيئاً . وقوله ايضاً منها :

اظن الذي يجدي عليك سؤالها ... دموعاً كتبذير الجمان المفصل

فتم كلامه بالجمان ، ثم قال المفصل ، فزاد شيئاً .

قلت ثم من غير هذا ؟؟ قال : الاعشى حيث يقول :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فتم كلامه بلفظة « يضرها » ، فلما احتاج الى القافية قال : واوهى قرنه الوعل » فزاد معنى . قلت : وكيف صار الوعل مفضلاً على كل ما ينطح ؟؟ قال : لانه ينحط من قلة الجبل على قرنيه فلا يضيره .[1]

ـ وسئل مرة : اي بيت تقوله العرب اشعر ؟ قال : « الذي يسابق لفظه معناه »[2] .

ـ ويقول « ابن جني » : كان الأصمعي يعيب الحطيئة ويقول : وجدت شعره كله جيداً فدل على انه كان يصنعه ، وليس هكذا الشاعر

(١) كتاب الصناعتين : ٣٠١ .

(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٤٢ .

المطبوع الذي يرمي الـكلام على عواهنه ، جيده على رديئه »[1].

وكان يمدح النابغـة الذبياني ويقول : « هو قليل التكلف ، عنده ثوب بواف ـ اي بدرهم ـ ، ومطرف بآلاف »[2].

وكان يقول : ابرع بيت قالتـه العرب قول ابي ذؤيب :

والنفس راغبة اذا رغبتها   واذا ترد الى قليل تقنع

واحسن ما قيل في الكبر قول حميد بن ثور الهلالي :

أرى بصري قد نابني بعد صحة   وحسبك داءً ان تصح وتسلما

واحسن من ابتدأ مرثية هو أوس بن حجر في قوله :

ايتها النفس أجملي جزعا   ان الذي تحذرين قد وقعا

واغرب من ابتدأ النابغة الذبياني بقوله :

كليني لهم يا اميمـــة ناصب   وليل اقاسيه بطيء الكواكب

واحسن ما قيل في اللون قول عمر بن ابي ربيعة :

وهي مكنونة تحير منهـا   في اديم الخدين ماء الشباب

وما اعرف احداً اخذه فأحسن فيه مثل « احمد بن ابراهيم » حين قال :

اغيد ماء الشباب يرغد في   خديه ، لولا اديمه قطرا[3]

واحسن ما قيل في صفة الرمح قول ابي زيد :[4]

واسمر مربوع يرى ما رأيته   بصير اذا صوبته للمقاتل

وارثى بيت للعرب قول احدهم[5] :

---

(١) المزهر : ج ٢ ص ٣١٠ .

(٢) عيون الأخبار : ج ١ ص ١٩٢ .

(٣) ديوان المعاني : ج ١ ص ٢٣٢ .

(٤) ديوان المعاني : ج ٢ ص ٨٠ .

(٥) ديوان المعاني : ج ٢ ص ١٧٥ .

ومن عجب ان بت مستشعر الثرى وردن بما رودتني متمتعا
ولو انني انصفتك الود لم ابت خلافك حتى ننضوي في الثرى معا

سئل مرة : ماذا اراد امرؤ القيس بكلمة « جوف العير » في بيته :

وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوي كالخليع المُعيَّل

قال : العير ، هو الحمار ، وقصد بهذا التشبيه ان الوادي كان قفراً كما ليس في جوف الحمار ما يؤكل اذا صيد . ثم قال : ان كلمة « جوف العير » تتصل بقصة يذكرها العرب : وذلك ان رجلاً من العمالقة كان له بنون وواد خصب وكان حسن الطريقة ، فخرج بنوه يتصيدون فاصابتهم صاعقة احرقتهم ، فكفر ابوهم بالله وقال : لا اعبد رباً أحرق بنيّ ؛ واخذ بعبادة الاصنام ، ودعا قومه اليها فمن ابى قتله ، فسلط الله على واديه ناراً فأهلكه وخرب واديه ؛ والوادي بلغة اليمن الجوف ؛ وكان اسم الرجل المذكور « حمار بن مويلع » فعدلت العرب عن ذكر كلمة حمار الى ذكر العير ، لأنه في الشعر اخف واسهل مخرجاً ، فقيل : جوف العير ، اي وادي ذلك الرجل المسمى : حمار بن مويلع (١).

وقرىء عليه قول النابغة الذبياني في وصف ثور وحشي :

يحيد عن أسْتُنٍ سود اسافله مثل الأماء الغوادي تحمل الحزما

فقال : انما توصف الأماء في مثل هذا الموضع بالرواح لا بالغدو ، لأنهن يجئن بالحطب اذا رحن ، وقد قال الأخفش التغلبي :

يظل بها ربد النعام كأنها اماء يرحن بالعشي حواطب (٢)

وقرىء عليه شعر النابغة في وصف عيون جميلة :

---

(١) خزانة الأدب : ج ١ ص ١٣٠ .
(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٥٦ .

نظرت اليك بحاجة لم تقضها   نظر السقيم الى وجوه العوّد

فقال : هذا قبيح ، ولا ينطبق على الذوق السليم ، لأنـــه جسم منظر هذا السقيم بوجود عائديه حوله . وافضل منه قول عدي بن الرقاع :

وكأنها وسط النساء اعارهـا   عينيه احور من جآذر جاسم

وسنان أقصده النعاس فرنقت   في عينه سنة وليس بنائم (١)

وقرىء عليه ايضاً ارجوزة أبي النجم في وصف الفرس ، فلما وصل الى قوله :

يسبح أخراه ويطفو اوله

قال : هـــذا خطأ ، لأنه اذا سبح اخراه كان حمار الكساح اسرع منه ، وانما يوصف الجواد بأنـه يسبح اولاه وتلحق رجلاه ، ثم قال : وخير عدو الذكور من الخيل ان تشرف ، وخير عدو الاناث ان تنبسط وتصغي ، كعدو الذئب (٢) .

ويقول : الطرماح اشعر الناس في قوله يصف ثوراً وحشياً يعدو :

مجتاب حلة برجد لسراتـــه   قدداً واخلف ما سواه البرجد

يبدو وتضمره البلاد كأنـــه   سيف على شرف يسل ويغمد (٣)

ويقول : كان ذو الرمة اشعر الناس اذا شبه ، ولم يفلق (٤) .

ومن قوله : ختم الشعر بابن هرمة ، وحكم الخضرمي ، وابن ميادة ، وطفيل الكناني ، ودكين العذري (٥) .

---

(١) العمدة : ج ١ ص ٢٢٧ .
(٢) الأغاني : ج ٩ ص ٧٨ .
(٣) الأغاني : ج ٥ ص ١٦٦ .
(٤) الأغاني : ج ١٦ ص ١٠٩ .
(٥) الأغاني : ج ٤ ص ١٠٤ .

ان شعر ابي العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى [١] .

وقد ذهب امية بن ابي الصلت في شعره بعامة ذكر الآخرة ، وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب ، وذهب عمر بن ابي ربيعة بعامة ذكر الشباب [٢] .

ويقول :

(الزحاف) في الشعر كالرخصة في الفقه لا يقدم عليها الا فقيه .

(البليغ) من طبق المفصل واغناك عن المفسر .

(المطابقة) مساواة معنى لمعنى .

(الايغال) سرعة الدخول في الشيء .

(التشبيه) هو المقاربة في المعنى ، فالحوَر مثلا ان تكون العين سوداء كلها كعيون الظباء والبقر ، ولا حور في الانسان .

(الالتفات) هو ان يكون الانسان مقبلاً على شيء ثم يلتفت الى شيء آخر ، كقول جرير الخطفي :

اتذكر اذ تودعنا سليمى بعود بشامة ؟؟ سقي البشام

فكلمة « سقي البشام » التفات جميل [٣] .

وسئل مرة عن الشاعرين يتفقان في المعنى الواحد ولم يسمع احدهما قول الآخر ، فقال : « تلك عقول الرجال توالت على ألسنتها » [٤] .

ويقول : « ثلاثة تحكم لهم بالمروءة حتى يعرفوا : رجل رأيته راكباً ،

---

(١) الأغاني : ج ٣ ص ١٤٠ .

(٢) الأغاني : ج ٣ ص ١٨١ .

(٣) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٤٢ .

(٤) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٤٢ .

او سمعته يعرب او شممت منه رائحة الطيب . وثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا : رجل شممت منه رائحة النبيذ في محفل ، او سمعته يتكلم بالفارسية في بلد عربي ، او رأيته على ظهر الطريق ينازع بالقدر » (١) .

« خير العلم ما اطفأت به الحريق واخرجت به الغريق » (٢) .

« لو قسمتُ في الناس مائة ألف درهم كان اكثر للائمتي من لو اخذتها منهم » .

« اذا تظرف العربي كثر كلامه ، واذا تظرف الفارسي كثر سكوته » (٣) .

« اشد الناس الاعجف الضخم ، وأخبث الأفاعي أفاعي الجدب ، واخبث الحيات حيات الرمث ، واشد المواطىء الحصى على الصفا ، واخبث الذئاب ذئاب الغضى » (٤) .

« من أمل رجلاً هابه ، ومن قصر عن شيء اعابه ، وانما يعيب الشيء الذي يقصر عنه حسدا » (٥)

يقول الدينوري : كان الأصمعي لا يقول « بغداد » وينهى عن ذلك ويقول « مدينة السلام » لأنه سمع بأن (بغ) معناه الصنم و (داد) عطية ، بالفارسية ، فمعناه عطية الصنم . (٦)

ان زهير بن ابي سلمى والحطيئة وامثالهما من الشعراء عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . (٧)

---

(١) عيون الاخبار : ج ١ ص ٢٩٢ .
(٢) الدميري : ج ٢ ص ٢٨٨ .
(٣) عيون الاخبار : ج ٢ ص ٤ .
(٤) الأمالي : ج ٢ ص ٧١ .
(٥) الأمالي : ج ٢ ص ٩٦ .
(٦) ادب الكاتب : ١٤٩ .
(٧) الشعر والشعراء : ٨ .

ـ ابو دؤاد الأيادي ـ في الجاهلية ـ وطفيل والجعدي هم نعّات الخيل الثلاثة .. والعرب لا تروي شعر ابي دؤاد وعدي بن زيد ، وذلك لأن ألفاظها ليست بنجدية [1] .

ويقول : وجدت اهل مدينة السلام قد ختموا الشعراء بمروان بن ابي حفصة ، وانا ارى بشار بن برد احق بأن يختموهم به ؛ فقيل له : ولم ؟؟ قال : وكيف لا يكون كذلك وما كان مروان في حياة بشار يقول شعراً حتى يصلحه بشار ويقومه .. وبشار مطبوع لا يكلف طبيعته شيئاً متعذراً ، لا كمن يقول البيت فيحككه اياماً . وهو يصلح للجد والهزل ، ومروان لا يصلح الا لأحدهما . [2]

كان « الحكم الحضرمي ، ورؤبة ، وابن هرمة ، وطفيل الكناني ، ومكين العذري » على ساقة الشعراء ، وتقدمهم ابن هرمة بقوله :

لا امتع العوذ بالعضال ولا ابتاع الا قريبة الأجل

والله لو قال هذا حاتم لما زاد ، ولكان كثيراً [3] .

شعره

للأصمعي رأي مشهور في كيف يصير الشاعر فحلاً في قرض الشعر ، فيقول : « لا يصير الشاعر فحلاً حتى يروي اشعار العرب ، ويسمع الاخبار ، ويعرف المعاني ، وتدور في مسامعه الالفاظ . واول ذلك ان يعلم العروض ليكون ميزاناً له على قوله ، والنحو ليصلح به لسانه وليقوم به اعرابه ، والنسب ، وايام الناس ليستعين بذلك على معرفة المناقب

---

(١) الشعر والشعراء : ٣٨ .
(٢) الأغاني : ج ٣ ص ٢٥
(٣) الأغاني : ج ٥ ص ٥٠ .

والمثالب ، وذكرها بمدح او ذم » [1] .

وهذا رأي صائب ، ولكن ينقصه شرط آخر رئيسي ، لا يستطيع الشاعر بدونه ان يجيد قول الشعر ، هو « الاسماح والسهولة ، وجودة الطبع » وهو حياة الشعر بل روحه وباعث الهزة في نفس سامعه :

اذا الشعر لم يهززك عند سماعه فليس خليقاً ان يقال له شعر

وخير مثل على ذلك الأصمعي نفسه ، وهو من اكثر الناس رواية للشعر ، ومعرفة بمعانيه ، واتقاناً للغة وادخاراً لألفاظها ، وهو ايضاً احد كبار رواة الاخبار ، واساتذة النحو ، واساطين النسب ، والعلم بأخبار الناس ومناقبهم ومثالبهم ؛ ولكنه ليس فحلاً في الشعر ، ولم يفلق فيه - على حد تعبيره - لأنه لا يملك الاسماح والسهولة في نظمه . . يقول ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » : « ان اشعار العلماء ليس فيها شيء جاء عن اسماح وسهولة ، كشعر الأصمعي وابن المقفع والخليل بن احمد ، خلا خلف الاحمر فانه كان اجودهم طبعاً واكثرهم شعراً » [2] .

وكان الأصمعي يعرف تقصيره وضعفه في هذا المجال ، لذلك لم يكثر من نظم الشعر ، ولم يقرضه الا في المناسبات ، وقلما اذاع بين الناس ما تجود به قريحته . ولما سئل عن سبب ذلك قال : « يمنعني عن نظم الشعر نظري الى جيده . » [3] وهذا صحيح ايضاً ، لأن من كان مثله في فهم الشعر ونقده ، ومعرفة غثه من سمينه ، والاطلاع على خفاياه ودقته ، وروعته واخطائه ، لا يفوته ان يعرف نفسه فيه اذا كان مقصراً ام مجيداً .. قيل : انه جلس يوماً يقلب شعره بين يديه ، فلم يرقه ، وصار

---

(١) العمدة : ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) الشعر والشعراء : ٥

(٣) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٥ .

يهز رأسه ساخراً ، ويقول :

ابى الشعر الا ان يفيء رديئه   علي ويأبى منه ما كان محكما
فيا ليتني اذ لم اجد حوك وشيه   ولم أك من فرسانه كنت معدما (١)

وقد ذكرنا له في ابحاثنا السابقة قطعاً صغيرة من نظمه ، قالها في المناسبات الكثيرة ، كرده على هجاء اسحاق الموصلي له ، وكجوابه شعراً للعباس بن الأحنف في مجلس الفضل بن الربيع ، ومدحه لجعفر البرمكي ، ثم هجائه لآل برمك واتهامه لهم بالزندقة ، وابيات اخرى قالها على اثر نكبة هؤلاء بعد ان رأى مصرع جعفر بن يحيى ، وغيرها ، وكلها من الشعر الركيك وان كان صحيحاً من حيث اللغة والنحو والعروض .

وفي كتب الأدب قطع اخرى قالها في المناسبات ايضاً لا تزيد قيمتها على ما اوردنا ؛ كقوله في رثاء صديقه المحدث المكي « سفيان ابن عيينة » :

فليبك سفيان باغي سنة درست   ومستبيت أثارات وآثار
ومبتغي قرب اسناد وموعظة   وآفقيون من طار ومن طار
امست مجالسه وحشاً معطلة   من قاطنين وحجاج وعمار
من للحديث عن الزهري حين ثوى   وللأحاديث عن عمرو بن دينار ؟
لن يسمعوا بعده من قال : حدثنا   الزهري ، من اهل بيداء وامصار
لا يهنأ الشامت المسرور مصرعه   من مارقين ومن جُحّاد اقدار
ومن زنادقة ، جهم يقودهم   قوداً الى غضب الرحمن والنار
وملحدين ومرتابين قد خلطوا   بسنة الله اهتاراً بأهتار (٢)

(١) العمدة : ج ١ ص ٥٧ .
(٢) عيون الاخبار : ج ٢ ص ١٣٥ .

وقوله يصف شعوره حين وقف في قصر الخلد ينتظر دخوله لأول مرة على هارون الرشيد ، وقد طال به الانتظار :

وأي فتى اعير ثبات قلب — وساع ما تضيق به المعاني

تجاذبه المواهب عن اباء — الا لا ، بل تؤلفه الأماني

فرب مُعَرَّس لليأس املى — عن الدرك الجهير لدى الزمان (١)

وقوله حين دخل يوماً على الرشيد في مجلسه وكان يتحدث عن جارية له اسمها « دنيا » :

ان « دنيا » هي التي — تملك القلب قـاهره

ظلموها نصف اسمها — فهي دنيا وآخره (٢)

والذي نعتقده ان الاصمعي كان يتأثر احياناً ببعض الحوادث التي تمر به ، فتدور في صدره المعاني ، وتختلج في رأسه الفكر والأخيلة ، وتتدافع على لسانه الالفاظ ، فينظم البيتين والثلاثة والعشرة ، ثم يعود الى قراءتها بعد ذلك فيجدها ركيكة لا تستحق الرواية والنشر باسمه على الناس ؛ فلا يتركها مهملة تؤول الى الضيـاع ، ولكنه يصوغ حولهـا نادرة من نوادره المعروفة عن الاعراب مما تعوّد ان يصنع ، ويدسها فيهـا على لسان بدوي مجهول فتظهر جميلة بفضل الاطار الذي يحيطها بـــه من حياة الاعراب ومشاكلهم ، وتلـذ للناس ، وتتناقلهـا الألسن ، وتدون في المؤلفات . والذي يمعن النظر في بعض نوادره هذه المحتوية على شيء من الشعر يجد بعض ابياتها تتقارب في الاسلوب والديباجة والنسج مع تلك التي نظمهـا وعرفت بأنها له .

---

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٣٥ .

(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ٤٢٩ .

والغريب انه رغم تقصيره عن ادراك منزلة الفحول من الشعراء ، كان ينظم الشعر بسهولة ويرتجله احياناً ، وكأنه لا يرى صعوبة في ذلك كما لا يرى الصعوبة في الحديث ، وربما كان هذا ناتجاً عن كثرة محفوظاته وانشاده ..

يقول ابو العباس بن الفرج : سمع الاصمعي رجلاً يدعو ربه ويقول في دعائه : « يا ذو الجلال والاكرام » . فقال له الاصمعي : ما اسمك ؟ ؟ قال : « ليث » ، فقال الاصمعي :

ينادي ربه باللحن ليث لذاك اذاً دعاه لا يجاب [1]

وامثال هذا كثيرة لا تحصى .

نوادر الأعراب ، ومدرسة القصة

لم يكن الأصمعي اول من روى النوادر عن الأعراب ، فقد سبقه الى ذلك جماعة من علماء عصره ومن جاء منهم قبله . اذ لا يوجد – في ذلك الزمن – عالم في اللغة او راوية للأدب والأخبار الا روى من هذه النوادر شيئاً ؛ لأن الفوائد كانت تجمع من هؤلاء البدو سكان الصحارى ، وتروى عنهم ، وتدرس عليهم ، وتصحح بوساطتهم ؛ فلا بد لمن كان يجمع تلك الفوائد ان يحتك بهم ، ويتعرف على بعضهم ، وفيهم الخطيب الفصيح ، والشاعر الملهم ، والأديب البارع والذكي المتندر . ومن الطبيعي ان يحدث بين هؤلاء وأولئك نوادر وملح في الجد والهزل مما يعتبر متعة للسمع ، وغذاءً للروح والفكر ، كما يقول الجاحظ : « ليس في الأرض كلام هو امتع ولا أنفع ولا ألذ في الاسماع ، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ، ولا افتق للسان ، ولا اجود تقويماً للبيان من طول استماع

---

(٤) الامالي : ج ٣ ص ٣٠ .

حديث الأعراب العقلاء الفصحاء » [١] .

ولكن الأصمعي امتاز عن كل من سبقه بكثرة رواياته لهذه النوادر ، وبتنوعها واختلاف ألوانها وصورها وانطباقها على الكثير جداً من مشاكل الحياة ، مما يجعلنا نعتقد يقيناً بأن بعضها كان من صنعه ونسج خياله . وهو لون من ألوان الانتاج الأدبي الذي لا يمس الدين ولا يتصل بالكذب ما دامت النادرة سليمة بريئة لا تعني احداً معيناً من الناس ولا جماعة منهم .. يقول الاستاذ احمد امين في كتابه - ضحى الاسلام - :
« .. أما في النوادر والملح ، وما يحكى عن الأعراب فيرخي - اي الأصمعي - في ذلك لنفسه العنان . وإذا وجد الحال يستدعي قولاً ظريفاً تزّيد فيها او اخترعها . ولا يرى في ذلك ما يمس دينه او يخرج به عن التقوى » [٢] .

والذي نراه هو انه بدأ ، في أول أمره ، يروي النوادر التي كان يسمعها فيجمعها خلال بحثه وتجواله في القبائل وبين الأعراب في كل مكان ؛ وكان يرويها في مجالسه بأسلوب طريف جذاب تألفه الأسماع وتطرب له النفوس . فلما شعر بصدى نجاحه في هذا ، ولمس استحسان الناس ذلك منه ، امعن في البحث عن النوادر كأمعانه في البحث عن اللغة والأدب ؛ ثم صار يحتك بظرفاء الأعراب وكل ذي نكتة وملحة منهم ، فيجرهم الى الدعابة وقول كل طريف ، ويدون ذلك عنده .

وعلى مر الأيام ، تضخمت ثروته في النادرة كتضخمها في اللغة والأدب والشعر ؛ حتى اذا كثر اتصاله بالقبائل المختلفة ، وأتقن لهجاتها ، ودرس

(١) زهر الآداب : ج ٢ ص ٢ .
(٢) ضحى الاسلام : ج ٢ ص ٢٩٨ .

عاداتها ومشاكلها ، وعرف منازلها وأسماء داراتها ، وامتدت بـه الأعوام ففهم أسرار الحياة ، وتوسعت اخيلته ، وقويت مداركه ، وتواردت المعاني الى افكاره ؛ تولدت عنده ملكة صنع النادرة على شكل قصة صغيرة ، ينسبها الى الاعراب ، ويودع فيها شيئاً مما حفلت بـه ذاكرته من روائع اللغة والأدب والشعر .

ومتى تذكرنا حافظته القوية ومـا اكتنزته من عشرات الآلاف من الأراجيز والقطع الشعرية والحكم والامثال والأخبـار ، وتذكرنا قوله ايضاً « ما قرأت كتاباً واحتجت الى العودة فيـه ، ولا دخل قلبي شيء فخرج منه » ادركنا مقدار كفاءته في صنع النادرة ونسجها متى شاء وفي اي معنى اراد ، كما يرتجل الشعراء الافذاذ ابياتهم الشعرية في المناسبـات فتأتي رقيقة جزلة لا نقص فيها ولا تكلف . . وقد قال غير واحد من الشعراء : « لو اردت لجعلت كلامي كله شعراً » .

وكان العرب في عصر الأصمعي قد بدأوا يترجمون الكتب عن اللغات الأجنبية ، فينسخونها ويتداولونها للقراءة والدرس . وكان اهم ما ترجم في ذلك العهد ـ يوم كان الأصمعي طفـلاً ـ كتاب « كليلة ودمنة » وهو كتاب وضع في اصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس ؛ وضعه فيلسوف هندي اسمه « بيدبا » ، منذ نيف وعشرين قرناً ، لملك من ملوك الهند يدعى « دبشليم » ، وجعله على ألسنة الحيوانات كقصص طريفة قصيرة كلها حكم وعبر ونصائح . وقد ألف هذا الكتاب باللغة الهندية « السنسكريتية » ثم ترجم الى لغة « التيبت » ثم الى السريانية ، ومنهـا نقل الى الفارسية القديمة « الفهلوية » . وعن هذه اللغـة الأخيرة ترجمه الـكاتب المعروف « عبدالله بن المقفع » [1] لأول مرة الى العربية في اواخر العهـد الأموي

(١) توفي ابن المقفع عام ١٤٧ هـ .

او اوائل ايام بني العباس .

فلما اطلع العرب على ما في هذا الكتاب من آراء قيمة وحكم بالغة ، اعجبوا به ايما اعجاب ، واخذوا يتدارسونه ويتناقلونه . وكأن بعضهم حسد عبدالله بن المقفع على سبقه في ترجمته هذه ، فترجموه ثانية ، وتصدى البعض الآخر لمعارضته (١) . ونظمه بعض الشعراء تسهيلاً لحفظه ؛ فكان ممن نظمه شعراً « الفضل بن نوبخت » خادم ابي جعفر المنصور ؛ ونظمه ايضاً « ابان اللاحقي » واهداه الى يحيى بن خالد البرمكي ؛ ونظمه كذلك « علي بن داود » كاتب زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد .. وقد ضاع معظم هذه المنظومات ، وبقي بعضها مع ترجمة ابن المقفع .

فلا يستبعد اذاً أن يكون الأصمعي قد تأثر بهذا الكتاب وأمثاله من كتب القصص الأخلاقية التي بدأت طلائعها تترجم الى العربية في عهده . ولا يستبعد أيضاً ان يكون قد رأى اهتمام الناس بهذا الكتاب واقبالهم الشديد على قراءته ، فراح يقلده ولكن بأسلوب مبتكر جديد ، مشتق من صميم الحياة الاجتماعية العربية التي يعيش هو فيها ؛ فألف كتابه « نوادر الأعراب » الذي لم يصلنا حتى الآن ؛ وقد قيل عنه أنه كتاب ضخم في مئات من الأوراق ، اقتبست منه اكثرية كتب الأدب ، فرأيناه ينحو فيه منحى « كليلة ودمنة » بما اودع فيه من حكم وعظات ونصائح وطرائف وملح وغير ذلك ، مما يصلح الأخلاق ويهذب النفوس ، بأسلوب ظريف تألفه الأذواق ولا تمل منه .

والشبه الواضح بين الكتابين يتركز في فواتح القصص وابتدائها .. ففي الكتاب الاول نرى كل قصة تبدأ بكلمة « قال دبشليم الملك لبيدبا

---

(٢) جرجي زيدان : ج ٢ ص ١٣١ .

الفيلسوف . . » أو « قال دمنة . . » أو « قال كليلة ، أو قال شتربة . . »
كما يبدأ الاصمعي في كل نادرة من نوادره بقوله : « رأيت اعرابياً . . »
أو « حدثني أحد الأعراب . . » أو « مررت بأعرابيـــة في . . » الى
آخر ما هنالك مما يستهوي السمع ويستميل الفكر .

ولم يكن كتاب « نوادر الأعراب » هو كل ما رواه الأصمعي من
النوادر عن هؤلاء القوم سكان البوادي ، بل هو جزء صغير جداً من ذلك
التراث الضخم الذي انتجـه في هذا الباب . ولا نغالي اذا قلنا بأن
الأصمعي ذهب شوطاً بعيداً في هذا الفن الأدبي حتى قارب ما رواه من
اللغة والأدب ، وأصبح يستحق ان يدعى « صاحب النوادر » مثل قولهم
« اللغوي » أو « الراوية » . . وهو لكثرة ما انتج من هذه النوادر ، كان
الرشيد اذا مر به حادث أو استهوته فكرة غريبـــة في مجلسه التفت الى
الأصمعي وقال له : ايه يا أصمعي ، ماذا قال العرب في هذا ؟؟ فيجيبـه
الأصمعي بنادرة طريفة تناسب المقام ، فكأنها كانت حاضرة على لسانه ، وربما
كانت من صنعه في تلك اللحظة ؛ شأنه في ذلك شأن الشاعر السريع
الارتجال . . وهذا ما جعل خصومه يتهمونه بالكذب ويقولون « سئل
عبد الرحمن بن اخي الأصمعي : أين عمك ؟؟ قال : جالس في الشمس
يكذب على الأعراب » (١) .

ثم ان بعض المستشرقين المعنيين اليوم بدراسة آثار الأصمعي لم يعتبروه
اديباً ، ويكتفون بجعله لغوياً ونحوياً وراوية ادب واخبار فحسب ، بحجة
انه لم ينتج شيئاً من ابداعه الذاتي في الأدب . وكأنهم غفلوا عن هــذا
الجانب من انتاجه ؛ وهو ـ في رأينا ـ لا يختلف عن كتابة القصة ونظم

---

(١) المزهر : ج ٢ ص ٢٥١ .

الشعر ، فهو في صميم الأدب ، ومن اجله يستحق الأصمعي ان يحسب من طبقة الأدباء ، كما يعتبر في طليعة اللغويين ورواة الشعر والأخبار ؛ بل هو « الاستاذ الأول » وواضع الحجر الاساسي « لمدرسة القصة » عند العرب التي تتلخص مراحلها التاريخية على الشكل التالي :

كان الأصمعي في إلقاء نوادره - كما اسلفنا - ناجحاً ؛ وبخاصة عندما دخل بلاط هارون الرشيد ، ونثر على بساطه تلك القصص الصغيرة الرائعة عن الأعراب . فكان يتفنن في روايته لها ، ويقلد لهجات القبائل التي ينسبها اليها ، ويودع فيها البيان العذب واللغة الفصيحة والحكمة البالغة والمثل الشارد والشعر الغريب . . وكان بلاط الرشيد - يومئذ - منبراً للاذاعة والدعاوة لتلك الشخصيات المرموقة من نوابغ الفكر ، يوم كانت اصداء المناظرات والانتاج الفكري وكل ما يبتكر في مجالس هذا القصر ، ينقل الى الأجواء الأدبية والعلمية في جوانب المملكة . فاشتهرت نوادر الأصمعي هذه ولاقت رواجاً واستحساناً ، وصارت تتردد على الألسن وتدون في الألواح ، ويشترى بعضها ويباع بين المتأدبين كما كانت تباع تواقيع الرشيد ووزرائه على رقاع المظالم (١) .

وقد حاول عدد من معاصريه ، او ممن جاؤوا بعد عصره ان يقلدوه في هذه النوادر ، فلم يصيبوا النجاح الذي اصابه ، لأنهم لم يوهبوا ما وهب من خيال خصب وعلم غزير في اللغة والأدب ، وظرف فطري ، ومعرفة تامة بحياة البدو سكان الصحارى . فبقيت نوادره هذه في طليعة ما انتج في تلك العهود من هذا اللون القصصي الجميل . . ثم تطور هذا

(١) كان الرشيد ووزراؤه البرامكة يعتنون في تواقيعهم على رقاع المظالم ويجعلون جملهم مقتضبة بليغة تفيد معنى قرار الحكم . وكان الأدباء يشترون تلك الرقاع مع التواقيع كآثار ادبية . وقيل ان تواقيع جعفر بن يحيى كان واحدها يباع بدينار او اكثر .

الأسلوب في العصور التي تلت الى قصص عن الاعراب اطول من النوادر، تتوخى الفوائد اللغوية ايضاً وتتعمد ذكر الغريب منها . وكان اشهر من قلد الأصمعي في نوادره مع شيء من الاطالة « احمد بن فارس الرازي » المتوفى عام (٣٩٠ هـ) ؛ ولكنه لم يصل في انتاجه الى تلك الروعة التي وصلت اليها نوادر الأصمعي .

ثم اتى ـ بعد ذلك ـ اناس نهجوا طريق احمد بن فارس ، وسلك بعضهم سبيل « انقامات » وهي قصص متوسطة تشبه « الدرام » في اللغات الأوربية اليوم ، تروى على لسان رجل خيالي له اسم مستعار ، كما كان الأصمعي يروي نوادره على لسان « اعرابي » مجهول .. وقد نبغ في هذا الفن « احمد بن الحسين » المعروف باسم « بديع الزمان الهمذاني » المتوفى عام (٣٩٨ هـ) فألف كتاباً في المقامات عرف بعنوان « مقامات الهمداني » توخى فيها الغريب من اللغة ، وتعمد في كتابتها اسلوب السجع المتكلف ، واسندها الى رجل سماه « عيسى بن هشام » .. ثم قلده في ذلك ادباء وكتاب آخرون ، اشتهر منهم « علي بن محمد الحريري » المتوفى عام (٥١٦ هـ) فصنف كتاباً في المقامات عرف باسم « مقامات الحريري » نحا فيها نحو بديع الزمان في السجع والغريب من اللغة واسند قصصها الى شخص وهمي ايضاً سماه « أبا زيد السروجي » وحشاها بقطع شعرية من نظمه كما كان الأصمعي يرصع نوادره أحياناً ببعض الأبيات .. وجاء بعد هؤلاء كثيرون من رواد هذا الفن الذي أصبح ـ على مر الايام ـ مدرسة مستقلة للقصة ، نعتقد بأن الأصمعي كان رئيسها الاول والمؤسس لها .

والجدير بالذكر ، هو انه رغم ما انتج كتاب القصة والمقامات بعد

الاصمعي فإن اسم الأصمعي بقي علماً طاغياً على اسماء الآخرين عند الخاصة والعامة وأدباء العهود المتأخرة ؛ حتى صار الناس يعتقدون ـ خطأً ـ في كل ما نشر من القصص العربية ، بأنها من صنع الاصمعي ، أو ان للأصمعي يداً فيها ؛ كما سنفصل ذلك في آخر الكتاب .

الوان نوادره

قلنا ان انتاج الأصمعي في النوادر كان وافراً جداً ، وذكرنا : بأن ما حمل عليه مما صنع الأدباء منها كثير أيضا . فأصبح مستحيلاً على الباحث ان يميز بين الصحيح والمنحول ، وان يفرق بين ما اقتبسه الأصمعي من الغير فرواه ، وبين ما صنعه من عنده فأبدعه .. فلم نجد لهذه المشكلة حلاً غير ان نركن الى المؤلفات القديمة المعروفة بالرزانة والتشدد في الأخذ ، فنقتطف منها ما نراه متفقاً ونضج الأصمعي العلمي واخلاقه وسيرته التي عرف بها .

وقد درسنا مجموعة كبيرة من هذه النوادر التي نعتقد بصحة نسبتها اليه ، فوجدناها على نوعين : الأول منها نادرته مقتضبة ، واسلوب القصة فيها ضئيل أو معدوم الا من سؤال وجواب . وأكثر ما يغلب على هذا النوع من النوادر طابع « اللغة » ، لاحتوائها على كلمات غريبة صعبة مصنفة تصنيفاً شيقاً يُسهِّل حفظها ؛ أو أنها تحمل طابع « الأدب » لالتفافها على حكمة بالغة ، أو مثل سائر ، ، أو جواب طريف مسكت ، أو نكتة لاذعة ، أو شعر جزل رقيق ، الى آخر ذلك مما يفيد الفكر ويهذب النفس .. ويسمى هذا النوع : « حديث الأعراب » .

اما النوع الثاني ، فأسلوب القصة في نادرته ظاهر : لا يخلو من فكرة وهدف وإن كان في بعض الأحيان قصيراً . وقد تكون النادرة فيه

مشحونة أيضاً باللغة الغريبة الفصيحة أو الشعر والأدب ، في مختلف الأذواق من جد وهزل .. وهو النوع الذي تحدثنا عنه ، وقلنا بأنه كان الأساس في بناء مدرسة القصة العربية .

وفي ما يأتي الوان من كلا النوعين (١) :

حدثني عربي عن خيل أغارت على قومه ، فقلت له : صفها لي ، قال : « خرجت علينا مستطيرة النقع ، كأن هواديها أعلام ، وآذانها أطراف أقلام ، وفرسانها أسود آجام » .

وقلت لأعرابي : صف لي ابلك ، فقال : « انها لعظام الحناجر ، سباط المشافر ، كوم بهازر ، نكد خناجر . اجوافها رغاب ، وأعطانها رحاب . تمنع من البُهَمْ ، وتبذل للجُسَمْ » .

ورأيت أعرابية في البادية ، فسألتها عن ابنها ، وكنت أراه معها كلما مررت بمنازلها ، فقالت : « مات ، وانس المصاب » ثم انشدت :

وكنت أخاف الدهر ما كان آمناً فلما تولى مات خوفي من الدهر

وسمعت اعرابياً في البادية يستغفر ربه بعد صلاته ويقول : « اللهم ان استغفاري اياك مع كثرة ذنوبي للؤم ، وان تركي الاستغفار مع معرفتي بسعة رحمتك لعجز .. اللهم كم تحببتَ الي بنعمتك وأنت غني عني ، وكم اتبغض اليك بذنوبي وأنا فقير اليك !! سبحان من اذا توعد عفا ، واذا وعد وفى » .

ورأيت اعرابياً ماسكاً بستار الكعبة ويقول : « اللهم أمتني ميتة ابي خارجة » فقلت له : يرحمك الله ، وكيف مات ابو خارجة ؟؟ قال :

---

(١) مصادر هذه النوادر : كتاب الأمالي ، والأغاني ، والبيان والتبيين ، والمعارف ، والصناعتين ، وعيون الأخبار ، والعقد الفريد ، ونزهة الألباء ، وزهر الآداب .

« اكل بذجاً ، وشرب مشعلاً ، ونام في الشمس فمات شبعان ريان دفآن » .

وخطب رجل امرأة من الأعراب فأكثر الكلام وأطال الخطاب ، فقام من بينهم اعرابي ، وقد مل من طول الحديث ، فالتفت الى الخاطب وقال : « اني والله ما انا من تخطائك وتمطائك في شيء . قد مَتَتَّ بحرمة ، وذكرت حقاً ، وعظمت موجوداً ؛ فحبلك موصول ، وفرضك مقبول ، وأنت لها كفءٌ كريم ، وقد انكحناك وسلمنا » .

سألت اعرابياً فقلت له : ما فضل بني فلان على بني فلان ؟؟ قال : « الكتاب » ، يعني القدر .

ووقفت بنا اعرابية متسولة فقالت : « يا قوم سنة جردت ، وأيد جمدت ، وحال اجهدت ، فهل من فاعل لخير ، وآمر بمير ، رحم الله من رحم ، فأقرض من لا يظلم » .

واختصم اعرابيان الى شيخ منهم ، فقال احدهما : اصلحك الله ما يحسن صاحبي هذا آية من كتاب الله عز وجل . فقال الآخر : كذب والله اني لقارىء كتاب الله ، قال الشيخ : فاقرأ ، فقال :

علق القلب ربابا بعدما شابت وشابا

قال الشيخ : احسنت ، فقال صاحبه : اصلحك الله ، والله ما تعلمها الا البارحة .

كان اعرابي طويل قبيح ، خطب امرأة ، فقيل له : اي ضرب تريدها ؟ قال : اريدها قصيرة جميلة ، فيأتي ولدها في جمالها وطولي ؛ فتزوجها على تلك الصفة ، فجاء ولدها في قصرها وقبحه .

وأخبرني اعرابي قال : خطب منا رجل مغموز امرأة مغموزة ،

فزوجوه ، فقيل لهم : تعمم لـكم فلان فزوجتموه ؟! قالوا : « ما تعمم لنا حتى تبرقعنا له » .

وقال اعرابي لابن عمه : « اطلب لي امرأة حديدة ، فرعاء جعدة ، تقوم فلا يصيب قميصها منها الا مشاشة منكبيها ، وحلمـــتي ثدييها ، وأرنفتي اليتيها ، ورضافي ركبتيها » . فقال له : « وانى بمثل هذه الا في الجنان ؟.. » .

وتخاصمت اعرابيـــة مع زوجها ، فقالت له : « والله ان شربك لاشتفاف ، وان ضجعتك لانعجاف ، وان شملتك لالتفاف ، وانك لتشبع ليلة تضاف وتنام ليلة تخاف » . فقال لها : « والله انك لكرواء الساقين ، قعواء الفخذين ، مقاء الرفغين ، مفاضة الكشحين . ضيفك جائع ، وشرك شائع ، وزوجك ضائع » .

جميل جدا

واختصم أعرابيان ، فجعل المدعي عليه يحلف بالطلاق والعتاق ، فقال له المدعي : دعني من هذه الايمان ، واحلف بما أقول لك : « لا ترك الله لك خفاً يتبع خفاً ، ولا ظلفاً يتبع ظلفا ، وحتك من اهلك ومالك حت الورق من الشجر ان يكن لي قبلك » . فأعطاه حقه ولم يحلف .

وولى أحد الأمراء اعرابياً على عمل من أعمال الرعية ، فأصاب عليـه خيانة ، فعزله واستدعاه ، فلما قدم عليه قال له : يا عدو الله ، أ كلت مال الله ؟! فقال الأعرابي : « ومال من آ كل إذا لم آ كل مال الله ؟؟ اني والله راودت ابليس الف مرة ان يعطيني فلساً واحداً فما فعل » .

وجلست عجوز من الأعراب في طريق مكة الى فتيان يشربون نبيذاً ، فسقوها قدحاً فطابت نفسها فتبسمت ، فسقوها قدحاً آخر فاحمر وجهها وضحكت ، فسقوها ثالثاً فقالت : خبروني عن نسائكم ، أيشربن هذا ؟؟

قالوا : نعم ، قالت : زنين ورب الكعبة ؛ والله ان صدقتم ما فيكم من يعرف أباه .

ودفعت يوماً في تلمسي بالبادية الى وادٍ خلاء لا أنيس فيه غير بيت معتنز ، بفنائه اعنز ، وقد ظمئت ؛ فيممته ، فسلمت ، فاذا عجوز قد برزت كأنها نعامة راخم . فقلت : هل من ماء ؟ قالت : أو لبن ؟؟ قلت : اذا يسر الله اللبن فأني اليه فقير . فشربت ، ثم قلت لها : اني أراك معتنزة في هذا الوادي الموحش ، والعرب منك قريبون ، فلو انضممت الى جانبهم فأنست بهم ؟! قالت : يا بن أخي ، اني لآنس بالوحشة ، وأستريح الى الوحدة ، ويطمئن قلبي الى هذا الوادي الموحش ؛ فلقد رأيته قبلاً آهلاً بأدواح وقباب ، ونعم كالهضاب ، وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح ، يبارون الرياح ، ويحمون الصباح ؛ فأحال عليهم الجلاء قَـمّاً بفَـرْفَـة ، فاصبحت الآثار دارسة ، والمحال طامسة ؛ وكذلك سيرة الدهر بمن وثق به . ثم قالت : ارم بعينك في هذا الملأ المتباطن ، فنظرت فإذا قبور نحو الأربعين ؛ فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟؟ قلت : نعم ؛ قالت : ما انطوت الا على أخ أو ابن أخ ، أو عم أو ابن عم ، فأصبحوا قد الأمت عليهم الأرض ، وأنا أترقب ما غالهم .. انصرف راشداً رحمك الله » .

وبينا انا سائر بناحية بلاد بني عامر اذ مررت بحلة في غائط ، يطؤهم الطريق ؛ وإذا رجل في ظل خيمة له ينشد ويقول :

كأن فؤادي كلما مر راكب جناح غراب رام نهضاً الى وكر
اذا ارتحلت نحو اليمامة رفقة دعاك الهوى واهتاج قلبك للذكر

فلما رآني اوما الي ، فأتيته ، فقال : أأعجبك ما سمعت ؟؟ قلت :

اي والله ، قال : من اهل الحضارة انت ؟؟ قلت : نعم ، قال : فمن تكون ؟ قلت : لا حاجة في سؤالك عن ذلك ، قال : او ما حلَّ الاسلام الضغائن ؛ وأطفأ الأحقاد ؟؟ قلت : بلى ، قال : فما يمنعك اذاً ؟؟ قلت : انا امرؤ من قيس ، قال : الحبيب القريب ، من أيهم ؟؟ قلت : من بني سعد بن قيس ، ثم احد بني اعصر بن سعد ، قال : زادك الله قرباً . ثم وثب فأنزلني عن حماري ، وألقى عنه اكافه ، وقيده بقراب خيمته ، وقام الى زند فاقتدح وأوقد ناراً ، وجاء بصيدانة فألقى فيها تمراً وأفرغ عليه سمناً ، ثم ذر عليه دقيقاً وقربه اليّ . فقلت : اني الى غير هذا احوج ، قال : وما هو ؟؟ قلت : تنشدني ، قال : اصب ، فاني فاعل . فلقمت لقيمات ، وقلت : الوعد ؟؟ قال : ونعمى عين ، ثم أنشد :

لقد طرقت ام الخشيف وانها اذا صرع القوم الكرى لطروق

فيا كبداً يحمى عليها وانها مخافة هيضات النوى لخفوق

(والقصيدة طويلة) فقمت وأنا من اشد الناس ظمأً الى معاودة انشاده .

ونزلت بقوم من الأعراب مجتورين ، فحضرت نادياً لهم وفيهم شيخ لهم طويل الصمت عالم بالشعر وأيام الناس ، يجتمع اليه فتيانهم ينشدونه اشعارهم . فاذا سمع الشعر الجيد قرع الأرض قرعة بمحجن في يده ،فينفذ حكمه على من حضر ببكر (ناقة) للمنشد ؛ واذا سمع ما لا يعجبه قرع رأسه بمحجنه فينفذ حكمه عليه بشاة (اي المنشد) ان كان ذا غنم ، وابن مخاض ان كان ذا ابل ؛ فاذا اخذ ذلك ذُبح لأهل النادي . .فحضرتهم يوماً والشيخ جالس بينهم ، فأنشد بعضهم فلم يجد ، فقرع الشيخ رأس ذلك المنشد ، فأخذت منه شاة ، وأنشد آخر فأجاد فقرع الشيخ الأرض فأعطيت له بكر ؛ ثم تقدم من بينهم فتى ، فأنشد ابياتاً لم اسمع اجود منها في وصف ليلة :

كأن شميط الصبح في اخرياتها ملاء يُنقى من طيالسة خضر
تخال بقاياها التي أسأر الدجى تمد وشيعاً فوق اردية الفجر

فقام الشيخ كالمجنون مصلتاً سيفه حتى خالط البرك (عدد من الأبل) وصار يضرب يميناً وشمالا وهو يقول :

لا تُفرغَنْ في أذنيَّ بعدها
ما يستفز فأريك فقدها
اني اذا السيف تولى ندّها
لا استطيع بعد ذاك ردها

ونزلت على اعرابية في البادية ، وقد مات ابن لها ، وهي من القلق على مثل الرضفة (اي الحجر المحروقة بالنار) فقامت تعالج لي طعاماً ، فقلت لها : يا هذه انك لفي شغل عن هذا ، فقالت : والله لا تجوز بيتي الا مَقْرِياً ، ولكن انشدني ابياتاً اسلو بها ، فاني اراك لوذعياً ، فانشدتها ابياتاً لأحد شعراء الأعراب يرثي ابنه وفيها يقول :

واني أري للشامتين تجلدي واني كالطاوي الجناح على كسر
يُرى واقعاً لم يُدر ما تحت ريشه وان ناء لم يسطع نهوضاً الى وكر
فلولا سرور الشامتين بكبوتي لما رقأت عيناي من واكف يجري

فكأني والله زبرت الأبيات في صدرها ، فما زالت تنشدها وتصلح طعامي حتى قرتني ورحت من عندها .

ومر بنا اعرابي ونحن في المربد ، ينشد ابناً له ، فقال : هل رأيتم ابني ؟؟ قلنا : صفه لنا ، قال : « كأنه دنانير » فقلنا له : لم نره . فذهب ولم يلبث ان جاء بصغير اسود كأنه الجعل ، قد حمله على عنقه ، فقلنا له : اهذا هو الدنانير ؟؟ انك لو سألت عن هذا لأرشدناك ، فأنه لم يزل عامة

يومه بين ايدينا ؛ فانشد :

زينها الله في الفؤاد كما   زين في عين والد ولده

واصابت الأعراب مجاعة ، فمررت برجل منهم قاعد مع امرأته بقارعة الطريق وهو يقول :

يا رب اني قاعد كما ترى
وامرأتي قاعدة كما ترى
والبطن مني جائع كما ترى
فما ترى يا ربنا فيما ترى ؟؟

ومررت بحمى « الربذة » فاذا صبيان يتقامسون في الماء ، وشاب جميل الوجه ملوح الجسم قاعد ، فسلمت عليه ، فرد عليّ السلام ، وقال : من اين وضح الركب ؟؟ قلت : من الحمى ؛ قال : ومتى عهدك به ؟؟ قلت : رائحاً ، قال : واين كان مبيتك ؟؟ قلت : ادنى هذه المشاقر . فالقى نفسه على ظهره ، وتنفس الصعداء ، فقلت في نفسي تفسأ حجاب قلبه ؛ ثم انشد :

سقى بلداً امست سليمى تحله   من الحزن ما تروى به وتسيم
وان لم أكن من قاطنيه فأنه   يحل به شخص عليّ كريم

ثم سكت سكتة كالمغمى عليه ، فصحت بالأصبية فأتوا بماء ، فصببته على وجهه ، فافاق وانشد :

اذا الصب الغريب رأى خشوعي   وانفاسي تزيّن بالخشوع
ولي عين اضر بها التفاتي   الى الأجراع مطلقة الدموع
الى الخلوات تأنس فيك نفسي   كما انس الوحيد الى الجميع

يقول الجاحظ عن الرواية والرواة في العهد الذي عاش فيه الأصمعي :

« ادركت رواة المسجديين والمربديين ؛ ومن لم يرو منهم اشعار المجانين ، ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب ، والأرجاز الاعرابية القصار ، واشعار اليهود ، والاشعار المصنفة ، فانهم كانوا لا يعدونه من الرواة . ثم استبردوا ذلك ، ووقفوا على قصار الاحاديث ، والقصائد والفقر والنتف من كل شيء . ولقد شهدتهم ، وما هم على شيء احرص منهم على نسيب العباس ابن الأحنف ؛ فما هو الا ان اورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فزهدوا في نسيب العباس . ثم رأيتهم منذ سنيات ، وما يروي عندهم نسيب الأعراب الا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر ، او فتياني متغزل .

وقد جلست الى ابي عبيدة والأصمعي ويحيى بن نجيم وأبي مالك عمرو ابن كركرة مع من جالست من رواة البغداديين فما رأيت احداً منهم قصد الى شعر في النسيب فانشده ؛ وكان خلف الأحمر يجمع ذلك كله . ولم ار غاية للنحويين الا كل شعر فيه اعراب ؛ ولم ار غاية لرواة الأشعار الا كل شعر فيه غريب او معنى صعب يحتاج الى الاستخراج ؛ ولم أر غاية رواة الأخبار الا كل شعر فيه الشاهد والمثل .

ورأيت عامتهم – وقد طالت مشاهدتي لهم – لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة او المخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي اذا صارت في الصدر عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت الى حسان المعاني . ورأيت البصر بهذا

الجوهر من الكلام في رواة الكُتّاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعر أظهر » .(١)

من هذا الوصف الدقيق ، نرى بأن رواة الأدب والأخبار لم يتخذوا في ذلك العهد لوناً واحداً في الرواية ، ولكنهم كانوا يسايرون الذوق العام المتنقل بين ألوان الأدب . والأصمعي احد اقطاب هؤلاء الذين عناهم الجاحظ في وصفه هذا ، اذ لم تكن رواياته في الأدب والأخبار على نمط واحد ولون خاص ، وفيها ما كان قد رواه ايام فتوته وشبابه ، وفيها ما عني به اثناء كهولته وتبسطه في العلم ، حتى اذا بلغ مرحلة الشيخوخة والنضج التام نحا في رواياته منحى العلماء الاجلاّء ؛ وكان لكل دور من هذه الأدوار التي اجتازها طابع خاص في الرواية ، وذوق يتميز عنه في الدورين الآخرين .. وأما قول الجاحظ بأنه ما وجد الأصمعي قصد الى شعر في النسيب فأنشده ، فحق ؛ لأن الجاحظ ادرك استاذه الأصمعي متأخراً ، بحكم السن .

وقد وجدنا الأصمعي ـ خلال بحثنا عن رواياته في الأدب والأخبار ـ لم يترك شيئاً مما وصفه الجاحظ في حديثه هذا إلا رمى فيه سهماً وافراً .. يقول السيوطي : « كان الأصمعي صناجة الرواة والنقلة ؛ واليه محط الاعباء والثقلة ؛ ومنه تجبى الفقر والملح ؛ وهو ريحانة كل مغتبق ومصطبح » .

روايته للشعر

ما أغزر ما روى الأصمعي من الشعر الجيد ، حتى قيل : انه اكثر من حفظ وروى فيه . والعجيب أنه كان يحفظ الدواوين الكاملة لمعظم الشعراء الذين كانت اشعارهم مدونة في عهده ؛ وقد حدثنا هو عن ذلك ،

---

(١) محاضرات الأدباء : ج ١ ص ٢٩٠ .

بقوله ، مثلاً : « درست ديوان الشنفرى على محمد بن ادريس الشافعي » و « قرأت شعر النابغة الذبياني على أبي عمرو بن العـلاء » الى آخر ما يدل على أنه كان يدرس دواوين الشعر واحداً واحدا ، وانه كان - بفضل حافظته - يجمع أكثر هذه الدواوين في صدره ، مع غيرها من قصائد الشعراء الذين لم تجمع آثارهم كلها . ولـه روايات لا تحصى ولا تعد في هذا المجال .

وغير هذه الأشعار التي لمعت اسماء اصحابها في عـالم الأدب القديم والمعاصر ، روى الأصمعي شيئاً كثيراً مما انتجته قرائح شعراء مجهولين من الأعراب لم يعرفوا ولم تدون اسماؤهم . . وقـد قلنا بأن مذهبه في جمع الشعر وروايته له ، البحث عن قائله ونسبه والتعرف الى سيرته ، والمناسبة التي قيل فيها ذلك الشعر وقصته وخبره . ولـكننا نجـد اثناء بحثنا في آثاره هذه بعض القطع الجيدة في الوان مختلفة ، لم يذكر صاحبهـا ، ويكتفي بقوله : « قال أحـد الأعراب » ، ممـا يشير الى انه عثر على ذلك الشعر صدفة اثنـاء بحوثه وتجواله بين القبائل ، أو أنـه لم يستطع معرفة صاحبه ودراسة أحواله لسبب من الأسباب .

وقد يكون الأصمعي سبق غـيره من الرواة في جمع بعض القصائد الغر لفحول الشعراء المشهورين في الجاهلية والاسلام ، وبذل الجهد الكبير في البحث عما لم يدون من انتاجهم هذا ، فجمعه ودونه وأسدى الى الأدب خدمة كبرى ؛ ولكننا لا نستطيع معرفة اي القصائد منها كان له قصب السبق في روايتها وتسجيلها ، كما لا نستطيع الجزم في كل ما روي عنـه من هذا بأنه لم يسبقه أحد اليه ؛ وقد رأينا في بعض القصائد التي رواها ابياتاً تختلف في نصها عما رواه الآخرون من الرواة المعاصرين له .

غير ان الذي نعتقده هو ان ما جاء لنا بـه من شعر الأعراب ممن لم تعرف اسماؤهم بين مشاهير الشعراء كان من ثمرات جهده وحده لأنه أول من دونه وعني به ورواه على النـــاس قبل أن يضيـع .. وللأصمعي - بين الرواة - فضل كبير في ذلك لكثرة ما جمع ونشر من هذا . وفيما يأتي صور من رواياته قال :

انشدني اعرابي - في أدب الطعام - :

اما والذي لا يعلم الغيب غيره ومن هو يحيي العظم وهي رميم
لقد كنت أطوي البطن والزاد يشتهى محافظة من ان يقـال لئيم
واني لأستحيي أكيلي ودونه ودون يدي داجي الظلام بهيم [١]

وأنشدتني اعرابية احبت فتى وأحبها ثم تزوج غيرها فقالت تعاتبه :

ألهف ابي لما ادمت لك الهوى وأصفيت، حتى الوجد بي لك ظاهر
وجاهرت فيك الناس حتى اضر بي مجاهرتي يا ويح فيمن اجاهر
فكنت كفيء الغصن بينا يظلني ويعجبني اذ زعزعته الأعاصر
فصار لغيري واستدارت ظلاله وقد لفحتني من جفاه الهواجر [٢]

وسمعت اعرابياً ينشد - في ذم اشرار الناس - :

كلاب الناس ان فكرت فيهم اضر عليك من كَلَب الكلاب
لأن الكلب لا يؤذي صديقاً وان صديق هـذا في عذاب
ويأتي حين يأتي في ثيـاب وقد حزمت على رجل مصاب
فأخزى الله اثواباً عليـــه وأخزى الله ما تحت الثياب [٣]

---

(١) الأمالي : ج ٣ ص ٢٧ .
(٢) الأمالي : ج ٢ ص ٢٨٣ - ولهذا الشعر قصة يرويها الأصمعي .
(٣) الامالي : ج ٢ ص ١١٩ .

وأنشد اعرابي ـ في الشيب ـ :

ألا قالت الخنساء يوم لقيتها كبرت ولم تجزع من الشيب مجزعا
رأت ذا عصا يمشي عليها وشيبة تقنع منها رأسه ما تقنعا
فقلت لها لا تهزئي بي فقلما يسود الفتى حتى يشيب ويصلعا
وللقارح اليعبوب خير علالة من الجذع الجرى وأبعد منزعاً (١)

ولأحد الأعراب يبكي ابناً له يدعى حسن :

افلحت ان كان لم يمت حسن وكف عني البكاء والحزن
اجول في الدار لا اراك وفي الـ ـدار اناس جوارهم غبن
بدلتهم فيك ليت انهم كانوا وبيني وبينهم عدن
فإن تعش فالمنى حياتك والـ ـخلد وأنت الحديث والوسن
فلا نبالي اذا بقيت لنا من مات او من أودى به الزمن
كنت خليلي وكنت خالصتي لكل حي من اهله سكن (٢)

وشهد رجل معركة (الجمل) بين علي بن ابي طالب وجيش عائشة فقال :

شهدت الحروب وشيبني فلم تر عيني كيوم الجمل
اثير على مؤمن فتنة وافتك منه لخرق بطل
فليت الظعينة في بيتها وليتك ـ عسكر ـ لم ترتحل (٣)

ورأيت بالبادية امرأة على راحلة لها تطوف حول قبر وهي تنشد :

يا من بمقلته زها الدهر قد كان فيك تضاءل الأمر

---

(١) البيان والتبيين : ج ٣ ص ٨٢ ـ كلمة (مجرى) تعنى الهزيل .
(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٩ .
(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ٢٨٧ .

زعموا : قتلت وما لهم خبر ، كذبوا وقبرك ما لهم عذر
يا قبر سيدنا المُجِنّ سماحة صلى الأله عليك يا قبر
فاذا غضبت تصدعت فرقاً منك الجبال وخافك الذعر
واذا رقدت فأنت منتبه واذا انتبهت فوجهك البدر
والله لو بك لم ادع أحداً الا قتلت لفاتني الوتر (١)

ولرجل من بني كلاب – في ذكر الماضي – .

سقى الله دهراً قد تولت غياطله وفارقنا الا الحشاشة باطله
ليالي خدني كل ابيض ماجد يطيع هوى الصابي وتعصى عواذله
وفي دهرنا والعيش اذ ذاك غِرّة الا ليت ذاك الدهر تثني اوائله
بما قد غنينا والصبا جل همنا يمايلنا ريعانه ونمايله
وجر لنا اذياله الدهر حقبة يطاولنا في غيه ونطاوله
فسقياً له من صاحب خذلت بنا مطيتنا عنه وولت رواحله
اصد عن البيت الذي فيه قاتلي واهجره حتى كأني قاتله (٢)

وقال احدهم – في حبيبته وتدعى : كأس – :

الا يا (كأس) قد افنيت قولي فلست بقائل الا رجيعا
ولست بنائم الا بهم ولا مستيقظ الا مروعا
أؤمل ان الاقي آل كأس كما يرجو اخو السنة الربيعا
وانك لو نظرت فدتك نفسي الى كبدي وجدت بها صدوعا

وقال احدهم في وصف فرس :

قد اطرق الحي على سابح اسطع مثل الصدع الأجرد

---

(١) الأمالي : ج ١ ص ٤٠ .
(٢) الأمالي : ج ١ ص ٧٧ .

لمـا اتيت الحي في دفـة كأن عرجـونا بمثنى يـدي
اقبل بي يختـال في شأوه يضرب في الأقرب والأبعـد
كأنه سكران أو عابس أو ابن رب حدث المولد (١)

وسمعت اعرابياً ينشد ـ في النصح ـ :

واذا اظهـرت امراً حسنـاً فليكن احسن منـه ما تسر
فسر الخير موسوم بـه ومسر الشر موسـوم بشر (٢)

وأنشدني اعرابي في طلاق زوجه :

ظعنت امامـة بالطـلاق ونجوت من غـل الوثاق
بانت فـلم يـألم بهـا قلـبي ولم تدمـع مآقي
ودواء ما لا تشتهيه النفس تعجيـل الفـراق
والعيش ليس بطيـب بين اثنتـين بلا اتفـاق
لو لم ارح بفراقهـا لأرحت نفسي بالأباق (٣)

وتزوج اعرابي بامرأة شريرة فافتدى نفسه منها بحمار وقال :

خطبت الى الشيطان للحين بنته فادخلها من شقوتي في حباليـا
فانقذني منهـا حماري وجبتي جزى الله خيراً جبتي وحماريا (٤)

وشرب اعرابي خمراً فعاتبته زوجه فقال :

غَضِبَتْ علي لئن شربت بصوف ولـئن غضبت لأشربنّ بخروف
ولئن غضبت لأشربنّ بنعجة دهساء مالئـة الأناء سحوف
ولئن غضبت لأشربنّ بناقـة كوماء ناوية العظام صفوف

---

(١) العقد الفريد : ج ١ ص ٦٥ .
(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٠٤ .
(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ١١٩ .
(٤) العقد الفريد : ج ٢ ص ١١٩ .

ولئن غضبت لأشربن بسابح نهد اشم المنكبين منيف

ولئن غضبت لأشربن بواحدي ولأجعلن الصبر منه حليفي

ولقد شهدت الخيل تعثر بالقنا واجبت صوت الصارخ الملهوف [1]

روايته للامثال والحكم

وكانت عنايته بجمع الحكم والأمثال وروايتها كعنايته بجمع الشعر وروايته ، لما فيها ايضاً من لغة واعراب ومعنى دقيق وأثر في السمع وزينة في الكلام . وقد مر على بغاة العلم في عهد الأصمعي فترة من الزمن عنوا فيها بجمع هذا اللون من الأدب فدونوه والفوا فيه كما الف الأصمعي كتابه « الأمثال » ايضاً واختار فيه مجموعة ثمينة منها . واذا كان كتابه هذا لا يزال ضائعاً فقد نقلت لنا كتب الأدب منه جزءاً ، مع شيء كثير مما رواه في مجالسه ومحاضراته من الامثال وشرح معانيها وذكر حوادثها ومناسباتها ، كقوله :

« من استرعى الذئب فقد ظلم » اي من ولى غير الامين على امره فالظلم جاء من عنده .

« هذا ولما تردي تهامه » يضرب لرجل يجزع قبل وقت الجزع .

« خرقاء وجدت صوفاً » يقال للرجل الفاسد يقع في يده مال فيعيث فيه .

« اسمع جعجعة ولا ارى طحناً » اي اسمع جلبة وضوضاء ولا ارى عملاً نافعاً .

« كلا جانبي هرش لهن طريق » يضرب لأمرين يشتبهان ويستويان

---

(١) الامالي : ج ١ ص ١٥٠ .

في اي مأخذ اخذتها .

« حِرّة تحت قرة » يقال لأمر يظهر وتحته امر خفي غيره .

« ان البغاث بأرضنا يستنسر » يضرب للرجل الضعيف يعجز عند غيرنا و يتجبر علينا .

« اصرد من عنز جرباء » يقال للرجل اذا كان شديد الحس بالبرد .

« حَنَّ قِدْح ليس منها » يضرب مثلاً للرجل يدخل نسبه في قوم ليس منهم .

« لا يعدم شقي مهراً » اي لا يعدم الشقي عناءً وجزاءً على شقاوته .

« لا تعدم الحسناء ذاماً » لا يخلو اي رجل من ان يكون به ما يعاب عليه .

« الليل أخفى للويل » اي الستر في العيب خير من المكاشفة .

« قبل الرماء تملأ الكنائن » يراد به قبل وقوع الأمر يجب ان تتخذ له العدة .

« حَرّكَ خشاشة » اي عمل بما يؤذيه .

« بَرِّق لمن لا يعرفك » يقال هذا للذي يتوعد من يعرفه ويعرف عجزه ، فيقول له : اصنع هذا بمن لا يعرفك .

« لوى عنه عذاره » اي عصاه فلم يطعه .

« العبد من لا عبد له » اي من لم يكن له عبد ولا كاف يعينه امتهن نفسه .

« حر انتصر » يضرب للرجل ، يُظلم فينتقم .

« جيء به من حَسِّك وبَسِّك » اي من حيث كان ولم يكن .

« شرّاب بأنقُعْ » اي معاود للأمور يأتيها مرة بعد اخرى .

« لو كان ذا حيلة تحول » يراد انه أُتي من قبل ضعفه .

« أَحْسِنْ وذق » مثل للرجل يتعرض لما يكره فيقع فيه .

« لو كويتُ على داء لم أكره » اي لو عوتبت على ذنب فعلته ما امتعضت .

« كمبتغي الصيد في عِرِّيسة الأسد » يطلب الغنيمة في موضع الهلكة .

« اجود من لافظة » واللافظة هنا البحر .

« اجبن من صافر » كثير الخوف . والصافر طير صغير .

« خَلِّ سبيل من وهى سقاؤه » اي من لم يستقم امره فلا تعبأ به .

« يشوب ولا يروب » مثل للرجل مُخَلِّط .

« شر الرأي الدبرى » يراد به الذي يجيء بعد ان فات الأمر .

« كان حماراً فاستأتن » للرجل يهون اكثر مما كان هيناً .

« الحمّى أضرعتني اليك » اي ذَلَّ للحاجة .

« هما كأسنان المشط »
« سواسية كأسنان الحمار »
« كعكمي عَير »
« كركبتي البعير »
– معناها واحد يقال للشيئين المستويين .

ومما رواه في الحكم والمواعظ والنصح :

يقال في حكم القدماء : « ابغض الناس الى الله المثلث » ، والمثلث هو الرجل الذي يسعى بأخيه الى الأمـام فيهلك نفسه واخاه وإمامه [١] .

قال ابن عبيد : لا يزال الناس بخير ما داموا اذا اختلج في صدر

(١) المستظرف : ج ١ ص ١٠٤ .

الرجل شيء وجد من يفرج عنه [(١)] .

اوصت امرأة ابناً لها يريد السفر فقالت : اجلس امنحك وصيتي وبالله توفيقك : اياك والنمائم فانها تزرع الضغائن ؛ ولا تجعل نفسك غرضاً للرماة فان الهدف اذا رمي لم يلبث ان ينثلم ؛ ومثّل نفسك مثلاً فما استحسنته من غيرك فاعمل به وما كرهته منه فدعه واجتنبه ؛ ومن كانت مودته بِشَرِه كان كالريح في تصرفها ؛ واذا هززت فاهزز كريماً فان الكريم يهتز لهزتك ، واياك واللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها ؛ واياك والغدر فإنه اقبح ما تعومل به ، وعليك بالوفاء ففيه النماء ؛ وكن بمالك جواداً وبدينك شحيحاً ؛ ومن أُعطي السخاء والحلم فقد استجاد الحُلَّة ريطتها وسربالها » [(٢)] .

قال الحسن البصري : « يا ابن آدم ، انت اسير الجوع صريع الشبع ان قوماً لبسوا هذه المطارف العتاق ، والعمائم الرقاق ، ووسعوا دورهم وضيقوا قبورهم ، وأسمنوا دوابهم ، وأهزلوا دينهم ، يتكي احدهم على شماله ويأكل غير ماله ، ثم يقول : يا جارية هاتي هاضومك .. ويحك وهل تهضم الا دينك ؟ » [(٣)] .

سئل علي بن ابي طالب : كم بين الايمان واليقين ؟ قال : اربع اصابع ؛ قيل : وكيف ذلك ؟ قال : الايمان كل ما سمعته اذناك وصدقه قلبك ، واليقين ما رأته عيناك فأيقن به قلبك ، وليس بين العين والأذن إلا اربع اصابع [(٤)] .

---

(١) البيان والتبيين : ج ٣ ص ١٦٠ .
(٢) البيان والتبيين : ج ٣ ص ٢٦٤ .
(٣) العقد الفريد : ج ١ ص ٣٨٧ .
(٤) العقد الفريد : ج ٣ ص ٣٦٩ .

سمعت رجلاً يقول : الحسد ماحق الحسنات ؛ والزهو جالب لمقت الله ومقت الصالحين ؛ والعجب صارف عن الازدياد من العلم ، داع الى التخمط والجهل ؛ والبخل أذم الأخلاق وأجلبها لسوء الأحدوثة .

وقال آخر ينصح مسافراً : آثر بعملك معادك ، ولا تدع لشهوتك رشادك ، وليكن عقلك وزيرك الذي يدعوك الى الهدى ، ويعصمك من الردى ؛ ألجم هواك عن الفواحش ، وأطلقه في المكارم فانك تبر بذلك سلفك وتشيد شرفك (١) .

تقول العرب : لا ثناء مع الكبر ، ولا صديق لذي الحسد ، ولا شرف لسيىء الأدب .. شر خصال الملوك الجبن عن الأعداء ، والقسوة على الضعفاء ، والبخل عند الاعطاء .. صلة الرحم منسأة في العمر ، مرضاة للرب ، محبة في الأهل .

يقول حكيم العرب اكثم بن صيفي : سوء حمل الفاقة يُحْرض – يفسد – الحسب ، ويقوي الضرورة ، ويذئر اهل الشماتة .

ويقال : أولى الناس بالفضل أعودهم بفضله ، وأعون الأشياء على تذكية العقل التعلم ، وأدل الأشياء على عقل العاقل حسن التدبير .. وأمتع شيء ممازحة المحب ، ومحادثة الصديق ، وأماني تقطع بها ايامك ؛ وأكلم المصائب فقد خليل لا عوض منه .

وقالوا : من لم يرض عن صديقه الا بإيثاره على نفسه دام سخطه ؛ ومن عاتب على كل ذنب كثر عدوه ؛ ومن لم يؤاخ من الاخوان إلا من لا عيب فيه قل صديقه (٢) .

---

(١) الامالي : ج ١ ص ١٩٧ .
(٢) الأمالي : ج ١ ص ١٩٨ – ٢١٤ .

قال بعض الحكماء لابنه : يا بني اقبل وصيتي وعهدي ؛ ان سرعة ائتلاف قلوب الأبرار كسرعة اختلاط قطر المطر بماء الأنهار ، وبعد قلوب الفجار من الائتلاف كبعد البهائم من التعاطف وان طال ائتلافها على اري واحد ؛ كن يا بني بصالح الوزراء اغنى منك بكثرة عدتهم ، فان اللؤلؤة خفيف محملها كثير ثمنها ، والحجر فادح حمله قليل غناؤه (١) .

يقول عروة بن الزبير لبنيه : لا يهدين احدكم الى ربه ما يستحي ان يهديه الى حريمه ، فان الله أكرم الكرماء واحق من اختير له .. يا بني تعلموا العلم فانكم ان تكونوا صغار قوم فعسى ان تكونوا كبارهم ؛ واسوأتاه ماذا اقبح من شيخ جاهل ؟

يا بني ، اذا رأيتم خَلّة رائعة من شرٍ من رجل فاحذروه وان كان عند الناس رجل صدق ، فان لها عنده اخوات ؛ واذا رأيتم خلة رائعة من خير من رجل فلا تقطعوا إناتكم منه وان كان عند الناس رجل سوء ، فان لها عنده اخوات (٢) .

يقول عمر بن الخطاب : مروءة الرجل عقله ، وشرفه حاله .

ويقول احنف بن قيس : العقل خير قرين ؛ والأدب خير ميراث ؛ والتوفيق خير قائد .

ويقول اكثم بن صيفي : خير السخاء ما وافق الحاجة ، ومن عرف قدره لم يهلك ، ومن صبر ظفر ، واكرم اخلاق الرجال العفو .

ويقول احدهم : فوت الحاجة خير من طلبها من غير اهلها ؛ وعز النزاهة اشرف من سرور الفائدة ؛ وحمل المنن اثقل من الصبر على العدم . (٣)

---

(١) الأمالي : ج ١ ص ٢٣١ .
(٢) الأمالي : ج ١ ص ٢٤٠ .
(٣) الأمالي : ج ٢ ص ١٦٧ .

قال الحسن لابنه : يا بني ، اذا جالست العلماء فكن على ان تسمع احرص منك على ان تقول ، و تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ولا تقطع على احد حديثاً وان طال حتى يمسك (١) .

قال عمر بن العاص : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ولكنه الذي يعرف خير الشرين ؛ وليس الواصل الذي يصل من وصله ولكنه الذي يصل من قطعه .

قال زياد بن أبيه ـ ليس العاقل الذي يحتال للأمر إذا وقع فيه ، ولكنه الذي يحتال للأمر ان لا يقع فيه .

قال معاوية لعمرو بن العاص : ما بلغ من دهائك يا عمرو ؟ قال عمرو : لم أدخل في امر قط فكرهته الا خرجت منه ؛ قال معاوية : لكني لم ادخل في امر قط فاردت الخروج منه (٢) .

بلغني ان علي بن ابي طالب كان يقول : انما المرء في الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، ونهب للمصائب ، ومع كل جرعة شَرَقْ ، وفي كل اكلة غصص ، ولا ينال العبد فيها نعمة الا بفراق اخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره الا بهدم آخر من اجله ، فنحن اعوان الحتوف ، .. فاطلبوا الخير واهله ؛ واعلموا ان خيراً من الخير معطيه ، وشراً من الشر فاعله (٣) .

وقال اكثم بن صيفي :

« يا بني تميم ، لا يفوتنكم وَعْظي إن فاتكم الدهر بنفسي ؛ ان بين حيزومي لبحراً من الكَلِم ، لا اجد له مواقع غير اسماعكم ، ولا مقراً الا قلوبكم ، فتلقوها بأسماع صاغية ، وقلوب واعية ، تحمدوا عواقبها :

(١) الأمالي : ج ٢ ص ١٨٨ .
(٢) عيون الأخبار : ج ١ ص ٢٨٠ .
(٣) الامالي : ج ٢ ص ٥٤ .

ان الهوى يقظان ، والعقل راقد ، والشهوات مُطلقة ، والحزمَ معقول ، والنفس مهملة ، والروية مفيدة ، ومن جهة التواني وترك الروية يَتْلَفُ الحزمُ .

ولن يعدم المشاور مرشداً ؛ والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل ، ومن سَمَّعَ سُمِّعَ به ؛ ومصارع الألباب تحت ظلال الطمع .

ولو اعتُبِرتْ مواقع المحن ما وُجِدَتْ الا في مقاتل الكرام ؛ وعلى الاعتبار طريق الرَشاد ؛ ومن سَلَكَ الجَدَدْ أَمِنَ العثار ؛ ولن يَعدم الحسود ان يتعب قلبه ويشغل فكره ويُؤَرِّثَ غيظه ولا يجاوز ضره نفسه .. » (١)

روايته للطرائف والملح

ونعني بالطرائف والملح تلك القصص والأخبار التي جمعها ورواها عن اشخاص اشتهروا في التاريخ او نوهت كتب السير والأدب باسمائهم فاصبحوا من المعروفين في مجالات العلم والأدب . وهي غير نوادر الأعراب التي سبق بحثها ، لأنها اخبار تاريخية لها صلة بسير هؤلاء الرجال وتاريخ حياتهم ؛ فكان الأصمعي يتوخى الحقائق والصدق في روايتها كفعله في نقل الأخبار التاريخية ؛ ولم يدع خياله يسترسل في صنعها او الزيادة فيها كما هو شأنه في صنع نوادر الأعراب .

وقد جمع وروى الشيء الكثير بالوان مختلفة من هذه الطرائف والملح ، فحكى عن مشاهير البخلاء من سائر الطبقات ، وعن عقلاء المجانين المعروفين ، واللصوص الظرفاء من هواة الأدب والشعر ، وعن هفوات وشذوذ بعض

---

(١) البصائر والذخائر : ١٥١ .

ارباب السيف والادارة ، وحتى عن بعض الخلفاء وما كان يقع في مجالسهم من نوادر واجوبة مضحكة وطرائف فكرية تستحق الاهتمام .

كان الأصمعي يعنى برواية هذه الطرائف في مناسباتها ، ويتـأنق في حديثه بها ، فيضفي عليها من جمال صوتـه وحسن اسلوبه وفصاحة لهجته ما يزيدها روعة في آذان سامعيه ، وسحراً في نفوسهم ، حتى عرف - كما ذكرنا - بهذا اللون من الأدب الظريف ، الذي شوق الناس الى مجالسته حتى اوصله الى بلاط الرشيد فكان السبب الرئيسي في ثرائه .. وقد سبق لنا ان تحدثنا عن ظرفه والوان طرائفه التي رواها في شبابه عن نفسه اثناء معاشرته المسجديين والشعراء الظرفاء ، وهذه صور من الطرائف التي نقلها عن الغير ورواها في مجالسه ، قال :

سوبق بين « هبنقة » و « الجرنفس » ايهما احمق وأجن من الآخر ؛ فجاء جرنفس بحجارة خفاف من الجص ، وجاء هبنقة بحجارة ثقال وترس ؛ فبدأ جرنفس ، فقبض على حجر ، ورفع صوته وقـال : الترس ؛ فرمى الترس فأصابه فانهزم هبنقة ؛ فقيل له : لماذا انهزمت ؟ فقال : امـا رأيتم انه قال : الترس ، ثم رمى الترس فـلم يخطئه ؟؟ فلو أنه قال : العين ، ورماها ، أما كان يصيب عيني ؟؟ [1] .

وكان رجل من اهل البصرة بذياً شريراً يؤذي جيرانهـم ويشتم اعراضهم . فأتاه رجل ، فوعظه ، وقال له : ما بال جيرانك يشكونك ؟ قال : لأني اشتمهم ، قال : ولم ؟؟ قال لأنهـم قوم يحسدونني على كل شيء ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : اقبل معي اليهم ؛ فأقبل معه الى جيرانه ؛ فقعد متحازناً ، فقالوا له : مالك ؟؟ قال : طرق كتاب من الخليفة معاوية ،

---

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ٣١١ .

ان أصلب انا ومالك بن المنـذر وفلان وفلان ، وذكر عدة رجال من اشراف اهل البصرة ؛ فوثبوا عليه وقالوا له : يا عدو الله ، انت تصلب مع هؤلاء ، ولا كرامة لك ؟؟ فالتفت الى الرجل الذي جاء معه ، وقال : اما تراهم قد حسدوني على الصلب ، فكيف لو كان خيراً ؟؟

كان « المروزي » بخيلاً ، فكان اذا أتاه زائروه قال لهم : هـل تغديتم اليوم ؟ فان قالوا نعم ، قال : والله لولا انكم تغديتم لأطعمتكم لوناً ما اكلتم مثله ، ولكن ذهب اول الطعام بشهوتكم ؛ وان قـالوا لا ، قال : والله لولا انكم لم تتغدوا لسقيتكم اقداحاً من نبيذ الزبيب ما شربتم مثله .. فلا يصير في ايديهم منه شيء [١] .

مر رجل بأبي الأسود « الدؤلي » ـ وكان بخيلاً معروفاً ـ وهو يقول: من يعشي الجائع ؟ فقال ابو الأسود : علي به ، فأتاه بعشاء كثير ، وقال : كل حتى تشبع ؛ فلما اكل ذهب ليخرج ، قال : اين تريد ؟ قال : اريد اهلي قال ابو الأسود : لا ادعك تؤذي المسلمين الليلة بسؤالك ؛ اطرحوه في الأدهم ، فبات عنده مكبولاً حتى اصبح [٢] .

ولي رجل قضاء الأهواز ، فابطأت عليه ارزاقه وليس عنده ما يضحي به ولا ما ينفق ، وشكا ذلك الى امرأته ، فقالت له : لا تغتم فان عندي ديكاً عظيماً قد سمنته ، فاذا كان يوم الأضحى ذبحناه ؛ فبلغ جيرانه الخبر فأهدى له كل منهم كبشاً حتى بلغوا الثلاثين وهو في المصلى لا يعلم ؛ فلما صار الى منزله ورأى ما فيه من الأضاحي قال لامرأته : من اين هذا ؟ قالت : اهدى لنا فلان وفلان حتى سمت له جماعة ، فقال لها :

---

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ٣٥٣ .

(٢) العقد الفريد : ج ٣ ص ٣٢٧ .

يا هذه ، تحفّظي بديكنا هذا ، فلهو اكرم عند الله من اسحاق بن ابراهيم عليه السلام ؛ انه فدى ذلك بكبش واحد ، وفدى ديكنا هـذا بثلاثين كبشاً (١) .

خرج جماعة من « بني غفار » ومعهم رجل مغفل فأصابتهم ريح في البحر آيسوا معها من الحياة ، فأعتق كل واحد منهم مملوكاً او مملوكة ، فقال ذلك الرجل : اللهم انك تعلم اني ليس لي مملوك ولا مملوكة ، ولكن امرأتي طالق طلقة واحدة لوجهك الكريم (٢) .

وشهد رجل عند « سوّار » القاضي فقال له : ما صناعتك ؟ قال : انا مؤدب . قال : فانا لا نجـيز شهادتك . قال : ولم ؟ قال : لأنك تأخذ على تعليم القرآن اجراً . قال : وأنت تأخذ على القضاء بين المسلمين اجراً . قال : انا اكرهت على القضـــاء ، قال : يا هـذا ، القضاء اكرهت عليه ، فهل اكرهت على اخذ الرزق ؟ قال : هلم شهادتك ؛ فأجازهـا (٣) .

جاء رجل من بني مخزوم الى الحارث بن عبـد الله بن نوفـل وهو يقضي عن اخيه ديناً فقال : ان لي على اخيك حقاً ، قال : ثَبِّتْ حقك تعطه ، قال : أفمن ملاءة اخيك ووفائه ندعي عليه ما ليس لنا ؟ قال : أمن صدقك وبرك نقبل قولك بغير بينة ؟ (٤)

صعـد « اليربوعي » ليخطب ، ولكنه ارتج عليـه ، فقال : « اما بعد ، فوالله ما ادري ما اقول ، ولا فيم اقتموني ، .. اقول ماذا ؟؟ »

---

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ٤٤٥ .
(٢) محاضرات الأدباء : ج ١ ص ٩٤ .
(٣) عيون الأخبار : ج ١ ص ٦٩ .
(٤) عيون الاخبار : ج ١ ص ٢٥٥ .

فقال له بعضهم : قل في الزيت ، فقال : « الزيت مبارك ، فكلوا منه وادهنوا .. » ثم نزل ، فضحك الناس (١) .

انشدت محمداً بن عمران قاضي المدينة ، وكان أعقل من رأيت :

يا ايها السائل عن منزلي نزلت في الخان على نفسي
يغدو علي الخبز من خابز لا يقبل الرهن ولا ينسي
آكل من كيسي ومن كسرتي حتى لقد أوجعني ضرسي

فقال : اكتب لي هذه الأبيات ، فقلت : اصلحك الله ، هذا لا يشبه مثلك ، وانما يروي مثل هذا الأحداث ؛ قال : اكتبها ، فالأشراف تعجبهم الملح (٢) .

ولما مات يزيد بن عبد الملك وصارت الخلافة الى هشام بن عبد الملك ، خر اصحابه سجوداً وشكراً لله ، الا « الأبرش الكلبي » ، فقال له : يا ابرش ، ما منعك ان تسجد لله كما سجدوا ؟؟ قال : يا امير المؤمنين ، لأنك صرت خليفة فتركتنا وذهبت عنا ، قال : فان ذهبت بك معي ؟؟ قال : او تفعل ؟؟ قال : نعم ، قال : فالآن طاب السجود ، ثم سجد (٣) .

بينما كان « ابن عرباض » الظريف يمشي مقدماً بطنه ، اذ استقبله جماعة من الخوارج يحزون الناس بالسيوف ، فقال لهم : هل خرج اليكم في اليهود شيء ؟؟ قالوا : لا ، ان اليهود اصحاب كتاب ؛ قال : فامضوا اذاً راشدين ؛ فحسبوه يهودياً ، فتركوه (٤) .

---

(١) عيون الأخبار : ج ٢ ص ٢٥٦ .
(٢) زهر الآداب : ج ١ ص ١٤٧ .
(٣) العقد الفريد : ج ١ ص ١٨٢ .
(٤) العقد الفريد : ج ١ ص ٢٨١ .

قال « عيسى بن عمر النحوي » : قدمت من سفر ، فدخل عليَّ الشاعر ذو الرمة ، فعرضت لأن اعطيه فقال : انا وأنت نأخذ ولا نعطي[1] .

ركب عيسى بن عمر الثقفي النحوي » حماراً له ، وكان يتقعر في كلامه ؛ فقفز الحمار وسقط عيسى مغشياً عليه ، فلما افاق وجد الناس قد اجتمعوا حوله ، فقال لهم : « ما لكم تكأكأتم عليَّ كتكأكئكم على ذي جنة ؟؟ افرنقعوا عني »[2] .

دخل اعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له هشام : عظني يا اعرابي ، فقال : كفى بالقرآن واعظاً ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون .. » ثم قال : يا امير المؤمنين ، هذا جزاء من يطفف الكيل والميزان ، فما ظنك بمن يأخذه كله[3] ؟؟

زوج « خالد بن صفوان » عبده من امته ، فقال له العبد : لو دعوت الناس وخطبت فيهم ! ، قال : ادعهم انت ، فدعاهم العبد ، فلما اجتمعوا تكلم خالد بن صفوان فقال : « ان الله اعظم واجل من ان يذكر في نكاح هذين الكلبين ، وانا اشهدكم اني زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية »[4] .

عرضت السجون بعد هلاك الحجاج بن يوسف فوجدوا فيها ثلاثاً وثلاثين ألفاً لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب ، وفيم اعرابي أخذ لأنه بال في أصل مدينة واسط ، فكان فيمن اطلق ، فأنشأ يقول :

---

(١) العقد الفريد : ج ١ ص ٣١٧ .
(٢) ابن خلكان : ج ٣ ص ٤٨ .
(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٠٢ .
(٤) العقد الفريد : ج ٢ ص ٢٠٠ .

اذا ما خرجنا من مدينة واسط   خرينا و بلنا لا نخاف عقابا (١)

لما ولي بلال بن ابي بردة البصرة ، بلغ ذلك خالد بن صفوان فقال : « سحابة صيف عن قريب تقشع » فبلغ ذلك بلالاً ، فدعا به وقال له : أنت القائل « سحابة صيف . . » ؟؟ قال : نعم ، قال : امـا والله لا تقشع حتى يصيبك منها شؤبوب برد ، فضرب به مائة سوط (٢) .

اقبل رجل الى يزيد بن مسلم فقال له : انى كنت قبل حول رأيت الحجاج في المنام فسألته : ما فعل الله بك ؟ قال : قتلني بكل قتيل قتلته قتلة ، وانا منتظر ما ينتظره الموحدون ، ثم رأيته بعد الحول فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال : يا عاض بظر امه أما سألتني عن هذا عام اول فأخبرتك ؟ قال يزيد بن مسلم : أشهد انك رأيت الحجاج حقاً (٣) .

دخل ابو بكر الهجري على الخليفة المنصور فقال : يا أمير المؤمنين ، تعصى فمي ، وانتم اهل البيت بركة ، فلو اذنت لي فقبلت رأسك ؟ فقال له المنصور : اختر احدهما اما ان تقبل رأسي ، أو تأخذ الجائزة ! قال : يا امير المومنين ، ان اهون علي من ذهاب درهم من الجائزة ان لا تبقى حاكّة في فمي . فضحك المنصور وأمر له بجائزة (٤) .

كان ابو ذؤيب الهذلي يهوى امرأة يقال لها « ام عمرو » ، وكان يرسل اليها خالد بن زهير فخانه فيها ، وكذلك كان ابو ذؤيب فعـل برجل يقال له « عويم بن مـالك » وكان رسوله اليها ايضاً . فلما علم ابو ذؤيب بما فعل خالد صرمها ، فأرسلت تترضاه فلم يفعل وقال فيها :

---

(١) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٢٤ .
(٢) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٤٧ .
(٣) العقد الفريد : ج ٣ ص ٢٥ .
(٤) العقد الفريد : ج ١ ص ٩٥ .

تريدين كيما تجمعيني وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك في غمد؟؟

اخالد ما راعيت من ذي قرابة فتحفظني بالغيب او بعض ما تبدي

دعاك اليها مقلتاها وجيدها فملت كما مال المحب على عمد

وكنت كرقراق السراب اذا بدا لقوم وقد بات المطي بهم يحدي

فآليت لا انفك احدو قصيدة تكون واياها بها مثلاً بعدي (١)

جاءت امرأة الى قبر « غالب » ابي الفرزدق ، فضربت عليه فسطاطاً ؛ فأتاها الفرزدق فسألها عن أمرها ، قالت : اني عائذة بقبر غالب من أمر نزل بي ، قال : وما هو ؟؟ فقد ضمنت امر خلاصك منه ، قالت : ان ابناً لي أغزى الى السند مع « تميم بن زيد » وهو واحدي واسمه حُبيش ؛ قال الفرزدق : انصرفي فعلي انصرافه اليك إن شاء الله ، ثم كتب من وقته الى تميم ما يأتي :

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي بظهر فلا يخفى علي جوابها

وهب لي « حُبيشاً » واتخذ فيه منة لحرقة ام ما يسوغ شرابها

اتتني فعاذت يا تميم بغالب وبالحفرة السافي عليه ترابها

فلم يستطع تميم قراءة الأسم ، فعرض من معه من الجند فلم يدع احداً اسمه حُنيش او حُبيش الا وصله واذن له بالانصراف الى اهله (٢) .

اجتمع عدة من الشعراء منهم « حميد بن ثور الهلالي ، ومزاحم بن مصرف العقيلي ، والعجير السلمي » فقالوا : ايتوا بنا منزل « يزيد بن الطثرية » نهتكم به ؛ فاتوه ، فلم يكن في منزله ، فخرجت صبية له ، فنظرت في وجوههم ثم قالت :

تجمعتم من كل افق وجانب على واحد !! لا زلتم قرن واحد

---

(١) الأغاني : ج ٦ ص ٦٢ .

(٢) الأغاني : ج ١٩ ص ٣٦ .

قالوا : فغلبتنا والله (١) .

وأنشد احدهم امام رجل من العجم قول النابغة الجعدي :

لبست اناساً فأفنيتهم وافنيت بعد اناس اناسا

وفسر له ، فقال الأعجمي ـ بلغته ـ هذا رجل مشؤوم (٢) .

وسمع اعرابي جريراً الخطفي ينشد قوله :

كاد الهوى يوم سلمانين يقتلني وكاد يقتلني يوماً بنعمان

وكاد يقتلني يوماً بذي خشب وكاد يقتلني يوماً بسلمان

فقال : هذا رجل افلت من الموت اربع مرات ... لا يموت هذا ابدا (٣) .

اسلم اعرابي في ايام عمر بن الخطاب ، فجعل عمر يعلمه الصلاة ، فيقول : « صل الظهر اربعاً ، والعصر اربعاً ، والمغرب ثلاثاً ، والعشاء اربعاً ، والصبح ركعتين » ، فلم يستطع الأعرابي حفظ ذلك ، وجعل يخلط بالاعداد ، فضجر عمر فقال : ان الاعراب احفظ شيء للشعر ؛ فقل :

ان الصلاة اربع واربعُ
ثم ثلاث بعدهن اربع
ثم صلاة الفجر لا تُضَيَّع

احفظت ؟؟ قال : نعم . قال عمر : الحق بأهلك (٤)

رأى « ابو نخيلة » الراجز على « شبيب بن شيبة » ـ زعيم الخوارج ـ حلة ، فأعجبته ، فسأله اياها ، فوعده ولم يبر بوعده فقال فيه :

---

(١) المنتقى : ٣٨ .
(٢) الأغاني : ج ٤ ص ١٣٠ .
(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٢٣ .
(٤) المنتقى : ٤٠ .

يا قوم لا تسودوا شبيبا   الخائن بن الخائن الكذوبا
هل تلد الذئبة إلا ذيبا ؟

فلما بلغ ذلك شبيباً بعث اليه بالحلّة ، فكتب اليه :

اذا غدت سعد على شبيبها   على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس الى مغيبها   عجبت من كثرتها وطيبها (١)

روايته للأخبار التاريخية

كان الأصمعي في الطليعـة الأولى من رواة اخبار العرب ، ولم يترك عهداً من العهود القديمة في الجاهلية والأسلام مما يصلح ان يكون مادة للتاريخ العام ، او حلقة في سير مشاهير الرجال ، الا روى فيـه ؛ ونقل لنا اخبار قبائلهم واحوالها مع ما قيل في حوادثها من روائع الأدب .. وهذا بعضها :

كانت قبائـل « حِمْير » في اليمن تسمي الملك ، اذا لم يغز « موثبان » . وكانت ملوك حمير قد رتبوا المملكة ان يختار الملك ثمانيـة من ابناء الملوك يسميهم « المثامنة » يخدمونـه . فاذا مات الملك انتخب اهل المملكة من المثامنة ملكاً ان لم يكن له ابن او ابن اخ ، ثم يؤخذ من الاقيال رجل يجعلونه بدل ذلك من المثامنة ، لتمام الثمانية ؛ ويؤخذ من اهل البيت رجل فيجعل قيلا . والاقيال ثمانون رجلاً ، واهل البيت اكثر من ان يحصوا . (٢)

لما ترعرع « حاتم الطائي » جعل يخرج طعامه ، فان وجـد احـداً اكل معه وان لم يجد احداً طرحه . فلما رأى ابوه انه يهلك طعامه قال

---

(١) طبقات الأدباء : ج ٤ ص ٢٦٠ .
(٢) الأزمنة والأمكنة : ج ٢ ص ١٥٣ .

له : الحق بالابل ؛ فخرج اليها ، ووهب له جارية وفرساً وفلوها ؛ فلما اتى الابل ، طفق يبغي الناس فلا يجدهم ، و يأتي الطريق فلا يجد احداً عليها . و بينا هو كذلك اذ بصر بركب على الطريق ، فأتاهم ، فقالوا : يا فتى ، هل من قرى ؟؟ فقال حاتم : تسألون عن القرى وقد رأيتم الابل ؟؟ انزلوا . وكان الركب من الشعراء الثلاثة « عبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي خازم ، وزياد بن جابر المعروف بالنابغة » وهم فحول شعراء ذلك العصر ، وكان طريقهم الى (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ؛ فنحر لهم حاتم ثلاثة من الأبل ، فقال عبيد : انما اردنا اللبن وكانت تكفينا بكرة واحدة ان كنت لا بد متكلفاً لنا ؛ فقال حاتم : قد عرفت ، ولكني رأيت وجوهاً مختلفة والواناً متفرقة فعلمت ان البلدان غير واحدة ، فأحببت أن يبقى لي منكم في كل بلد ذكر ؛ فقالوا فيه شعراً يمتدحونه ويذكرون فضله ؛ فقال لهم حاتم : انما أردت أن أحسن اليكم فصار لكم علي فضل ، وعلي ان أضرب عراقيب ابلي ، أو تقوموا اليها فتقتسموها ، ففعلوا ، فأصاب الرجل منهم تسعة وثلاثون بعيراً ، ومضوا على سفرهم الى النعمان . . وسمع أبوه بما فعل ، فأتاه ، فقال : أين الأبل ؟؟ فقال : يا ابتي ، طوقتك طوق الحمامة مجد الدهر وكرما ، لا يزال رجل يحمل لنا بيت شعر ابداً بأبلك . فقال ابوه : اأبلي ؟؟ قال : نعم . قال : والله لا اسكن معك ابداً ؛ فخرج أبوه بأهله وترك حاتماً ، فقال حاتم :

واني لعف الفقر مشترك الغنى ‏ ‏ ‏ وتارك شكل لا يوافقه شكلي

الى آخر القصيدة (١) .

---

(١) الأمالي : ج ٣ ص ١٥٣ .

وكان سبب مقتل « ربيعة بن المكدم » هو ان نزاعاً وقع بين نفر من « بني سُلَيم بن منصور » وبين نفر من بني « فراس بن كنانة » فقتلت بنو فراس رجلين من بني سليم ، فخرج « بيشة بن حبيب السلمي » غازياً ، فلقي ظعناً من بني كنانة وفيهم ربيعة بن المكدم ، فنازلهم ربيعة وقتل عدداً منهم فطعنه بيشة بن حبيب طعنة شديدة ، فلحق ربيعة بالظعن يستدمي حتى اتى امه وهو يرتجز .. وقال لها : شدي على يدي عصابة ، فشدت عصابتها عليها وهي ترتجز ايضاً ، فكر على القوم ثانية يشتد عليهم وينزفه الدم حتى اثخن ؛ فلما علم انه هالك ، قال للظعن : حثوا ركابكن حتى ينتهين الى ادنى البيوت من الحي ، فإني هالك ، وسوف اقف دونكن لهم على العقبة ، فأعتمد على رمحي ، فلا يقدمون عليكن رهبة مني . ففعلن ذلك ، فنجون الى مأمنهن ؛ وبقي هو ميتاً على فرسه ، وفرسه لا تتحرك ، والقوم لا يقدمون عليه ؛ فقال بيشة بن حبيب : انه لمائل العنق وما اظنه الا قد مات ؛ فأمر رجلاً من خزاعة كان معه ، ان يرمي فرسه ، فرماها فقمصت وزالت ، ومال ربيعة عنها ميتاً (١) .

وكان سبب مقتل « زهير العبسي » ان ابنه « شاس بن زهير » وفد الى بعض الملوك ، فرجع ومعه حباء قد حبي به ، فمر بأبيات من بني عامر بن صعصعة وأبيات لبني غني على ماء لبني عامر ، فاغتسل ، فناداه « رياح بن الأمسك الغنوي » : استتر ويحك ، البيوت بين يديك ؛ فلم يحفل ، فرماه الغنوي بسهم فقتله ، فلحقه من كان مع شاس من بني عبس ، فانهزم ، ولكنهم ارهقوه فكر عليهم وقتل « حصيناً

(١) الأغاني : ج ١٤ ص ١٣٠ .

العبسي » وأخا حصين ، ثم نجا على وجهه حتى ادركه العطش ، فلجأ الى منزل عجوز من بني انسان بن جشم ، فقالت له العجوز : لا تبرح حتى يأتي اولادي فيأسروك ، فأخذ حجراً فشدخ به رأسها وهرب . ثم توالت بعد ذلك بين الطرفين حروب طاحنة قتل فيها خلق كثير . ثم التقى خالد بن جعفر بن كلاب وزهير بن جذيمة العبسي ، فقال خالد لزهير : اما آن لك أن تشتفي وتكف ؟ (يعني مما قتل بشاس) فأغلظ له زهير وحقره ، فتواعدا وتهددا وافترقا .. ثم التقيا بعد ذلك في حرب طاحنة فتعانقا ـ خالد وجذيمة ـ بالأيدي ، وتصارعا ، فجاء رجل من اصحاب خالد فقتل زهيراً وقطع رأسه (١) .

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل على رجل من الأنصار ، فصاح الرجل بغلاميه : يا سالم ويا يسار ! فقال النبي : « سلمت لنا الدار في يسر » (٢) .

وكان « عمرو بن معدي كرب » قد شهد فتح القادسية وفتح اليرموك وفتح نهاوند مع « النعمان بن مقرن » المزني ، فكتب عمر بن الخطاب الى النعمان بن مُقرن : ان في جندك رجلين « عمرو بن معدي كرب ، وطليحة بن خويلد الأسدي » فأحضرهما الناس وشاورهما في الحرب ولا توليهما عملاً والسلام .. فلما قدم كتاب عمر الى النعمان ، بعث اليهما فقال : ما عندك يا عمرو ؟؟ قال اروني كبش القوم فاعتنقه حتى يموت او اموت . وقال طليحة : اية ناحية شئتم فانا ادخل على القوم منها . فلما التقوا ، اتاهم طليحة من خلفهم ؛ واما عمرو فشد على كمي من القوم فقتله ؛ وقتل النعمان بن مقرن

---

(١) الأغاني : ج ١٠ ص ١٦ ـ نقلنا رواية الأصمعي هنا باختصار .
(٢) العقد الفريد : ج ١ ص ٢٢٦ .

يومئذ ، واخذ الراية حذيفة بن اليمان حتى فتح الله عليهم [١] .

ودخل خالد بن الوليد على عمر بن الخطاب ، وعلى خالد قميص حرير ، فقال له عمر : « ما هذا يا خالد ؟؟ » قال : وما بأسه يا أمير المومنين ؟ اليس قد لبسه عبد الرحمن بن عوف ؟؟ قال عمر : « وأنت مثل ابن عوف ؟ ولك من المال ما لابن عوف ؟؟ » ثم التفت الى جماعته وقال : « عزمت على من في البيت إلاّ أخذ كل واحد منهم طائفة منه مما يليه » فمزقوه حتى لم يبق على خالد منه شيء [٢] .

وذكر « بشر بن ارطاة » علياً بن ابي طالب ، فنال منه ، فضربه « زيد بن عمر بن الخطاب » - وكانت أمه ابنة علي بن ابي طالب - على رأسه بعصا فشجه ، فبلغ ذلك معاوية بن ابي سفيان ، فبعث الى زيد بن عمر فقال له : اتدري ما صنعت ؟؟ وثبت على بشر بن أرطاة وهو شيخ أهل الشام فضربت رأسه بعصاك !! لقد أتيت عظيماً . ثم بعث الى بشر ، فقال له : اتدري ما صنعت ؟؟ وثبت على ابن الفاروق وابن علي بن ابي طالب تسبه وسط الناس وتزدريه !! لقد أتيت عظيماً .. ثم بعث الى هذا بشيء والى هذا بشيء [٣] .

وحاصر « مسلمة بن عبد الملك » حصناً ، فندب الناس الى دخول نقب منه ، فما دخله أحد ، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ، ففتح الله عليهم ، فنادى مسلمة أين صاحب النقب ؟ فما جاءه أحد ؛ فنادى: اني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي ، فعزمت عليه إلاّ جاء . فجاء رجل ، فقال : استأذن لي على الأمير ، فقال له : أنت صاحب النقب ؟؟

---

(١) الأمالي : ج ٣ ص ١٤٦ .
(٢) نزهة الألباء : ج ١ ص ٧٦ .
(٣) عيون الأخبار : ج ١ ص ٢٠١ .

قال أنا أخبركم عنه ؛ فاتى الآذن الى مسلمة ، فأخبره عنه فأذن له ، فقال الرجل : ان صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً : الا تُسوّدوا اسمه في صحيفة الى الخليفـة ، ولا تأمروا له بشيء ، ولا تسـألوه ممن هو . قال مسلمة : فذاك له ؛ قال الرجل : أنا هو ، ثم خرج .. فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة الا قال : « اللهم اجعلني مع صاحب النقب » (١) .

وقال رجل من العرب : انهزمنا من « قطري بن الفجـاءة » - رئيس الخوارج - واصحابه ، فأدركني رجل على فرس ، فسمعت حساً منكراً خلفي ، فالتفت فاذا انا بقطري ، فيئست من الحياة ، فلما عرفني قال : اشدد عنانها (اي الفرس) واوجع خاصرتها قطع الله يدك . قال : ففعلت ما قال لي ونجوت منه (٢) .

ولما قتل مصعب بن الزبير خرجت زوجته سكينة بنت الحسين تريـد المدينة ، فأطاف بها أهل العراق وقالوا : احسن الله صحبتك يا بنت رسول الله ، فقالت : لا جزاكم الله عني خيراً ، ولا أخلف عليكم بخير من اهل بلد ، قتلتم ابي وجدي وعمي وزوجي .. ايتمتموني صغـيرة وارملتموني كبيرة ! (٣)

وكانت بنو أمية لا تبايـع لبني أمهات الأولاد ، فكان الناس يرون ان ذلك لاستهانة بهم ، ولم يكن لذلك ، ولكن لما كانوا يرون ان زوال ملـكهم على يد ابن أم ولد . فلما ولي يزيد بن عبـد الملك الملقب (بالناقص) ، ظن الناس أنه الذي يـذهب ملك بني أميـة على يده ، وكانت أمـه بنت يزدجرد بن كسرى ، فلم يلبث الا سبعة أشهر حتى

(١) عيون الأخبار : ج ١ ص ١٧٢ .
(٢) عيون الأخبار : ج ١ ص ١٧٣ .
(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ٣٢٣ .

مات ، ووثب مكانه مروان بن محمد ـ وأمه كردية ـ فكانت الرواية عليه .. ولم يكن لعبد الملك ابن اشد رأياً ولا اذكى عقلاً ولا اشجع قلباً ولا اسمح نفساً ولا أسخى كفاً من مسلمة بن عبد الملك ، وانما تركوه لهذا المعنى [1].

وكان « عبد الله بن عامر بن كريز » من فتيـــان قريش جوداً وحياءً وكرماً ، فدخل أعرابي البصرة فسأل عن دار ابن عامر ـ وكان والياً ـ فأرشد اليها فجاء حتى أناخ بفنائها ، فاشتغل عنه الحاجب والعبيد ، فبات القفر ، فلما اصبح ركب ناقته ، ووقف على الحاجب فأنشده بضعة ابيات يقول في اولها :

كأني ونضوي عند باب ابن عامر   من الجوع ذئبا قفرة هلعان

فسمع ابن عامر بالخـــبر فعاقب الحاجب ، وامر ان لا يغلق بابه ليلاً ولا نهـــاراً [2] .

وترك عقيل ابن ابي طالب اخاه عليـــاً وذهب الى معاوية ، فقال معاوية : يا اهل الشام ما ظنكم برجل لم يصلح لأخيه ؟ فقال عقيل : يا اهل الشام ان اخي خير لنفسه وشر لي ، وان معاوية شر لنفسه وخير لي .

وقال معاوية يوماً : يا اهل الشام ان عم هذا ـ واشار الى عقيل ـ ابو لهب ، فقال عقيل : يا اهل الشام : ان عمة هذا ـ وأشار الى معاوية ـ حمالة الحطب . وكانت ام جميـل امرأة ابي لهب ، هي اخت ابي سفيان ابن حرب [3] .

وكان عبد الله بن جعفر قد اسلف الزبير بن العوام الف الف درهم ، فلما توفي الزبير قال ابنه لعبد الله بن جعفر : اني وجدت في كتب ابي

---

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ٢٩٨ .
(٢) الأمالي : ج ١ ص ٢٧٨ .
(٣) عيون الأخبار : ج ٢ ص ١٩٧ .

ان له عليك الف الف درهم ، فقال ابن جعفر : هو صادق فاقبضها ان شئت . ثم لقيه بعد ذلك ، فقال : يا ابن جعفر ، انما وهمت ، فالمال لك عليه ، قال ابن جعفر : فهو له . قال ابن الزبير : لا اريد ذاك ، قال : فاختر ان شئت فهو له ، وان كرهت ذلك فلك نظره ما شئت ، فان لم ترد ذلك فبعني من مـــاله ما شئت . قال ابن الزبير : ابيعك ولكن اقوِّم الأموال ، فقومها ثم اتاه ، فقال : احب ان لا يحضرني وإياك احـد . قال ابن جعفر : يحضرني واياك الحسن والحسين فيشهدان لك ، قال ما احب ان يحضرنا احد . قال ابن جعفر : انطلق ؛ فمضى معه ، فأعطاه ابن الزبير خراباً وشيئاً لا عمارة له ، وقومه عليه بدين ابيه ؛ حتى اذا فرغ قال ابن جعفر لغلامه : ألق لي في هـــذا الموضع مصلى (اي سجادة للصلاة) ، فالقى له في اغلظ موضع من تلك المواضع مصلى ، فصلى ركعتين وسجد فأطال السجود يدعو ؛ فلما قضى ما أراد من الدعاء ، قال لغلامه : احفر في موضع سجودي ، فحفر ، فاذا عين ماء قد انبطها ، فقال ابن الزبير : أقلني . قال ابن جعفر : اما دعائي فأجابه الله تبارك وتعالى اياي ، فلا اقيلك . فصار ما اخذ منه اعمر مما في يدي ابن الزبير [1] .

واشترى عمرو بن العاص جملاً باربعماية دينار ، فوصفه فأطال وصفه ، فدفعه الى الرائض ، فمر بعبد الله بن جعفر فقال : اني لأشتهي من كبد هذا الجمل وسنامه ، وأرسل الى الرجل من يدعوه اليه ، فأتى ؛ فأمر ابن جعفر خبازه ان ينحر الجمل دون علم رائضه . فلما دخل الرائض نحر الخباز الجمل ، فأكل عبد الله من كبده وسنامـه مع الرائض ، فقال الرائض : ما اكلت طعاماً قط أطيب من طعامك هذا . قال ابن جعفر : هو الجمل

---

(١) مخطو المنتقى ٢٣ .

الذي كنت عليه ، فقال الرائض : انا لله . قال : ما لك ؟ قال : اخذ هذا الجمل بأربعماية دينار . قال عبد الله : اعطوه اربعماية دينار [١] .

وقال ابن عون : رأيت قاتل الزبير بن العوام ، وقد حمل عليه الزبير ، فقال : انشدك الله ؛ ثم حمل عليه الزبير ثانية ، فقال : انشدك الله ؛ ثم حمل عليه الزبير مرة أخرى ، فقال : أنشدك الله . فلما انصرف عنه حمل على الزبير وضربه ، فقال الزبير : قاتله الله ، يُذَكّر بالله وينساه [٢] .

ولما أُتي عبد الملك برأس مصعب بن الزبير، نظر اليه ملياً ، ثم قال : متى تلد قريش مثلك ؟؟ ثم قال : هذا سيد شباب قريش . . وقيل لعبد الملك : اكان مصعب يشرب الطلاء ؟؟ فقال : لو علم مصعب ان الماء يفسد مروءته لما شربه . . ولما قتل مصعب دخل الناس على عبد الملك ابن مروان يهنئونه ، ودخل معهم شاعر فأنشده .

الله اعطاك التي لا فوقها
وقد اراد الملحدون عوقها
عنك ويأبى الله الا سوقها
اليك حتى قلدوك طوقها

فأمر له بعشرة آلاف درهم . . وقالوا : كان مصعب اجل الناس واسخى الناس واشجع الناس . وكان تحته عقيلتا قريش « عائشة بنت طلحة » و « سكينة بنت الحسين » [٣] .

---

(١) المنتقى ٢٤ .
(٢) الامالي :ج ٣ ص ١١٢.
(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ٣٢٣ .

واخذ « السليك بن السلكة » - العداء الجاهلي - رجلاً من بني كنانة بن تيم يدعى نعمان بن عقبان ، ثم اطلقه ؛ ثم قدم بعد ذلك على كنانة وهو شيخ كبير : فأتاه نعمان هذا بابنيه « الحكم وعثمان » وهما سيدا بني كنانة ، ونائلة ابنته ، فقال له : هذان وهذه لك ، وما املك غيرهم . فقال السليك : قد شكرت لك ورددتهم عليك ، فجمعت له بنو كنانة ابلاً عظيمة فدفعوها اليه ؛ ثم قالوا له : ان رأيت ان ترينا بعض ما بقي من عدوك ، قال : نعم ، وابغوني اربعين شاباً ، وابغوني درعاً ثقيلة ، فاتوه بذلك ، فلبس الدرع ، وقال للشبان : الحقوا بي ان شئتم ؛ وعدا ، فلاث العدو لوثاً ، وعدوا جنبه فلم يلحقوه الا قليلاً ، ثم غاب عنهم، وكر حتى عاد الى الحي هو وحده والدرع في عنقه تضرب كأنها خرقة من شدة احضاره [1] .

واغار « تأبط شراً » - العداء الجاهلي المشهور - ، ومعه ابن براق الفهمي وبعض العدائين ، على قبيلة « بجيلة » ، فاطردوا لهم نعماً ؛ ونذرت بهم بجيلة فخرجت في آثارهم ، ومضوا هاربين في جبال السراة ، وعارضتهم بجيلة في السهل فسبقوهم الى ماء « الوهط » في الطائف ، فامهلتهم بجيلة حتى وردوا الماء وشربوا وناموا ، ثم شدوا عليهم ، فأخذوا تأبط شراً ؛ فقال لهم : ان ابن براق دلاني في هذا ، وهو لا يقدر على العدو لعقر في رجله ، فان تبعتموه اخذتموه ، فكتفوا تأبط شراً ، ومضوا في اثر ابن براق ، فلما بعدوا عنه عدا في كتافه ، ففاتهم . . ورجعوا [2] .

---

(١) : الاغاني : ج١٨ ص ١٣٧.
(٢) الأغاني : ج ١٨ ص ٢١٢ .

روايته لسير الشعراء

يكاد الأصمعي لا يترك شاعراً قديماً عرف في الجاهلية او الاسلام الا روى من اخبــاره ، وعن اخلاقه وشؤونه الخاصة شيئاً ، مما يدل على اطلاعه الواسع في اخبار هؤلاء الذين خلفوا لنا هذا التراث الضخم . وقد جاء بعض هذه الروايات قصيراً مقتضباً ، وبعضه واسعاً مفصلاً في صور واضحة .. يقول :

اول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر ، هم : « المهلهل ، وذؤيب بن كعب التميمي ، وصخرة الكناني ، والأضبط بن قريع » . وكان بين هؤلاء وبين الاسلام اربعماية سنة . وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير (٢) .

وجاءت امرأة الى الشاعر « الأعشى » فقالت : ان لي بنات قد كسدن عليّ ، فشبب بواحدة منهن لعلها ان تنفق ؛ فشبب بواحدة منهن ، فما شعر الأعشى الا بجزور قد بعثت به اليه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : زوجت فلانة ؛ فشبب بالاخرى ، فأتاه مثل ذلك ، فسأل عنها ، فقيل : زوجت ؛ فما زال يشبب بواحدة فواحدة منهن حتى زوجن جميعاً (٣) .

وكان « اوس بن حَجَرْ » غزلاً مغرماً ، فخرج في سفر ؛ حتى اذا

---

(١) الاغاني : ج١٨ ص ٢١٢.
(٢) المزهر : ج ١ ص ٢٩٦ .
(٣) الاغاني : ج ٨ ص ٨٢.

كان بأرض بني اسد وهو يسير ظلاماً ، جالت به ناقته فصرعته فاندقت فخذاه ، فبات مكانه ؛ حتى اذا اصبح ، غدا جواري الحي يجتنين الكمأة وغيرها من نبات الأرض ، والناس في ربيع ، فبصرن بناقته تجول وقد علق زمامها في شجرة ، وأبصرنه ملقى ، ففزعن فهربن . فدعا بجارية منهن ، فقال لها : من انت ؟؟ قالت : « حليمة بنت فضالة بن كَلَدَة » فأعطاها حجراً ، وقال لها : اذهبي الى ابيك فقولي له : « ابن هذا يقرئك السلام » . فعادت وأخبرت اباها بذلك ، فقال : يا بنية ، لقد اتيت اباك بمدح طويل او هجاء طويل ؛ ثم احتمل هو وأهله حتى بنى عليه بيته حيث صرع ، وقال : والله لا اتحول ابداً حتى تبرأ ؛ وجعلت حليمة تقوم عليه حتى استقل .. فمدحه اوس بن حجر ، ونوه بفضل ابنته حليمة بشعر جميل (وذكر الأصمعي الشعر) (١) .

وقال ابن اسلم : نظرت الى امرأة مستترة بثوب ، وهي تطوف بالبيت ، فنظر اليها عمر بن ابي ربيعة من وراء الثوب ، ثم قال :

ألما بذات الخال واستطلعا لنا   على العهد باق ودها ام تصرما ؟؟

فقلت له : امرأة مسلمة غافلة محرمة ، قد سيرت فيها شعراً وهي لا تعلم ؟ قال : اني قد انشدت من الشعر ما بلغك . ورب هذا البيت ما حللت ازاري على فرج حرام قط (٢) .

وقال الفرزدق : قد علم الناس اني فحل الشعراء ، وربما اتت عليّ ساعة لقلع ضرس من اضراسي أهون علي من قول بيت شعر (٣) .

وسئل جرير : اي الثلاثة اشعر ، انت ام الفرزدق ام الأخطل ؟؟

---

(١) الاغاني : ج١٠ ص ٨.

(٢) المنتقى : ١٧.

(٣) الأغاني : ج ١٩ ص ٣٦ .

قال : اما الفرزدق فيتكلف مني ما لا يطيقه ، وأما الأخطل فأشدنا اجتراءً وأرمانا للغرض ، وأما انا فمدينة الشعر (١) .

وادرك جرير الأخطل وهو شيخ قد تحطم . وكان جرير يقول : ادركته وله ناب واحد ، ولو ادركته وله نابان لأكلني (٢) .

وجلس جرير يملي على رجل قوله :

ودع امامة حان منك رحيل ان الوداع لمن تحب قليل

فمروا عليه بجنازة ، فقطع الانشاد ، وجعل يبكي ، ثم قال : شيبتني هذه الجنائز ، فقيل له ؛ فعلام تقذف المحصنات منذ كذا وكذا ؟؟ فقال : انهم يبدونني ثم لا اعفو (٣) .

وكان ينهش جريراً ثلاثة وأربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحداً واحداً ، ومنهم من كان ينفخه فيرمي به ؛ وثبت له الفرزدق والأخطل (٤) .

وعن ابي الوجيه قال : دخلت على « ذي الرمة » وهو يجود بنفسه فقلت له : كيف تجدك ؟ قال : « اجدني والله اجد ما لا اجد ايام ازعم اني اجد ما لم اجد » . وكانت منيته هذه بالجدري ، وفي ذلك يقول :

ألم يأتها اني تلبست بعدها مُفَوَّفَةً صواغها غير اخرقا

وكان ذو الرمة ينشد الشعر فاذا فرغ قال يخاطب لسانه : والله لأكسعنك بشيء ليس في حسابك « سبحان الله والحمد لله ولا اله الاّ الله

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٦٨ .
(٢) الأغاني : ج ٧ ص ١٧٢ .
(٣) الأغاني : ج ٧ ص ٥٩ .
(٤) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٤٩ .

والله اكبر » (١) .

وكان « عمران بن حطان » ـ الخارجي ـ من اهل السنة ، فقدم عليه غلام من عمان كأنه نصل ، فقلبه عن مذهبه في مجلس واحد (٢) .

كان « وضاح اليمن » يهوى امرأة من كندة يقال لها « روضة » فلما اشتهر امره معها خطبها فلم يزوجها ، وزوجت غيره ، فمكث مدة طويلة ، ثم اتاه رجل من بلدها فأسر اليه شيئاً فبكى ، فقال له اصحابه : ما لك تبكي وما خبرك ؟ فقال : اخبرني هذا ان روضة قد جذمت ، وأنه رآها قد القيت مع المجذومين . ويقول الأصمعي : ولم نجد لهما بعد ذلك خبراً يرويه اهل العلم الا لمعاً يسيرة وأشياء تدل على ذلك من شعره ؛ فأما خبر متصل فلم اجده الا في كتاب مصنوع غث الحديث والشعر لا يذكر مثله .. وأصابها الجذام بعد ذلك فانقطع ما بينهما ؛ ثم شبب بأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوج الوليد بن عبد الملك فقتله الوليد لذلك (٣) .

ودخل « نصيب » الشاعر على عبد الملك بن مروان ، فعاتبه ولامه على قلة زيارته له ، واتيانه اياه فقال : يا أمير المؤمنين ، انا عبد اسود ولست من معاشري الملوك ، فدعاه الى النبيذ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، انا اسود البشرة قبيح المنظره ، وانما وصلت الى مجلس امير المؤمنين بعقلي ، فان رأى امير المؤمنين ان لا يدخل عليه ما يزيله ، فعل ، فأعفاه ووصله (٤) .

وقدم « لبيد بن ربيعة » ـ صاحب احدى المعلقات في الجاهلية ـ على

---

(١) الأغاني : ج ١٦ ص ١٢٨ .
(٢) الأغاني : ج ١٦ ص ١٥٤ .
(٣) الأغاني : ج ٦ ص ٣٤ .
(٤) الأمالي : ج ٣ ص ١٢٧ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد بني كلاب بعد وفاة اخيه « أربد » و « عامر بن الطفيل » فاسلم وهاجر وحسن اسلامه ، ونزل الكوفة ايام عمر بن الخطاب ، فاقام بها ، ومات بها هناك في آخر خلافة معاوية ، فكان عمره مائة وخمساً وأربعين سنة ، منها تسعون سنة في الجاهلية ، وبقيتها في الاسلام (١) .

وكان عند « مُرَّة بن ربيعة » سيف جيد ، فحسده النابغة الذبياني ، فدل على السيف « النعمان بن المنذر » فأخذه من مرة ، فحقد مُرَّة على النابغة ، وارصد له بشر حتى تمكن منه ، فوقع فيه عند النعمان . فهرب النابغة والتحق بآل جفنة في الشام ، وارسل الى النعمان قصائده المشهورة التي يعتذر اليه بها ، ويحلف له ما فرط منه بذنب . واشتد ذلك على النعمان ابن المنذر ، وعرف ان الذي بلغه كذب ، فبعث اليه يقول : « انك لم تعتذر من سخطة ان كانت بلغتك ، ولكننا تغيرنا لك من شيء مما كنا لك عليه ؛ ولقد كان في قومك ممنع وتحصين ، فتركته ، ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدي ، وبيني وبينهم ما قد علمت » (٢) .

وكان الشاعر « راعي الابل » يقضي للفرزدق على جرير ويفضله ؛ وكان راعي الابل هذا قد ضخم امره وصار من شعراء الناس ؛ فلما اكثر من ذلك ، خرج جرير الى رجال من قومه وقال لهم : هلا تعجبون لهذا الرجل الذي يقضي للفرزدق علي وهو يهجو قومه وانا امدحهم ؟؟ ثم خرج جرير ذات يوم يمشي ولم يركب دابته قاصداً مقابلة الراعي ؛ وكان له مع الفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد في البصرة يجلسون فيها .. قال

---

(١) الأغاني : ج ١٤ ص ١٣٠ .

(٢) خزانة الأدب : ج ٢ ص ٣٩٣ .

جرير : فخرجت اتعرض له لألقاه من حيال ، حيث كنت اراه يمر اذا انصرف من مجلسه ، وما يسرني ان يعلم احد بي . حتى اذا هو قد مر على بغلة له ، وابنه « جندل » يسير وراءه على مهر له ؛ فاستقبلته وقلت له : مرحباً بك يا ابا جندل ، وضربت بشمالي على معرفة بغلته ؛ ثم قلت : يا أبا جندل ، ان قولك يُستمع ، وانك تفضل الفرزدق علي تفضيلاً قبيحاً ، وانا أمدح قومك وهو يهجوهم ، وهو ابن عمي ، ويكفيك من ذاك اذا ذُكرنا ان تقول : كلاهما شاعر كريم ؛ فلا تحتمل مني ولا منه لائمة. قال جرير : فلم يرد علي بذلك شيئاً ، حتى لحقه ابنه جندل ، فرفع عصاً كرمانية فضرب بها عجز بغلة ابيه ثم قال له : لا اراك واقفاً على كلب من بني كليب ، كأنك تخشى منه شراً او ترجو منه خيرا ؟! وضرب البغلة ضربة اخرى فرمحتني رمحة وقعت منها قلنسوتي ، فاخذتها فمسحتها ، ثم اعدتها على رأسي ، ثم قلت :

اجندل ما تقول بنو نمير اذا ما الأير في است ابيك غابا ؟

فسمعت الراعي يقول لابنه : اما والله لقد طرحت قلنسوته طرحة مشئومة .. قال جرير : ولا والله ما القلنسوة بأغيظ امره الي لو كان عاج علي - اي اهتم بكلامي - . فانصرف جرير غضباناً ، حتى اذا صلى العشاء بمنزله - في عِلِّيَّةٍ له - قال : ارفعوا لي باطية من نبيذ ، واسرجوا لي - اي اضيئوا لي السراج ، ففعلوا - ، فجعل يهمهم ، فسمعت صوته عجوز في الدار ، فاطلعت في الدرجة حتى نظرت اليه ، فاذا هو يحبو على الفراش عريانا ، لما هو فيه ؛ فانحدرت فقالت : ضيفكم مجنون ، رأيت منه كذا وكذا ، فقالوا لها : نحن اعلم به وبما يمارس . فما زال كذلك حتى كان وقت السحر ، ثم اذا هو يكبر ، وقد قالها قصيدة هجاء - ثمانين بيتاً في بني نمير (وهي القصيدة المشهورة) :

اقلي اللوم ـ عاذل ـ والعتابا وقولي ان اصبت لقد اصابا

فلما ختمها بقوله :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

كبر الله ، ثم قال : اخزيته ورب الكعبة . ثم اصبح ، حتى اذا عرف ان الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمربد ، إدَّهَن وكف رأسه ـ وكان حسن الشعر ـ ثم قال : يا غلام اسرج لي حصاناً . ثم قصد مجلس راعي الابل والفرزدق وجماعتهم . حتى اذا كان موقع السلام لم يسلم ، وقال : يا غلام ، قل لعبيد ـ اي راعي الابل ـ ابعثك نسوتك تكسبهن المال بالعراق ؟؟ اما والذي نفس جرير بيده لترجعن اليهن بمير يسوؤهن ولا يسرهن ؛ ثم اندفع في قصيدته فأنشدها . قال : فنكس الفرزدق وراعي الابل ، وازم القوم ، حتى اذا فرغ منها جرير سار وتركهم ؛ فركب راعي الابل بغلته بشرّ وعرّ ، وخلى المجلس ، حتى اتى راعي الابل الى المنزل الذي ينزله ، فقال لأصحابه : ركابكم .. ركابكم ، فليس لكم ها هنا مقام ، فضحكم والله جرير . فقال له بعض القوم : ذاك شؤمك وشؤم ابنك .

قال الأصمعي : فما كان الا ترحلهم . ويحلف بالله راعى الابل ويقول : « انا وجدنا في قول جرير (فغض الطرف انك من نمير) ما لم يجده انسي قط ؛ وان لجرير اشياعاً من الجن تعينه على الشعر » .. ومنذ ذلك اليوم صار بنو نمير يتشاءمون براعي الابل ، ويشتمونه وابنه ، وهم يتشاءمون به حتى الآن [1] ..

---

(۱) الأغاني : ج ۷ ص ٤٩ – قيل ان الرجل من بني نمير صار بعد هذه القصيدة اذا سئل عن نسبه لم يقل بأنه من نمير .

وكان للمتوكل بن عبد الله الكناني امرأة حسناء تكنى « ام بكر » فأقعدت - اي اصابها شلل في رجليها - فسألته الطلاق ، فقال : ليس هذا حين طلاق ؛ فأبت عليه ، فطلقها ، ثم انها برئت بعد الطلاق ، فقال في ذلك - وهي قصيدة من غرر الشعر الغزل - :

طربت وشاقني يا أُم بكر ... دعـاء حمامة تدعو حماما
فبت وبات هَمِّي لي نجياً ... اعزي عنك قلباً مستهاما
اذا ذكرت لقلبكَ ام بكر ... يبيت كأنما اغتبق المداما
ابى قلبي فما يهوى سواها ... وان كانت مودتها غراما
ينام الليل كل خليٍّ هَمٍّ ... ويأبي العين منحدراً سجاما
على حين ارعويت وكان رأسي ... كأن على مفارقه ثغاما
سعى الواشون حتى ازعجوها ... ورث الحبل فانجذم انجذاما
فلست بزائل ما دمت حياً ... مسراً من تذكرها هياما
ترجيها وقد شحطت نواها ... ومَنَّتْكَ المنى عاماً فعاما
خدلَّجة لها كفل وثير ... ينوء بها اذا قامت قياما
مُخَصَّرة ترى في الكشح منها ... على تثقيل اسفلها انهضاما
اذا ابتسمت تلألأ ضوء برق ... تهلل في الدجنَّة ثم داما
وان قامت تأمل رائياها ... غمامة موسم ولجت غماما
وان خطرت تقول دبيب شول ... تَعَرَّج ساعة ثم استقاما
فلو اشكو الذي اشكو اليها ... الى حجر لراجعني الكلاما
احب دنوها وتحب نأيي ... وتعتام التنائي لي اعتياما
تساقط انفساً نفسي عليها ... اذا شحطت وتغتم اغتماما
غشيت لها منازل مقفرات ... عفت الا الأياصر والثماما

صليني واعلمي اني كريم　　وان حلاوتي خلطت غراما
واني ذو مُجامحـــة صليب　　خلقت لمن يماسكني لجامـــا
فلا وأبيكِ لا أنساك حـتى　　تجاوب هامتي في القبر هامـا

ومر « دريد بن الصِّمَّهْ » بالخنساء بنت « عمرو بن الشريد » وهي تهنأ بعيراً لها ، وقد تبذلت ، حتى فرغت منه ؛ ثم نضت ثيابها عنها ، فاغتسلت ، ودريد يراها وهي لا تشعر به ، فاعجبته ، فانصرف الى رحله وأنشأ يقول :

حيوا « تماضر » وار بعوا صحبي　　وقفوا فان وقوفــكم حسبي
« أخناس » قد هام الفوآد بكم　　واصابــه تَبَلٌ مـن الحب
ما إن رأيت ولا سمعت بــه　　كاليم طالي أنيـق جرب
متبذلاً تبدو محـاسنه　　يضع الهنــاء مواضع النقب
فسليهم عني خنــاس اذا　　عض الجميـع الخطب ما خطبي ؟

فلما اصبح غدا على أبيها فخطبها اليه ؛ فقال له ابوها : مرحباً بك يا أبا قُرَّه انك للكريم لا يُطعن في حسبه ، والسيد لا يرد عن حاجته ، والفحل لا يقرع أنفه ؛ ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها ، وانا ذاكرك لها وهي فاعلة . ثم دخل اليها ، وقال لها : يا خنساء اتاك فارس « هوازن » وسيد بني جُشَمْ دريد بن الصمه يخطبك وهو ممن تعلمين - ودريد يسمع قولهما - ، فقالت : با ابتي ، أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح ، وناكحة شيخ بني جشم ، هامة اليوم أو غد ؟؟ فخرج اليه ابوها فقال : يا أبا قُرَّه قد امتنعت ، ولعلها ان تجيب فيما بعد ، قال : قد سمعت قولكما .. وانصرف (١) .

---

(١) الأغاني : ج ٩ ص ١٣ .

الأصمعي بعد موتـــه

كان تراث الأصمعي الضخم - كما قلنـا - عاملاً رئيسياً مـن عوامل خلوده . وكان انتاجه وآثاره التي امعنت في كل لون مـن الوان الجـد والهزل وما بينهما قد جعلت دائرة الأخذ عنه واسعة سهلة ، حتى كاد لايخـلو كتاب في اللغة أو الأدب والأخبار ، مما الف بعده ، الا كان ضيفاً على هذا التراث المجيد .. وليس ثمة واسطة للخلود اوسع نطاقاً من هذا .

والذي زاد في هذا النطاق سعةً ايضاً هو ما أحاط بشهرته بعد موته من تضخم صنعته اقلام الأدباء وألسنة القصاصين والمتظرفين والندمـاء ، حتى كادت تصبح شخصيته خيالية بين الناس .. والأكثر في هـذا يعود الى ذلك النجاح الذي صادفته نوادره وطرائفـه وملحه في حياته . فلما مات وترك تلك الآثار الظريفة المسلية مبثوثـة في كتبه ، وفي الواح طلابـه ، وصدور مجالسيه ، وملازمي حلقاته ، وكل من صادفه وحادثه ، الى آخر ذلك ، صار الناس ينشدون هذه الآثار ويبحثون عنها باعتبارها ، هي وأمثالها ، الوسيلة الوحيدة للتسليـة وطرد الملل والسأم في العصور المتعاقبـة ، يوم لم يكن هنالك مسارح شعبية ولا قصص مشوقة ولا ما يشبه ذلك .

فكان طبيعياً ان يتصرف بها الأدباء والمتندرون والكتاب حسب اهوائهم ومذاهبهم ؛ فلم يسلم بعضها من التعليـق والحواشي والزيادات . فكان بعض تلك الزيادات موفقاً مقبولاً ؛ وجاء البعض الآخر تافهاً مشوهـاً لديباجة الأصل ، او مسيئاً للحقيقة فيها .. ومثالاً على ذلك ، انا قرأنا طرفة من طرائفه في كتاب « البخلاء » للجاحظ بالنص التالي : « قال الأصمعي : كان للمغيرة بن عبد الله الثقفي - والي الكوفة - جـدي

يوضع على مائدته عند الطعام ، ولم يكن أحد يمسه ، اذ كان هو لا يمسه . فأقدم عليه أعرابي يوماً ، ولم يـكن يعرف سيرة اصحابنا فيه ، فلم يرض بأكل لحمه بل تعرق عظمه ؛ فقال له المغيرة : يا هذا ، تطالب عظم هذا البائس بذحل ، فهل نطحتك امه ؟؟ » [1] . فلما تناقل الأدباء هذه الطرفة النادرة تصرفوا بها وأضافوا عليها ؛ فكان شكلها النهائي كما رواها صاحب كتاب « المستطرف » قال : « .. فقال له المغيرة : يا هذا ، انك تطالب عظم هذا المسكين بذحل كأن أمه نطحتك !! فأجابه الأعرابي في الحال : وأنت تدافع عنه كأن أمه ارضعتك » [2] ، وراح الأدباء بعد ذلك يتناقلونها بالشكل الذي صارت اليه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد في التصرف والزيادة في نوادره ؛ بل راح بعض الأدباء – على مر الأجيال – يصنعون النوادر للناس وينسبونها للأصمعي ليضفوا على انتاجهم قيماً ادبية تروج برواج هـذا الاسم . وربما ذهبوا الى ابعد من ذلك ، فادعوا بأن الأصمعي رواها في مجلس هارون الرشيد ؛ وقد تكون تلك النوادر المنتحلة تافهة ، او على جانب من قلة الذوق او المجون ، فيساء بهذا الى سمعة الأصمعي والرشيد في آن واحد .. وهكذا حمل على هذا الرجل مجموعة كبيرة من الطرائف والنوادر لم يكن قالها ولا سمع بها ، وفيها الجيد الموفق ، وفيها الركيك الفاشل ، أوالبذيء الممجوج ؛ وفي بعضها ما كان متطاولاً على الدين او مخالفاً للواقع التاريخي ،مما يبرأ منه الأصمعي وتأباه سيرته .. ولكن هذا ، وان اساء الى سمعته وشوه الحقيقة في سيرته ، اضاف شيئاً آخر الى ما احتوته آثاره من عوامل البقاء والخلود في العصور المتعاقبة

---

(١) البخلاء : ١٢٥

(٢) المستطرف: ج ١ ص ١٧٣ .

وقل كذلك عن آثاره ورواياته في الأخبار ؛ وقد ذكرنا بأنه روى الكثير من اخبار العرب الأقدمين ، وقص علينا ايام الجاهليين وحروبهم ومنافراتهم وأحلافهم ، فبقيت رواياته تلك تتردد بين الناس كما هي ، ثم اضيف عليها من قبل رواة الأخبار المتأخرين ، ثم نسبت اليه اخبار لم يكن رواها عن هؤلاء القوم ؛ وكانت الغاية من حملها عليه اعطاءها القيمة التاريخية ، واضفاء شيء عليها من صفة الصدق والتمحيص التي عرف بها الأصمعي .

قصة « عنتر » ، وغيرها

وفي القرن الرابع الهجري ، بدأ العرب يؤلفون القصص عن مناقب عرب الجاهلية وحالاتهم الاجتماعية وما كان فيها من شجاعة وبطولات ووفاء وحماية للجار والأخذ بالثأر وغيرها ، معتمدين في ذلك على الروايات المبعثرة التي جاء بها رواة الأخبار في عصر الأصمعي وما بعده . فكانوا يجمعون تلك الروايات المتقطعة المقرونة بالأشعار والخطب والكلام البليغ ، ويربطونها ببعضها حتى اصبحت قصصاً قصيرة ، ثم جمعت في شكل ملاحم وروايات طويلة في اسلوب شيق يعجب السامع او القارىء الاستمرار في سماعه لها او قراءته اياها كلها .. وكان من اكبر هذه القصص والملاحم وأروعها اسلوباً قصة « عنتر بن شداد » التي نسبها البعض الى الأصمعي وان لم تكن من صنعه .

كان الأصمعي قد روى الشيء الكثير من اخبار بني عبس وأبطالهم ؛ وقيل انه روى معظم شعر عنترة بن شداد الذي قاله في المغازي والحروب ، حتى اصبح اسم الأصمعي مقروناً بأشعار هذا البطل العبسي وأخبار غزواته. (١) وكان قواد جيوش المسلمين يأمرون بقراءة قصص الأبطال على جنودهم

(١) الأغاني : ج ٣ ص ١٨٩ – يقول الأصمعي : ذهب عنترة بعامة ذكر الحرب .

ورواية اشعارهم المليئـــة بالمغامرات والحروب ، لكي يذكوا في نفوس هؤلاء النخوة والاقـدام . فكانت اشعار عنترة في مقدمـة القصائد الحماسية التي تتلى على هؤلاء الجنـــود مع ذكر مناسباتها وشيء من الاضافة عليها ؛ فبدأت اخبار عنترة تتسع شيئاً فشيئاً ، ثم صارت قصصاً صغيرة مقطعـة لا تجمعها جامعـة ، ومعظمها كان ينسب في الرواية الى الأصمعي ، والقسم الآخر الى غيره من الرواة .

وفي اواخر القرن الرابع للهجرة ، في زمن الخليفـة الفاطمي « العزيز بالله » جمعت هذه الأخبار والقصص في رواية واحدة متسلسلة سميت « قصة عنتر » . وقد جاء في سبب جمعها وتدوينها ان رجلاً اسمه الشيخ « يوسف ابن اسماعيل » كان يتصل بباب العزيز بالله الفاطمي . فاتفق ان حدثت ريبة في دار العزيز ، لهجت ألسن الناس بها في المجالس والأسواق ؛ فساءه ذلك ، وأشار الى الشيخ يوسف المذكور ان يطرف الناس بما عساه ان يشغلهم عن هذا الحديث . وكان الشيخ يوسف واسع الرواية في اخبـار العرب ، كثير النوادر والأحاديث ؛ وكان قد اخذ روايات شـتى عن الأصمعي وأبي عبيدة ونجـد بن هشام وجهينة الأخبـار وغيرهم من الرواة . فأخـذ يكتب قصـة عنترة ويوزعها في الناس ، فأعجبوا بها وانشغـلوا عن سواها ؛ وكان من تلطف هذا المؤلف انه قسمها الى اثنين وسبعين كتاباً ، والتزم في آخر كل كتاب ان يقطع الكلام عنـد معظم الأمر الذي يشتاق القارىء والسامع الى الوقوف عند تمامه ، فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه ، فاذا وقف عليه انتهى به مثلما انتهى في الأول ، وهكذا الى نهاية القصة . وقد اثبت في هـذه الكتب ما ورد من اشـعار العرب المذكورين فيها ، ولكن تداول الناسخين افسد روايتها .

ولما كان الكثير من روايات هذه القصة منسوبة الى الأصمعي ، وكان الأصمعي من اشهر من عرف في الروايات عند الأدباء والمتأدبين ، حسبه اكثر الناس انه هو كاتب هذه القصة او راويها كلها ؛ فزاد هذا في شهرته وطغى اسمه علي غيره من الرواة ممن جاء بعده وأصبحت شهرته بهذه القصة شعبية عامة ، وتحدث باسمه الناس من سائر الطبقات المختلفة .

ثم انتشر فن القصة بعد ذلك وكثرت القصص وتنوعت ، فصار الناس ينسبون ـ خطأ ـ جل الأخبار العربية فيها للأصمعي . وزاد في هذا ان بعض مؤلفي هذه القصص انفسهم ينسبون الأخبار التي يصوغونها او يقتبسونها في مؤلفاتهم الى كبار الرواة ، وفي مقدمتهم الأصمعي ، مستندين على رواياتهم لأشعار العرب الأقدمين . وقد ظهر في العصور المتأخرة قصص متعددة منها ما كان بين الرواية التاريخية الصحيحة و بين المصنوع الملفق ، ومنها ما هو مترجم واضيف عليه ، ومنها ما كان هزيلاً لا قيمة علمية له .

ومن اشهر القصص العربية التي ورد فيها اسم الأصمعي واخذ بعض أخبارها منه :

« كتاب الجمهرة » : الفه اللغوي الأخباري « عمر بن شَبَّةْ » (١) احد طلاب الأصمعي ، وقد أخذ عنه الكثير من أخبار هذا الكتاب ؛ وهو يشتمل على حوادث عديدة اكثرها وقع بين بني ربيعة وخصومهم . واخبار هذا الكتاب وسط بين التاريخ والقصة ، وبطلها الأشهر « البراق » وهو شاعر قديم من ربيعة من اقرباء المهلهل وكليب . وقد توسع هذا المؤلَّف ولكنه بقي اقرب الى الحقيقة من قصة عنتر .

« قصة بكر وتغلب » وفيها خبر كليب وجساس في حرب البسوس .

---

(١) توفي عمر بن شبه عام ٢٦٢ هجري .

والقصة فيه أقرب الى التاريخ منها الى الرواية . وقد زاد فيها المؤلف من عنده تفاصيل خيالية .

وقصص اخرى امثال « حرب شيبان مع كسرى » و « قصة ابي زيد الهلالي » و « جميل بثينة » وغيرها ؛ وفي كل منها نجد ذكر الأصمعي مع غيره من رواة الأخبار والأدب في العصر الأول العباسي .

من هذا كله ومما لدينا من أخبار اخرى نجد الأصمعي سعيد الحظ موفقاً في حسن سمعته اثناء حياته ، فلما توفي ، وخفت عنه غوائل خصومه ، تكشف فضله عن ذي قبل ، وصار العالم والمتعلم يذكره بكل اجلال واحترام ؛ وربما تباهى البعض منهم بأنه كان قد جالسه او لازمه او ناظره ؛ وعدوه حجة في آرائه ورواياته ، وربما جعلوا آراءه تلك حكماً بينهم اذا اختلفوا في مسألة من المسائل . . يقول احد طلابه ، ابو عثمان المازني : « حضرت انا ويعقوب بن السكيت في مجلس الوزير محمد بن عبد الملك الزيات [١] ، وافضنا في شجون الحديث ، فاختلفنا على الفرق بين كلمتي (بينا ، وحين) فقلت : كان الأصمعي يقول : بينا انا جالس اذ جاء عمرو . . فقبل هذا الرأي » [٢] .

ومما يدل على مكانته عند معاصريه ما روي عن ابي العيناء قال : « كان سبب تحولي من البصرة اني رأيت غلاماً ينادى عليه بثلاثين ديناراً ، وهو يساوي ثلاثمائة دينار ، فاشتريته . وكنت ابني داراً ، فأعطيته عشرين ديناراً لينفقها على الصناع ، فأنفق عشرة واشترى بعشرة ملبوساً له ، فقلت

---

(١) كان محمد بن عبد الملك الزيات وزيراً للمتوكل فغضب عليه وقتله .

(٢) نزهة الألباء : ٢٤٧ .

ما هذا ؟؟ فقال : لا تعجل ، فان ارباب المروءات لا يعتبون على غلمانهم هذا . فقلت في نفسي : انا اشتريت الأصمعي ولم ادر » [1] .

ويقول البحتري [2] ، في قصيدة وجهها الى ابراهيم بن المدور يهجو بها أحد المعلمين [3] :

غير ان المعلمين على حا ... ل قليلو التمييز ضعفى العقول
فإذا ما تذكر الناس معنى ... من متين الأشعار والمجهول
قالوا هذا لنا ونحن كشفنا ... غيبة للسؤال والمسؤول
ضرب الأصمعي فيهم ام الأ ... حمر ام القحوا بـ ... الخليل ؟

وقال ابو منصور الثعالبي للأمير ابي الفضل [4] :

لك في الفضائل معجزات جمة ... ابداً لغيرك في الورى لم تجمع
بحران بحر في البلاغة شابه ... شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعي
كالنور أو كالسحر أو كالدر أو ... كالوشي في برد عليه موشع [5]

وفي حديث للسيوطي في كتابه « المزهر » :

« وهذا الأصمعي وهو صناجة الرواة والنقلة واليه محط الأعباء والثقلة ، ومنه تجبى الفقر والملح ، وهو ريحانة كل مغتبق ومصطبح .. » [6]

الى آخر ذلك مما قيل في تمجيده جيلاً بعد جيل وعصراً بعد عصر حتى يومنا هذا . وقبل ان تبدأ النهضة العربية الأخيرة في العصر الحاضر وتكثر المطابع وتنتشر الكتب ويتيسر حصولها لدى القراء ، كانت الكتب

---

(١) طبقات الأدباء : ج ٧ص ٧٠ .
(٢) توفي البحتري عام ٢٨٤هـ .
(٣) زهر الآداب : ج ١ ص ٢٥٥ .
(٤) توفي الثعالبي عام ٤٢٩ هـ.
(٥) زهر الآداب : ج ١ ص ١٢٦ .
(٦) المزهر : ج ٢ ص ٢٦١ .

الخطية هي المصادر الوحيدة لطلاب العلم ؛ ولم تكن هـذه المصادر متيسرة لندرتها وقـلة المتعلمين وصعوبة نقل الكتب باليد ؛ فكان اقرب ما يتناوله العامة سماع قصص البطولات وهي تقرأ في المقاهي والمجالس كقصة عنـتر وغيرهـا . وكان طبيعياً ان يتردد اسم الأصمعي على الأسماع في كل مكان ، ويتعرف عليه العامة بالصورة التي تعطى لهم ، فأصبحت شخصية الأصمعي عند البعض رمزاً للباقة والذكاء والتصنيف والتلفيق ، وراح البعض ايضـاً يشك بصحـة وجود الأصمعي ويتصوره شخصية خيالية من صنـع واضعي القصص ، واعتقـد آخرون بأنه شخص قد يكون حقيقياً ولكنه غلف بروايات وقصص مصنوعة نسبت اليه ، كما غلفت شخصيـة عنتر نفسه بتلك الروايات المزوقة . وقليل من العلماء من كان يعرف ـ يومئذ ـ كنه الأصمعي وحقيقة سيرته . فصارت العامة تطلق كلمة « الأصمعي » على كل مفكر لبق ، او داهية مقتدر ؛ فيقولون على صيغـة التعجب : « اي اصمعي هذا !! » وربما غـلا البعض منهم فأطلق هـذه الكلمة على كل شيء يستحسنه او يكبره ، فيقول : « حصان اصمعي سـابق » و « قصر اصمعي فخم » .

و « الأصمعان » في اللغة هما : الأصمعي والقلب الذكي .

انتهى الطبـع

٢٤ صفر ١٣٧٥

١٠ تشرين اول ١٩٥٥

الفهرست

صفحة

المراجع الرئيسية

المراجع العربية :

١ـ ابن الاثير : علي بن احمد بن ابي الكرم ، (توفي عام ٦٣٠ هـ = ١٢٣٨م)
كتاب « الكامل في التاريخ » ـ بولاق ١٢٧٤ هـ

٢ـ الأصبهاني : ابو الفرج ، علي بن الحسين بن محمد الأموي ، (ت ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م)
« الأغاني » ـ بولاق ١٢٧٤ هـ
« مقاتل الطالبيين » ـ النجف ١٣٥٣ هـ

٣ـ الانباري : ابو البركات ، عبد الرحمن بن ابي الوفاء ، (ت ٥٧٧ هـ = ١١٨٢ م)
« نزهة الألباء » ـ القاهرة \ ١٣٤٧ هـ

٤ ـ البغدادي : عبد القادر بن طاهر ، (ت ٤٢٠ هـ = ١٠٢٩ م)
« الفرق بين الفرق » ـ القاهرة / ١٣٢٨ هـ

٥ ـ البغدادي : عبد القادر بن عمر ، (ت ١٠٩٣ هـ = ١٦٨٢ م)
« خزانة الأدب » ـ القاهرة / ١٣٤٧

٦ ـ البلاذري : احمد بن يحي بن جابر ، (ت ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م)
« فتوح البلدان » ـ القاهرة / ١٣١٨ هـ

٧ ـ البلخي : ابو زيد ، احمد بن سهل ، (ت ٣٢٢ هـ = ٩٣٣ م)
« البدأ والتاريخ » ـ باريس \ ١٨٩٩ م

٨ ـ البكري : عبد الله بن عبد العزيز الأويني البكري ، (ولد عام ٤٨٧ هـ)

« سمط اللآلي في شرح امالي القالي » – القاهرة / ١٣٤٢ هـ

٩ – البيروني : ابو الريحان ، محمد بن احمد ، (ت ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م)
« الآثار الباقية عن القرون الخالية » – ليبزيك \ ١٨٧٩ م

١٠ – ابن بطوطة : محمد بن عبد الله ، (ت ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م)
« تحفة النظار » – باريس / ١٨٥٣ م

١١ – التوحيدي : ابو حيان ،
« البصائر والذخائر » – القاهرة / ١٣٧٣ هـ

١٢ – الجهشياري : ابو عبد الله ، محمد بن عبدوس (ت ٣٣١ هـ = ٩٤٢ م)
« الوزراء والكتاب » – القاهرة / ١٩٣٨

١٣ – الجاحظ : ابو عثمان ، عمرو بن بحر ، (ت ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م)
« البيان والتبيين » – القاهرة / ١٩٢٨ م
« الحيوان » – القاهرة / ١٣٥٩ هـ
« البخلاء » – القاهرة / ١٣٧٠ هـ

١٤ – ابن ابي الحديد: عبد الحميد بن هبة الله ، (ت ٦٥٥ هـ = ١٢٥٧ م)
« شرح نهج البلاغة » – القاهرة / ١٣٤٥ هـ

١٥ – ابن حجة الحموي: تقي الدين بن علي ، (ت ٨٣٧ هـ = ١٤٣٣ م)
« خزانة الأدب » – بولاق / ١٢٩١ هـ

١٦ – ابن حزم : ابو محمد ، علي بن احمد ، (ت ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م)
« الفصل في الملل والأهواء والنحل » – القاهرة / ١٣١٧ هـ

١٧ – الحصري : ابو اسحاق ، ابراهيم بن علي بن تميم ، (ت ٤٥٣ هـ = ١٠٦١ م)
« زهر الآداب » – القاهرة / ١٢٩٣ هـ

١٨ – ابن حوقل : ابو القاسم ، محمد بن حوقل ، (ت ٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م)
« المسالك والممالك » – ليدن / ١٨٨٩ م

١٩ – الخضري : محمد الخضري –
« تاريخ الدولة العباسية » – القاهرة / ١٩١٦ م

٢٠ – الخطيب البغدادي: ابو بكر ، احمد بن علي ، (ت ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م)
« تاريخ بغداد او مدينة السلام » – القاهرة / ١٣٤٩ هـ

٢١ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م)
« المقدمة » - بيروت / ١٨٨٦ م
« كتاب العبر » القاهرة - ١٢٨٤ هـ

٢٢ - ابن خلكان : ابو العباس ، شمس الدين احمد بن محمد ، (٦٨١ هـ = ١٢٨١ م)
« وفيات الأعيان » - بولاق / ١٢٨٣ هـ .

٢٣ - خليفه مصطفى كاتب شلبي ، حاجي خليفه ، (ت ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م)
« كشف الظنون » - ليبسيك / ١٨٣٥ م .

٢٤ - الخوارزمي ابو بكر ، محمد بن العباس ، (ت ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م)
« مفيد العلوم » - مصر / ١٣١٠ هـ .
« رسائل الخوارزمي » - مصر / ١٣١٠ هـ .

٢٥ - الدميري كمال الدين ابو البقاء محمد بن موسى بن عيسى (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م)
« حياة الحيوان » - القاهرة / ١٣٤٥ هـ

٢٦ - ابن رشيق ابو علي ، الحسن بن علي ، (ت ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م)
« العمدة » - القاهرة / ١٣٤٣ هـ

٢٧ - الربعي عبد الله بن احمد بن زبر -
« المنتقى من اخبار الأصمعي عن مجلة المجمع العلمي في دمشق ١٩٢٣ م

٢٨ - زيدان جرجي بن حبيب ، (ت ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م)
« تاريخ التمدن الأسلامي » - القاهرة / ١٩٠٢ م
« تاريخ الأدب العربي » - القاهرة /

٢٩ - ابن الساعي علي بن انجب بن عثمان ، (ت ٦٧٤ هـ = ١٢٧٥ م)
« مختصر اخبار الخلفاء » - بولاق / ١٣٠٩ هـ

٣٠ - ابن سلّام الحافظ ، ابو عبيد ، القاسم ، (ت ٢٢٤ هـ = ٨٣٩ م)
« كتاب الأموال) - القاهرة / ١٣٥٣ هـ

٣١ - السيوطي عبد الرحمن بن ابي بكر ، (ت ٩١١ هـ = ١٦٠٥ م)
« تاريخ الخلفاء » - القاهرة / ١٣٥١ هـ
« نزهة المجالس » - مصر / ١٩٠٨
« المزهر » - القاهرة / ١٣٢٥ هـ

٣٢ - السيرافي : ابو سعيد، الحسن بن عبد الله السيرافي (ت حوالي ٣٨٠هـ = ٩٩١م)
« اخبار النحويين البصريين » - بيروت / ١٩٣٦

٣٣ - الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم بن احمد ، (ت ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م)
« الملل والنحل » - القاهرة / ١٣١٧ هـ

٣٤ - ابن شاكر : محمد ، (ت ٧٦٤ هـ = ١٣٦٢ م)
« فوات الوفيات » - بولاق \ ١٢٨٣ هـ

٣٥ - الطرطوشي : محمد بن الوليد ، (ت ٥٢٦ هـ = ١١٢٦ م)
« سراج الملوك » بولاق / ١٢٨٩ هـ

٣٦ - الطقطقي : محمد بن علي ، (ت ٧٠٢ هـ = ١٣٠١ م)
« الفخري في الآداب السلطانية » - القاهرة / ١٩٢٣ م

٣٧ - الطبري : ابو جعفر ، محمد بن جرير ، (ت ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م)
« تاريخ الأمم والملوك » - ليدن / ١٩٠١ م

٣٨ - ابن طيفور : ابو الفضل ، احمد بن ابي طاهر ، (ت ٢٨٠ هـ ٨٩٣ م)
« تاريخ بغداد - الجزء السادس » القاهرة / ٩٤٠ م

٣٩ - ابن عبد ربه : شهاب الدين احمد ، (ت ٣٤٩ هـ = ٩٤٠ م)
« العقد الفريد » - القاهرة / ١٣٤٦ هـ

٤٠ - ابن عربشاه : احمد بن محمد بن عبد الله (ت ٨٥٤ هـ = ١٤٥٠ م)
« فاكهة الخلفاء .. » - القاهره / ١٨٨٩ م

٤١ - الغزالي : ابو حامد ، محمد بن محمد ، (ت ٥٠٥ = ١١١١ م)
« المنقذ من الضلال » - دمشق / ١٣٥٣ هـ

٤٢ - العسكري : ابو هلال ، الحسن بن عبد الله ، (ت ٣٨٢ هـ = ٩٩٣ م)
« ديوان المعاني » - القاهرة / ١٣٥٢ هـ
« الصناعتين » - الآستانة / ١٣٢٠ هـ

٤٣ - ابو الفدا : اسماعيل بن علي عماد الدين ، (ت ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م)
« تقويم البلدان » - باريس / ١٨٤٠ م
« المختصر .. » - الآستانة / ١٢٨٢ م

٤٤ - الفيروزابادي: محمد بن يعقوب بن ابراهم ، (ت ٨٦١ هـ - ١٤١٣ م)
« القاموس المحيط » - القاهرة / ١٣١٢هـ

٤٥ - القالي : ابو علي ، اسماعيل بن القاسم ، (ت ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م)
« الأمالي » - القاهرة / ١٣٤٤ هـ

٤٦ - ابن قتيبة : ابو محمد ، عد الله بن مسلم ، (ت ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م)
« المعارف » - القاهرة / ١٣٥٣ هـ
« عيون الأخبار » القاهرة / ١٣٤٣ هـ
« الأمامة والسياسة » - القاهرة / ١٩٠٤ م

٤٧ - قدامة بن جعفر : ابو الفرج ، (ت ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م)
« مختصر كتاب الخراج » - باريس / ١٨٦٢ م

٤٨ - القزويني : زكريا بن محمد بن محمود ، (ت ٦٨٢ هـ = ١٢٨٣ م)
« اخبار العباد وآثار البلاد » - كوتجن / ١٨٤٨ م

٤٩ - القلقشندي : احمد بن علي ، (ت ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م)
« صبح الأعشى » - القاهرة / ١٩١٧ م

٥٠ - الكندي : ابو عمر ، محمد بن يوسف ، (ت ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م)
« كتاب الولاة والقضاة » - لندن / ١٩١٧ م

٥١ - الماوردي : ابو الحسن ، علي بن محمد ، (ت ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨ م)
« الأحكام السلطانية » - القاهرة / ١٢٩٨ هـ
« ادب الدنيا والدين » الآستانة / ١٢٩٩ هـ

٥٢ - المبرد : محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، (ت ٢٨٦ هـ = ٨٩٩ م)
« الكامل » - القاهرة /١٩٢٨ م

٥٣ - المرزوقي : احمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني ،(ت حوالي ٤٦٠هـ=١٠٦٣م)
« الأزمنة والأمكنة » حيدر اباد - دكن - / ١٣٣٢ هـ

٥٤ - المسعودي : ابو الحسن ، علي بن الحسين ، (ت ٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م)
« مروج الذهب» - باريس / ١٨٧١ م
التنبيه والاشراف » - ليدن / ١٨٩٣ م

٥٥ ـ المقدسي : ابو عبد الله ، محمد شمس الدين بن احمد (ت ٣٨٧ هـ =٩٩٧م)
« احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ـ ليدن / ١٨٧٧ م

٥٦ ـ المقري : احمد بن محمد ، (ت ١٠٤١ هـ = ١٦٣٣ م)
« نفح الطيب » ـ القاهرة / ١٢٧٩ م

٥٧ ـ المقريزي : تقي الدين ، احمد بن علي ، (ت ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م
« رسائل المقريزي » ـ الآستانة ١٢٨٩ هـ
« اتعاظ الحنفا باخبار الخلفا » ـ بيت المقدس / ١٩٠٨م
« المواعظ والاعتبار .. » ـ القاهرة / ١٢٧٠ هـ

٥٨ ـ ابن منجب : ابو القاسم ، علي بن منجب ، (ت ٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م)
« الاشارة الى من نال الوزارة » ـ القاهرة / ١٩٢٤

٥٩ ـ الميداني : احمد بن محمد النيسابوري الميداني ، (ت ٥١٨هـ = ١١٢٣م)
« امثال الميداني » = القاهرة / ١٣٤٢ هـ

٦٠ ـ النوبختي : ابو محمد ، الحسن بن موسى ، (ت ٢٠٢ هـ = ٨١٧ م)
« فرق الشيعة » ـ استنبول / ١٩٣١ م

٦١ ـ النويري : شهاب الدين ، احمد بن عبد الوهاب ، (ت ٧٣٢هـ = ١٣٣٢م)
« نهاية الارب في فنون الادب » ـ مخطوط بدار الكتب المصرية .

٦٢ ـ ابن هشام : ابو محمد ، عبد الملك بن هشام ، (ت ٢١٨ هـ = ٨٣٣ م)
« السيرة النبوية » ـ القاهرة / ١٣٣٢ هـ

٦٣ ـ ياقوت الحموي : شهاب الدين ابو عبد الله ، (ت ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م)
« معجم الأدباء » ـ القاهرة ١٩٣٦ م
« معجم البلدان » ـ القاهرة / ١٩٠٦ م

٦٤ ـ اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن جعفر ، (ت ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م)
« تاريخ اليعقوبي » ـ ليدن / ١٨٨٣ م

المراجع الأجنبية :

الفرنسية

Le Bon. G.

« La Civilisation des Arabes » — Paris 1882.

Bouvat.

« Les Barmacides d'aprés les Historiens Arabes et Persans. » — Paris 1912.

Carra de Vaud.

« Les Penseurs de l'Islam » — Paris 1892.

Machuel.

« Les Auteurs Arabes » Paris 1919.

Encyclopèdie de l'Islam.

الانكليزية

Arnold. T. W.

« The Califate » — Oxford 1924.

Palmer.

« Haroun el Rashid » — London 1881.

Nicholson. A. R.

« Literary History of the Arabes » — Cambridge 1930.

Le Strange.

« Bagdad during the Abbassid Caliphat » — Oxford 1900.

فهرس الأعلام

فهرس القبائل والشعوب

فهرس الأماكن

كتب للمؤلف

•

١ – La Constitution Irakienne
Paris 1941

« الدستور العراقي »

طبع في باريس عام ١٩٤١ باللغة الفرنسية .

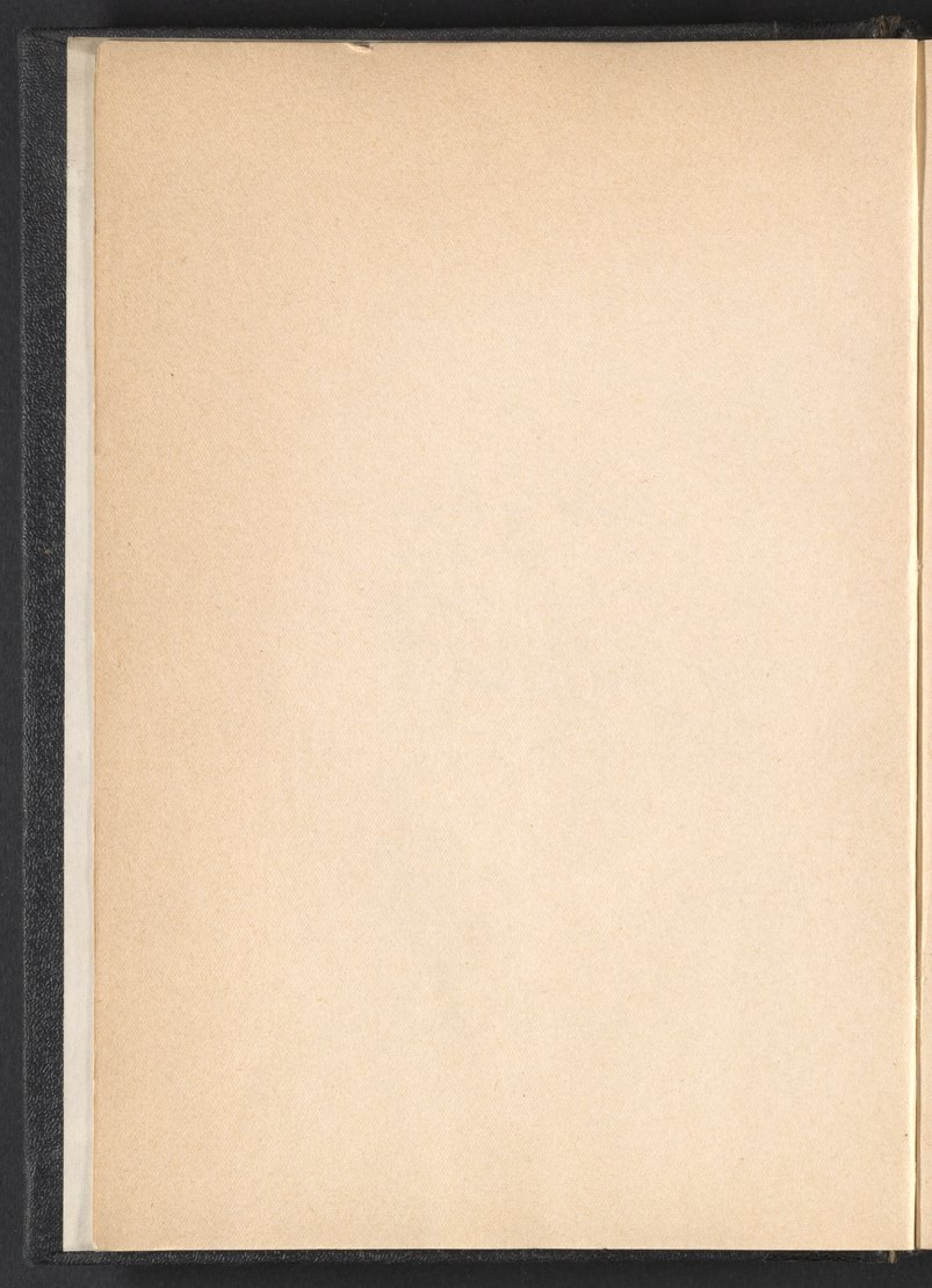
٢ – Le Drame de La Palestine Arabe
Paris 1945

« مأساة فلسطين العربية »

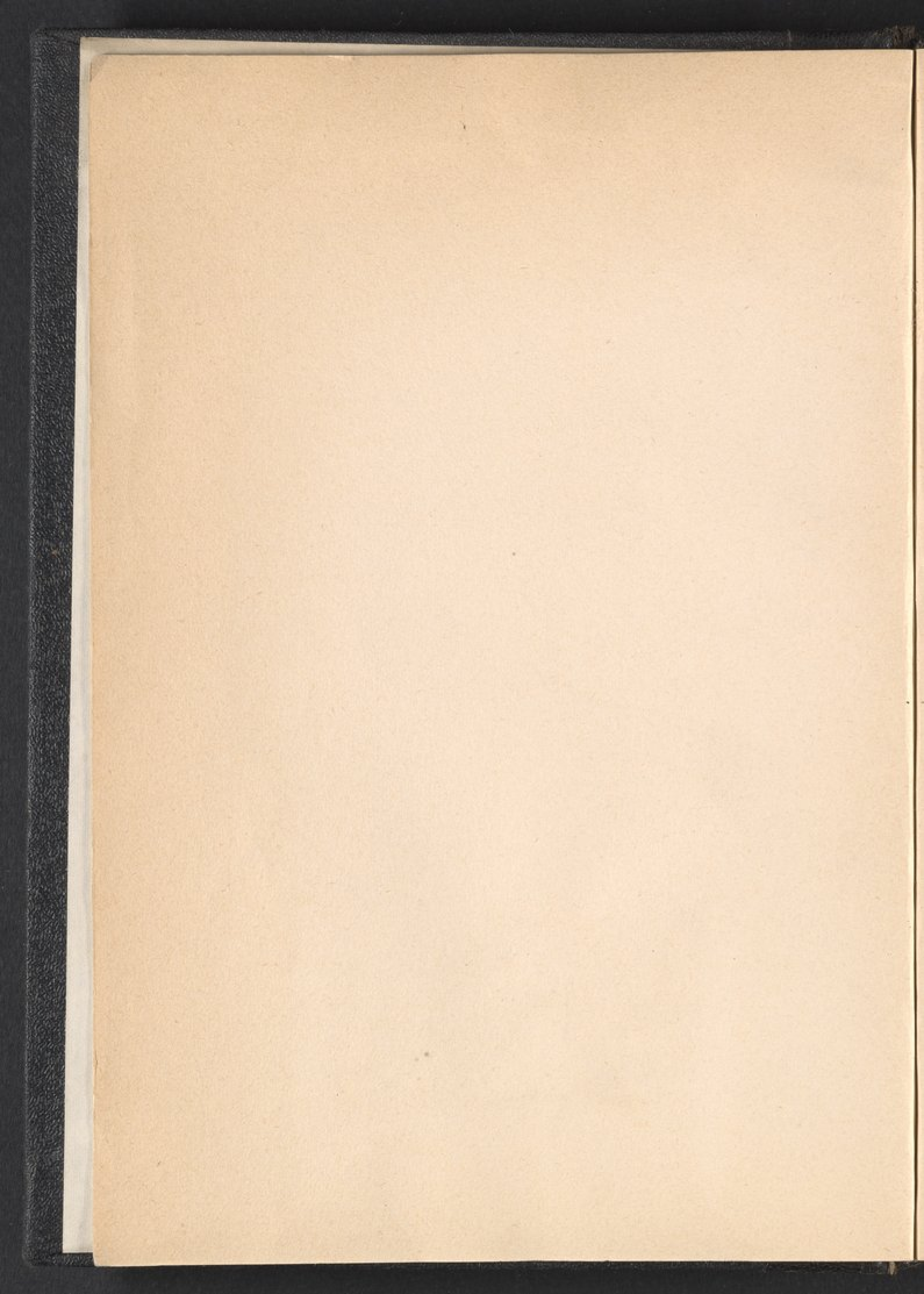
طبع في باريس عام ١٩٤٥ باللغة الفرنسية

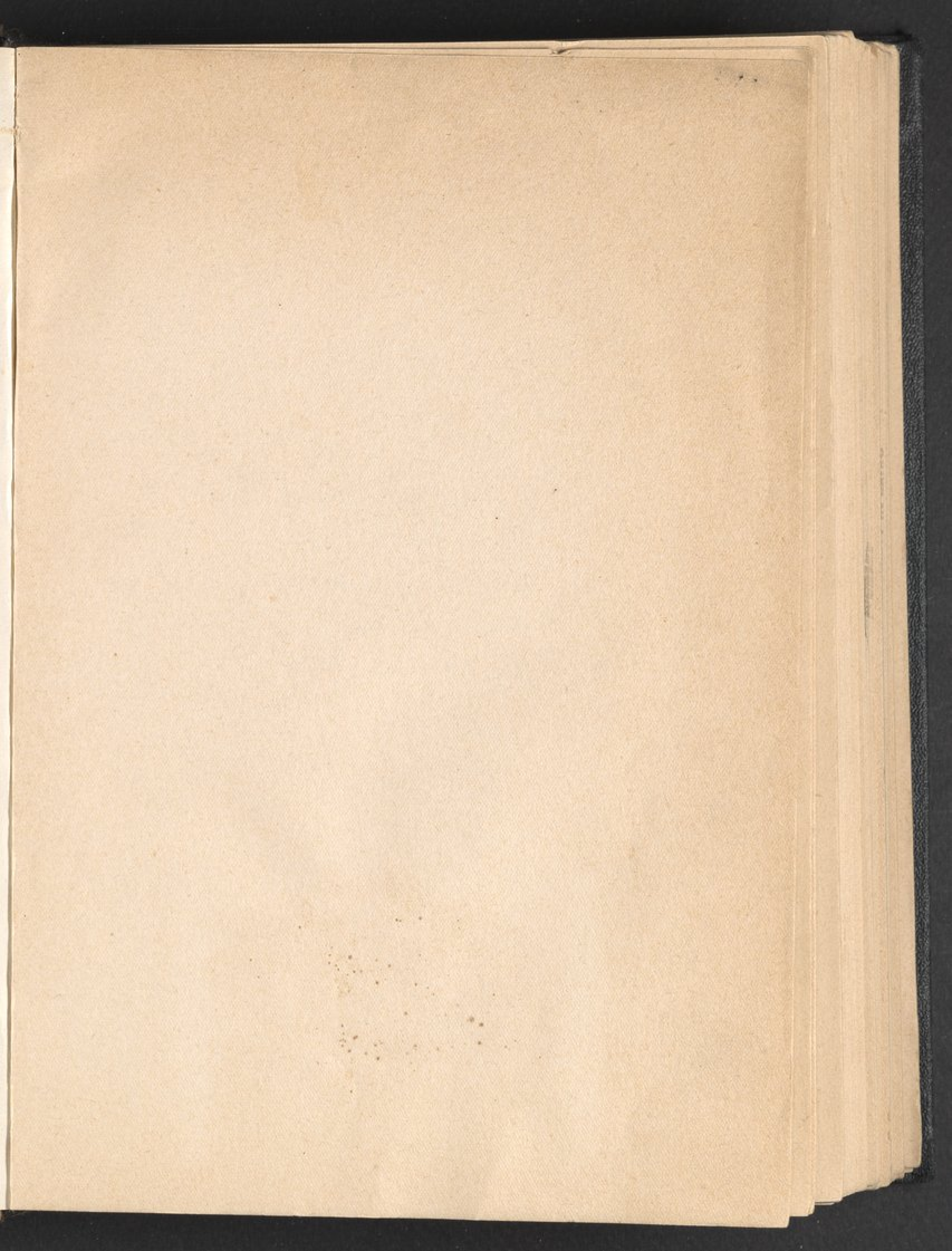
٣ – « الأصمعي : حياته وآثاره »

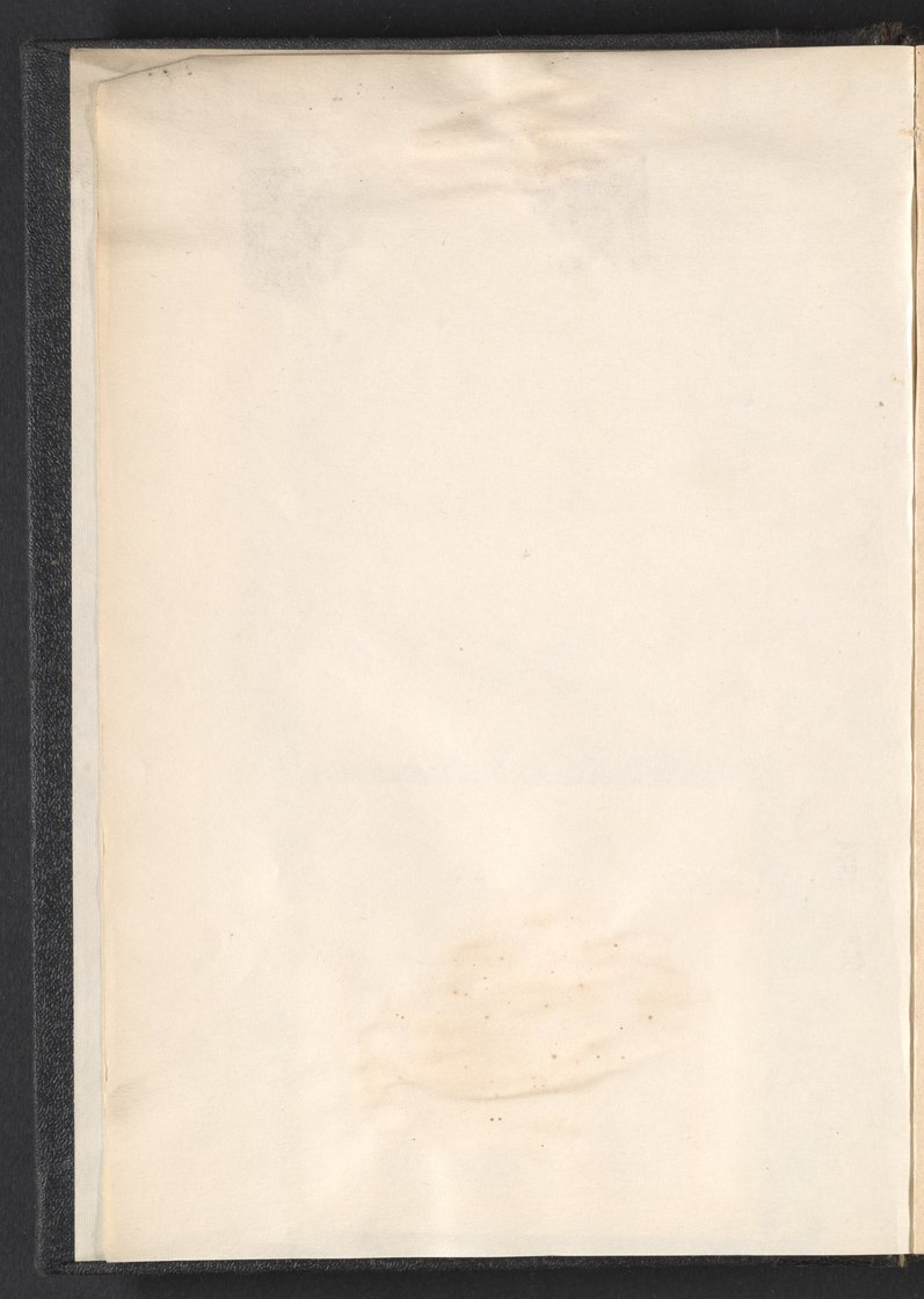
وهو هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء



إنتهى طبع هـذا الكتاب على
مطابع دار الكشاف - بيروت -
في الرابع والعشرين من شهر صفر ١٣٧٥
والعاشـــر من شــهر تشرين
الأول (اكتـــوبر) ١٩٥٥








3 0 MAY 1984
1989




1 7 MAY


10000117917

